تاريخ المقاومة الجزائرية

في القرن التاسع عشر

العربي منور

دار المعرفة

http://albordj.blogspot.com

تاريخ المقاومة الجزائرية
في القرن التاسع عشر

تاليف: العربي منور
الإخراج: قسم التصفيف . دار المعرفة .
ر.د.م.ك : 978-9961-48-168-5
الإيداع القانوني: 1884/2006

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المعرفة

دار المعرفة

10 نهج عبد الرحمان ميرة باب الوادي الجزائر

http//www.elmarifa.com

تاريخ المقاومة الجزائرية

في

القرن التاسع عشر

دار المعرفة

الفصل التمهيدي

نظام السلطة في الجزائر المتبع من قبل دايات الأتراك منذ عام 1671م اتسم بالتخلف وعدم الترشيد والعلمية.

ساعد الدايات في ممارسة السلطة ديوان وزاري، أعضاؤه من وزير الحربية ووزير الخزينة ووزير الخارجية وعضومكلف بجباية الدولة.

نظام دايات الأتراك في الجزائر لم يكن وطنيا ولا قوميا بل وابتعد كثيرا عن تعاليم الإسلام مما جعل الشعب الجزائري ينفر منه ويرفض التعاون معه، بل اعتبره البعض احتلالا صريحا للبلاد والعباد.

مراحل حكم الدايات خلال القرنين 17،18 الميلادي تميزت بالفساد الأخلاقي والمالي وتجاوز السلطة بل واستغلالها في الاستيلاء على أرزاق المواطنين والاستحواذ على المل العام وتحويله أي اختلاسه دون وجه حق، كثرت الاغتيالات السياسية لدواعي السلطة والثروة والاضطهاد للمعارضين والأحرار إلى درجة التنكيل بهم مما كان رئيسيا لاندلاع عدة ثورات شعبية في الجزائر ضد الدايات الذي برهن في أكثر من مناسبة أنه بعيد عن الوطنية ومصالح الأمة.

إن نظام سلطة الدايات الأتراك في الجزائر من حيث أهدافه وسلوكاته اتجاه المواطنين الجزائريين لم يكن يختلف عن غيره من أنظمة الاحتلال الأجنبية التي عرفتها الجزائر عبر تاريخها الطويل والغني بالمآسي والويلات لقد اتبع نظام الدايات طريق الشعوذة بزرع الزوايا والطرقية ومحاربة العلم والعلماء وتغييب التعليم في المجتمع الجزائري، الأمر الذي جعل من بداوته وجهله سنة وتعليمه وعلمانيته بدعة.

سلوك الدايات اتجاه الجزائريين كان مآله الضعف والانحطاط على المواطنين وعلى مؤسسات دولة الدايات التي كانت في واقع الأمر مجرد إمارة متفسخة ومنحلة أخلاقيا وماليا بل ودينيا مما لا يخدم مصالح الجزائريين، إمارة واهية وضعيفة لا تخدم إلا القرصنة وعصابات التهريب، وسلطة اللا أخلاق ولا ضمير لقد أهمل نظام الدايات في

الجزائر التعليم والعلوم والتقنية وتجاهل العمل بالقرآن الكريم والسنة، وتجنب تطبيق نظام الإدارة العلمية في الدولة الجزائرية، مما أعاق الجزائريين كثيرا في تنميتهم.

لقد انشغل رجال السلطة في الملذات الفانية بين الجواري والموسيقى والرقص وأسند مهام الدولة خاصة السياسة منها إلى أشخاص ينحدر أغلبهم من أصل تركي دون مراعاة الكفاءة والقدرة في الإنجاز. مما رتب تأخرا كبيرا علمي وتقني وتنظيمي في الدولة الجزائرية ومؤسساتها وأجهزتها مقارنة بما ألم بدول أوروبا في الضفة الشمالية المقابلة للبحر الأبيض المتوسط.

كل ذلك زاد من أطماع فرنسا ودول أخرى أوروبية في التوسع على حساب الجزائر. رغم أن نية العدوان لدى هذه الدول كانت قائمة منذ زمن طويل وأن رغبة الاحتلال لم تكن طارئة وهي بالتالي ليست (مروحة) أرأفة القرصنة، لكنها صليبية واقتصادية بالدرجة الأولى.

لقد اتضح من عمل فرنسا الهادف بتسليل بعض عناصرها المخبرين بغرض التجسس والتعرف على مختلف المناطق الجغرافية الجزائرية ودرجة الدفاعات، ومكانها، إن هدفها كان عدواني على سيادة الجزائر.

نعم لقد ساومت فرنسا في أكثر من مناسبة بعض الدايات والبايات قصد الحصول على امتيازات خاصة على السواحل الجزائرية للاستفادة منها بحريا وتجاريا، لكن دون جدوى.

صحيح كانت منطقة المغرب العربي كلها محل أطماع الدول الأوروبية بعد أن تسرب الضعف إلى الخلافة العثمانية وبعد أن تعاظمت وتفتحت شهية أغلب الدول الأوروبية نحو تكوين الإمبراطوريات خارج القارة العجوز.

ويمكن إيجاز أسباب ذلك فيما يلي:

1- ظهور التنافس الاقتصادي الأوروبي بفضل الثورة الصناعية بين دول القارة الأوروبية العجوز، التي أفرغت ما لديها من معادن وتكدست أموالها وسلعها وأصبحت في حاجة إلى أسواق لتصريفها خارج القارة من خلال التوسع الاستعماري للسيطرة على الثروات الطبيعية للشعوب المستعمرة، الأمر الذي يسمح لها بتوفير المواد الخام والأسواق واليد العاملة الرخيصة وتوظيف أموالها المكدسة في خدمة اقتصادياتها وحضارتها تحت شعار تحضير وتمدين بقية الشعوب.

2- كثرة الحروب والنزاعات بين دول أوروبا أرهقت شعوبها، وحرمتها من أرزاقها المشروعة لحساب مافيا السلاح والاحتكارات الاقتصادية والريعية الكبيرة مما حول الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أغلب دول القارة إلى حجوم، أثارت نقمة شعوبها، مما دفع الأنظمة الحاكمة فيها إلى صرف اهتمامها خارج القارة لتوسيع المسيحية في التبشير والتنصير وتحقيق التوسع الاستعماري لإتمام بناء صرح الحضارة الأوروبية[1] تزعما هذا الاتجاه كل من انجلترا وفرنسا وبدرجة أقل البرتغال وإسبانيا وهولاندا.

3- الموقع الاستراتيجي لبلدان المغرب العربي، جنوب المتوسط مهد الحضارات الإنسانية وخزان وافر من الثروات الطبيعية أنعم الله على شعوب أبت أن تظل نائمة ولا تفيق إلا على وقع وضجيج أساطيل جيوش الاحتلال الأوروبي.

هذه البلدان التي تزخر بكل الثروات من ماس وذهب ويورانيوم وحديد وبترول وفوسفات وفلاحة وسياحة وبحار والتي لم تفد مواطنيها إلا هما ومآسي جمة نتيجة ما يتخبط فيه من فقر ومرض وتخدير مستمر لهذه البلدان، الجزائر، ليبيا، المغرب، تونس، موريتانيا جميعها كانت محل أطماع التوسع الاستعماري الأوروبي منذ مطلع القرن 19 الميلادي[2]

---

[1] - راجع : أحمد الخطيب ، الثورة الجزائرية ، ص : 40 .

[2] - راجع : شارل أندري جوليان ، إفريقيا الشمالية تسير ، ص : 16

4– غياب دفاعات أمنية لدى دول المغرب العربي، وتناحر حكامها فيما بينهم جعلهم مطمعا سهلا بل ومغريا لأغلب دول أوروبا التي أصبح ميزان القوة لصالحها بعد حيازتها للصناعات الحربية والأساطيل القوية وبعد أن تفوقت على الإمبراطورية العثمانية الغارقة في شهوات حكامها، والتي أضحت مريضة لم تستجيب لأبسط دعوات أعضائها في مقاومة الاحتلال والهيمنة الأوروبية.

إن نوايا أوروبا في احتلال بلدان المغرب العربي ظلت جاهزة منذ طرد العرب من الأندلس عام 1492 أي عام اكتشاف أمريكا، الأمر الذي ذكره القنصل الفرنسي كيريسي في مذكراته وضمن تقريره الذي وجهه إلى سلطته الفرنسية في عام 1791 م.

هذا القنصل الذي أشار إلى وجود مشروع لاحتلال الجزائر ومنها بقية البلدان المغاربية بواسطة الجيوش الفرنسية والأوروبية للانتقام للمسيحية الصليبية من المسلمين الذين أهانوا أوروبا في زمن ما، لحاجة أوروبا إلى فضاء واسع لخدمة نهضتها واقتصادها وتحقيقا للهدف المقدس كما يقول القنصل اقترح على قادته احتلال الجزائر ومكان الهجوم والاختراق في أضعف دفاعاتها.

نفس المشروع، مشروع احتلال الجزائر كبوابة لاحتلال بقية أقطار المغرب العربي الغني بالثروات الطبيعية ثم للتوسع في إفريقيا أشار إليه وأكده عمليا الخبير الفرنسي بوتان Boutin الذي كان يعمل في الجيش الفرنسي كضابط سلاح الهندسة العسكرية.

والذي أنجزه بناء على طلب قائده الأعلى نابليون عام 1808 مشيرا فيه إلى ضعف الدفاعات الجزائرية على سواحلها، الأمر الذي يوضح توافر سوء النية وسبق الإصرار والترصد قصد احتلال الجزائر لدى الجهات الرسمية الفرنسية والأوروبية منذ القرن الثامن عشر (18) الميلادي.

ويبعد نهائيا ذريعتي القرصنة أوما أصبح يعرف حاليا بالإرهاب الدولي وقصة المروحة والإهانة لفرنسا من قاموس الاستعمار.

لقد كانت للبحرية الجزائرية بفضل يقظتها لجنوب البحر الأبيض المتوسط وللتجارة الدولية فيه هلجس مقلق لدول أوروبا، التي كانت تفضل هيمنتها وفرض قانونها على الجميع، خاصة بعد أن تولت هذه البحرية إنقاذ المسلمين المضطهدين من قبل الاسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين، وفرض أتاوات كضريبة المرور البريء لسفن الدول الأوروبية في جنوب البحر الأبيض المتوسط[1] الأمر الذي يتماشى وقواعد القانون الدولي المعاصر.

لقد تم مناقشة عدة أفكار ومشاريع أوروبية جلها ذات طابع توسعي في مؤتمر فيينا واتضح للدول الأوروبية الحاضرة فيه.

إن عوائق هذا التوسع تتوقف على التخلص من الأسطول البحري الجزائري الذي يقلقها بل ويزاحمها في البحر الأبيض المتوسط خاصة وأن الدولة العثمانية المريضة لم تعد تخيف هؤلاء الأوروبيين، الأمر الذي يحتم على الصعيد الداخلي لكل دولة أوروبية تبرير التوسع الاستعماري بمقتضيات المصلحة العليا للأمة وتدعيم الاقتصاد القومي، وخارجيا إلحاق تهمة القرصنة البحرية بالدولة الجزائرية الجريمة الدولية التي أصبحت تعرف حاليا بالإرهاب الدولي لتوفير المشروعية الدولية للتدخل الفرنسي والأوروبي والدولي ضد الجزائر قصد تأديبها وقمعها، وهونفس الأسلوب المنتهج حاليا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد العالمي.

وفي مؤتمر فيينا المذكور اقترح الوفد الفرنسي ضرورة حصوله على تزكية جماعة لما سيقوم به ضد الجزائر، حماية للتجارة الأوروبية وحماية

---

[1]- راجع : مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج – 3 ص : 276

للمسيحيين الذين يتعرضون للاسترقاق البحرية الجزائرية دون وجه حق[1] إن فرنسا الطامعة والعارفة بأطماع الدول القوية الأخرى في الجزائر، راجعت وقائع التاريخ وتأكدت من خلال الأحداث الآتية:

- الحملات الإسبانية على الجزائر (541، 1775، 1783) كانت جلها فاشلة بسبب قوة الأسطول البحري الجزائري وضعف القوة البحرية الإسبانية.

- الحملات الإنجليزية (1655، 1672، 1816، 1824) والتي كانت أكثر تدميرا وتهويلا للجزائريين وعبرت لهم عن نوايا وأهداف الأوروبيين اتجاه المسلمين الجزائريين، لكن دون جدوى.

- الحملات الهولندية (1663 – 1816) والتي أيضا باءت بالفشل لعدم الدعم اللوجستيكي ولبعد هولندا عن السواحل الجزائرية.

- الحملات الفرنسية (1683 – 1684 – 1687) التي كانت لجس نبض قوة البحرية الجزائرية ومعرفة مدى قوة الدفاعات الساحلية الجزائرية، كلها انتهت بالفشل الذريع لانشغالها بحروبها في أوروبا ولعدم تأكدها من نهضتها الصناعية ولخوفها من رد الفعل للدولة العثمانية الوصية على الإمارات الإسلامية الهشة في أنظمتها وقوتها.

غير أن جل الحملات العسكرية الأوروبية على الجزائر لم تكن قصد الاحتلال العسكري، لكن فحسب كانت لجس نبض البحرية الجزائرية ومدى قوة رد الفعل لديها وتحديد محيط العمليات الجدية المبرمجة لردع الجزائر واحتلالها.

---

[1]- راجع : مبارك بن محمد الهلالي الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج- 3 ، ص : 262 .

وأمام مختلف التحديات الداخلية والدولية للدول الأوروبية اضطرت حماية لمصالحها التجارية والإنسانية إلى عقد اتفاقيات دولية مع الجزائر على الوجه الآتي:

- هولندا عقدت اتفاقية مع الجزائر في عامي: 1680 – 1736م.
- فرنسا عقدت اتفاقية مع الجزائر في عامي: 1683 – 1719م.
- بريطانيا عقدت اتفاقية مع الجزائر في عامي : 1682م.
- البرتغال عقدت اتفاقية مع الجزائر في عامي : 1793م.
- إسبانيا عقدت اتفاقية مع الجزائر في عامي : 1792م.
- الولايات المتحدة الأمريكية عقدت اتفاقيتين مع الجزائر في عامي: 1796 م

كل هذه الاتفاقات كانت دولية، أطرافها اعترفوا بسيادة الجزائر وحقها في تلقي أتاوات سنوية، مع استفادة للجميع من المرور البريء في جنوب البحر الأبيض المتوسط بغرض التجارة وطبعا التجسس على المسلمين وقوتهم.

والملاحظ أن معاملة الند للند على صعيد العلاقات الدولية يستند إلى تفاوض، يرتكز على القوة الفعلية للدولة فحين اختل التوازن بين العالم الأوروبي والعالم الإسلامي بفضل ظهور وترسخ الثورة الصناعية في الأول وازدياد قوة تقنية وتعاظم جبروتها مع اتفاق كلمتها على ضرورة قمع القرصنة في جنوب البحر الأبيض المتوسط وفرض إرادته في التوسع داخل فضاء استعماري، لم يعد هنالك مجال في التوازن لأن ميزان القوة أصبح لصالح الأوروبيين، بينما الخطر زاد حدة بعد أن فقدت الجزائر أسطولها البحري في معركة نافارين عام 1827 م، مما جعل احتلالها أقرب إلى الواقع.

وحينئذ أصبح السبب المباشر والمختلف لشن فرنسا عدوانها على الجزائر حادثة "المروحة" خاصة بعد أن تأكدت فرنسا أن دول

أوروبية أخرى لها نفس الأطماع في الجزائر وأن قوة الجزائر البحرية لم تعد قائمة ولا تمنع مثل هذه الدول التي تكون اسبانيا الراغبة في الانتقام من المسلمين على احتلالهم لأراضيها يكون الانجليز الذي ينافسون فرنسا ويسعون إلى حرماتها من الفريسة السهلة وخلق فضاء استعماري منعش بل قد تكون هولندا التي تتمتع بقوة صناعية وقوة بحرية وتبحث على ثروات الجزائر وأوكسجين الجزائر النقي الطبيعي، لتجديد طاقتها وإنعاش اقتصادها.

لقد حرصت فرنسا قبل كافة الدول الأوروبية أن لا تسبقها دولة أخرى في التخلص من هيمنة القوات البحرية الجزائرية والتخلص من تبعات ديونها اتجاه الجزائر والسيطرة على الثروات الجزائرية بما فيها الممتلكات العامة والخاصة.

وكانت الفرصة الثمينة عندما توجهت وحدات الأسطول الجزائري إلى الشرق للمساهمة في الدفاع عن ما تبقى من الدولة العثمانية المريضة، فابتعد عن السواحل الجزائرية، ونقص عنه الدعم اللوجيستيكي هذا الأمر الذي أكده المؤرخ هانري تشاوبقوله : "إن الحكومة الفرنسية كان في علمها مساهمة وحدات الأسطول الجزائري في الدفاع عن تركيا، وعند إقحامه في المعركة وجهت تعليمات إلى قنصلها في الجزائر أمرته باغتنام أي مناسبة لإساءة العلاقات مع شخص الداي حاكم الجزائر.

وحيث أن العلاقات بين الجزائر وفرنسا كانت شبه سيئة بسبب رفض وتماطل الطرف الفرنسي في إنجاز ما عليه من وفاء بالديون.

وظهور نزعته نحوالمساومة والتسلط في جانبه، الأمر الذي اتضح جيدا عند كل مطالبة بالديون المترتبة على فرنسا للجزائر نتيجة حصولها على القمح والشعير منذ 1797 م وقت أزمتها وتعرضها لحصار بريطانيا أثناء حروب نابليون وجيوشه الفرنسية.

وحادثة أوقصة "المروحة" جاءت بعد أن تأكدت السلطات الفرنسية من إغراق معظم قطع الأسطول الحربي الجزائري أثناء مشاركته في صد العدوان الأوروبي عن تركيا في معركة نفاريسن عام 1827 م.

مشاركة في الدفاع عن دايات الأتراك الجلادين الذين لم يكن همهم في الدول الإسلامية إلا خيراتها، وعلى عاتقهم تلقي مسؤولية عدم الاهتمام بالتعليم والعلم والتقنية في أغلب الأقطار التي كانت تابعة لإمبراطوريتهم المريضة حتى النخاع.

فبدل تحضير الأقطار الإسلامية علميا وتقنيا للحفاظ على التوازن بين الشرق والغرب، تطور الغرب ونام الشرق بفضل شعوذة العثمانيين وقبضتهم الفولاذية على الشعوب الإسلامية تحت شعار الأمة الإسلامية فكانت الكارثة وكان الاستعمار الأوروبي الصليبي لأغلب الدول الإسلامية ما دام شعوبها تعلم أن المتعلم لا يمكن أن يستعمل أويستعمر.

وأثناء غياب الأسطول الحربي البحري الجزائري وقعت حادثة المروحة المصطنعة التي تذرعت فرنسا بها لشن عدوانها الصليبي الظالم على الجزائر، وكان ذلك بمناسبة تنظيم الداي حسين حاكم الجزائر لحفل استقبال بمناسبة عيد الفطر في 29 أبريل 1827 م دعا إليه القناصل الأجانب المعتمدين لدى دولة الجزائر إلى جانب ضيوف آخرين مدعوين لنفس المناسبة.

وكما جرت العادة، صافح الداي السادة القناصل وكان من بينهم قنصل فرنسا السيد دوفال "Duval" المقيم بالجزائر، فبعد أن سأله عن صحته وعائلته ودولته فرنسا، سأله عن سبب تجاهل ملكه لرسائله، والتي تخص تسديد فرنسا لديونها اتجاه الجزائر الخاصة بالقمح والشعير والتي قدرت بأكثر من 300 مليون فرنك بالذهب.

غير أن رد الفعل الفرنسي كان جاهزا يستند على تعليمات السلطة الفرنسية والهادف إلى استفزاز الداي حسين وإثارة عصبية أي أن الرد كان وقحا، تجاوز فيه القنصل قواعد اللياقة القنصلية والدبلوماسية المتعارف عليها دوليا، الأمر الذي دفع الداي وهوفي عصبية غير معهودة إلى ضرب القنصل الفرنسي الوقح بالمروحة في وجهه، مع أمره بمغادرة القاعة أي طرده من قاعة الضيوف المدعوين الحاضرين.

الدولة الفرنسية المسيحية الصليبية الوقحة هي الأخرى، بعد يومين من الحادثة وقبل التأكد من الوقائع اعتبرت ذلك إهانة لها ولقنصلها وطالبت من الداي حسين الاعتذار والتعويض. وخلال مدة لم تتجاوز الشهر الواحد توسطت عدة شخصيات مرموقة في زمانها بين السلطات الفرنسية ودولة الداي حسين حتى لا نقول دولة الأتراك في الجزائر ولأنها لم تكن دولة الجزائريين في شيء من بينهم ممثل الكنيسة المسيحية بروما وممثل الكنيسة الأرتودكسية في موسكو، بلد روسيا وأصدقاء في أوروبا للجزائر وممثل الدولة العثمانية وممثل السلطان المغربي وباي تونس ولكن دون جدوى ولإصرار فرنسا على الاعتذار المكتوب والتعويض العادل للقنصل ولفرنسا كدولة.

وما يجب أن يشار إليه في هذا الشأن أن السلطة الفرنسية كانت تعلم بأسرار الداي حسين ودولة الأتراك في الجزائر.

إن معظم قطع الأسطول الحربي البحري الجزائري قد أغرقت في معركة نافارين عام 1827 م، وأنها بالتالي ما خططت له منذ زمان قد حان قطف ثماره.

فكان شرطها في مساومة الداي حسين بالتعجيزي، لأن الهدف كان الحصار ثم الاحتلال.

إن رفض الداي حسين الاعتذار والتعويض المطالب بهما قد يكون محل تساؤل، ولكن ذلك أدى إلى توفير العلاقة بين دولة الداي

وفرنسا التي مباشرة أعلنت الحصار البحري الشامل على الجزائر ابتداء من تاريخ 16 جوان 1827 م.

فرنسا التي ضخمت دواعي الحصار على جزائر الداي متذرعة بضرورة القضاء على حكم الأتراك للجزائريين وضرورة تخليص أوروبا والعالم المسيحي والتحرر من القرصنة التركية، ولم تذكر أبدا أن هدفها كان ثروات وممتلكات الجزائر والتنصل نهائيا من دفع ديون القمح والشعير الذي هوعلى عاتقها منذ أواخر القرن الثامن عشر، أيام محنتها أمام الحصار البريطاني بسبب حرب نابليون.

أقامت حصارا بحريا على الجزائر، وبدأت تفكر في خطة الغزوالكامل لدولة الأتراك في الجزائر، لكن تفاديا للخسارة في الأرواح والمعدات الحربية فضلت أن يقوم محمد علي باشا برا بالمهمة لصالحها، لكن هذا الأخير لاعتراض العثمانيين والانجليز وخوفا من الرأي العام الإسلامي ظل ينتظر في الظروف الملائمة التي لم تتحقق على الإطلاق[1].

مما جعل حصار فرنسا البحري للجزائر في موضع معارضة شديدة خاصة من قبل الدولة العثمانية المريضة وبريطانيا الخصم العنيد لفرنسا والأسد الذي لا تغيب عنه الشمس، وبالتالي اضطرت إلى رفعه ولكن إلى حين.

ثم عاودت الكرة ثانية، لكن هذه المرة قصد الاحتلال الفعلي إذ بتاريخ : 25 ماي 1830 م توجهت الحملة الفرنسية الصليبية من ميناء طولون، قاصدة المساس بسيادة شعب والاعتداء عليه في عقر داره تحت قيادة المجرم وزير الحرب المارشال دوبورمون "Debeur Moud" طبعا هذا المجرم تلقى أوامره من السلطة الفرنسية قصد احتلال إقليم شعب

---

[1]- راجع : جماعة من المؤلفين العرب ، الموسوعة العسكرية ، الجزء 7 بيروت 1981 ، ص : 120

والمس بكامل حرماته بل وتقتيل مواطنيه وتعذيبهم وإكراههم تحت السيطرة وإذلال دون وجه حق ودون ضمير إنساني.

جيوش الاحتلال الفرنسية تمّ نقلها على متن 103 سفينة حربية مجهزة بأقوى مدافع الجيوش الأوروبية و572 سفينة نقل للجنود والعتاد حاملة على متنها أكثر من 40000 عسكري محترف من فرنسيين ومرتزقة أوروبيين، وقرابة 4000 حصان، علاوة على 20 بطارية مدفعية ميدان ووحدة مختصة في سلاح الهندسة العسكرية تجاوز تعدادها 500 رجل.

جيوش الاحتلال الفرنسي في هذه الحملة العسكرية الكبيرة وصلت إلى منطقة سيدي فرج في ليلة 14 جوان 1830 م التي لا تبعد عن عاصمة الإقليم الجزائري ألاب 25 كلم من جهة الغرب.

إذن الاستعمار الفرنسي اختار سيدي فرج كموقع بداية الإنزال البحري والهجوم على الشعب الجزائري باعتباره نقطة ضعف في الدفاعات الجزائرية.

تم اختياره طبقا لخطة عسكرية قدمها الضابط الفرنسي بوتان "Boutin" ودرست من قبل قيادة الجيش الفرنسي الذي تبناها، تنفيذا لأمر صادر من نابليون عام 1808 م وما يقتضي الحال ذكره في هذا الشأن إهمال دايات وقيادات الأتراك في الجزائر لهذه الخطة الخطيرة التي أضرت كثيرا بالشعب الجزائري وبسيادته، رغم علمهم بها.

لقد كان الداي وقياداته يعرفون حتى مكان الإنزال وموقع الهجوم الفرنسي المنتظر منذ عام 1810 ولم يفعلوا شيئا، إهمال إجرامي في حق الشعب الجزائري، بينما الداي حسين وعصابته الحاكمين في الجزائر ظلوا يتناحرون على السلطة ويغتالون المعارضين لأفكارهم ولم يقلقوا أنفسهم بالدفاع والاستماتة من أجل الجزائر.

الأمر الذي يفسر اختيار الداي حسين الجاهل بشؤون الحرب والجاهل لذوي الكفاءات من ضباطه، فقد أسند القيادة العامة للجيش لصهره البليد وغير المجرب الأغا ابراهيم، الذي كان يجهل حتى عدد وحداته واختصاصها ولم يحاول اعتراض هجوم الجيوش الفرنسية أوعلى الأقل منعها من القيام بعمليات الإنزال البحري في سيدي فرج.

وقد سبق للداي حسين أن أبلغه أحمد باي عن مضمون الخطة الفرنسية حسب رأي مخابرات الجيش ونصحه بتوقيف هجوم الفرنسيين بدفاعات متحركة ومهاجمته من الخلف عن طريق وادي مزفران من الغرب لكن دون جدوى.

وتكتيكيا كان بالإمكان السعي لحوتوقيف عملية الإنزال البحري بهجومات مضادة وسريعة على طلائعه وعند تقدم بعض قواته تحت حماية مدفعية البواخر الحربية ومدفعية الميدان، ووصلت هذه القوات إلى سهل أسطاوالي يوم 16 جوان 1830 م ثم يوم 4 جويلية وصلت إلى المدخل الجنوبي للعاصمة كان بالإمكان مهاجمة العدومن الأجناب وحتى من الخلف، خاصة باستغلال الليل والظلام، حتى تقل مراقبته ورؤيته وكان بالإمكان دحر طلائعه ليلا.

بينما على عكس المنطق والخبرة العسكرية بدل أن يقاوم الداي حسين وعساكره وحاشيته بادر إلى المفاوضة مع الفرنسيين يوم 5 جويلية 1830 م وجيوش الاحتلال لم تدخل العاصمة بعد.

وكان أصبح الداي بالفعل يشعر أنه لم يكن من أبناء البلد لكن كان في الأصل تركي ولا علاقة له بالجزائر. أوعلى الأقل حاول تسهيل مهمة جيوش الاحتلال بتحقيقها للسيطرة الفعلية على الجزائر ثم على بقية المناطق الأخرى.

ولأنه كان في الإمكان أن ينسحب الداي حسين وجيشه خارج العاصمة، ويتولى المقاومة، دون التفاوض ودون الاستسلام الذي وقع

بالفعل يوم 05 جويلية 1830 م، الأمر الذي سهل فعلا من مهمة احتلال الجزائر وعند استسلام الداي حسين استسلم الكثير من قادة جيوشه والكثير من المجاهدين الجزائريين لأنهم جميعا أصيبوا باليأس والإحباط.

وبعد أن غادر الداي حسين المستسلم وحاشيته وجمع معه أعز ممتلكاته بما فيها قرابة العشر قناطر من الذهب والجوهرات، التي تتعدى قيمتها 100 مليون فرنك من ذهب، والتي تشكل رأس ماله فضله على شعبه حتى قيل أن الداي حسين سهل مهمة الاحتلال وكان عونا لفرنسا وعند استسلامه تمت الاستجابة إلى كل طلباته.

والمتضرر الأكبر كان الشعب الجزائري الذي فقد سيادته وفقد عزته وكرامته.

بينما استولى الاستعمار الفرنسي على باقي الأسطول الحربي الجزائري وكافة الممتلكات العمومية والخاصة وانتهج سياسة الأرض المحروقة اتجاه الجزائريين ومؤسساتهم، دخلت جيوشه المساجد فدنسوها وانتهكوا الحرمات والأعراض، فعاثوا في الأرض فسادا اغتصبوا النساء وخطفوا الأطفال إلى أوروبا وقتلوا وعذبوا البالغين من الرجال، كل ذلك كان انتقاما من مقاومة الوطنيين الجزائريين، لأن الأتراك فضلوا الاستسلام مع قائدهم الجبان الداي حسين الذي يعتبر مسؤولا تركيا وجزائريا في آن واحد واستسلم ورحل عن الجزائر ولا يعقل أن يكافئ الخائن الجبان بتخليده في أرض الأبطال بإطلاق اسمه على أحد أفضل الأحياء في الجزائر، هل كان ذلك فعلا وصية لشهداء الجزائر ؟ الجواب لا، كيف لا وقد كانت سيرة الداي حسين السلبية اتجاه جيوش الاحتلال باستسلامه مشجعا لاندفاع جيوش الاحتلال نحووهران ومستغانم وعنابة والشلف والبليدة والمدية والبويرة في أقل من سنتين لتعاون الخونة معها وللإحباط واليأس الذي لحق بالمقاومين الجزائريين.

أن الموقف السلبي للدايات الحاكمين في الجزائر الذين كانوا يعرفون الكثير عن نوايا السلطات الفرنسية وحكامها وعن خططهم التي حضروها منذ القرن 18 لاحتلال الجزائر بسبب مضايقة بحريتها لتجارتهم في جنوب البحر الأبيض المتوسط، وبسبب دفاعها في أكثر من مناسبة عن الدولة العثمانية حامية الإسلام لكن للأسف بالشعوذة والنصب والاحتيال وليس بالعلم والتكنولوجية كما فعلت الدول الأوروبية في دفاعها عن المسيحية.

وأيضا بسبب دفاع البحرية الجزائرية عن سيادة الجزائر وقد سبق أن أشرت إلى عدد الحملات العسكرية البحرية الأوروبية التي تجاوزت العشر، جميعها كان هدفها النيل من الأسطول الجزائري وبالتالي احتلال الجزائر.

ولا يخفى على أحد خبرة العلماء الأوروبيين المتعاونين مع جيوشهم على خلاف المسلمين الذين لا يسمع لنصائحهم لأن السلطة بيد الجهلة وقادة جيوشهم المتخلفة وهي جهة الحل والربط.

لا يخفى على علم أحد أن خبراء الجيوش الأوروبية يعلمون جيدا مدى نفور الشعب الجزائري من حكامه الأتراك ومدى الشرخ الكبير بين الشعب والسلطة في الجزائر، العامل المهم عسكريا لتحديد مستقبل المقاومة ضد أي احتلال في إقليمه، الأمر الذي برهن عليه الزمن بمجرد استسلام الداي حسين بتاريخ 5 جويلية 1830 انكسرت كل وحداته العسكرية واستسلمت بسرعة البرق، الأمر المدهش حقا، والذي لا يفسره إلا عامل الخيانة من قبل سلطة الأتراك في الجزائر في تعاملها المريب مع العدو[1].

[1]- راجع : مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر القديم والحديث ، ج – 3 ص ك 278 .

حتى كتابات وزير الخارجية الفرنسي تاليران إلى قنصلة في الجزائر وجميع الأسئلة التي طلب إجابة عليها وصلت إلى أيادي الدايات ومنهم الجبان الداي حسين، المهمل أوالخائن لم يحرك ساكنا وكان أمن الجزائر لم يعد مهددا أولا يهمه وقد تسلط العاقل من الجزائريين أين كان رجل الجزائر ؟ رجل الجزائر حضروا فعلا وعارضوا الدايات ولكن كان مصيرهم الابتزاز والمساومة والسكوت أوالاغتيال.

وما أشبه البارحة باليوم عندما يتولى النظام الحاكم في عهد الباقين بوضع أكثر من 2000 إطار في السجون الوطنية ومتابعتها بتهم مختلفة مثل الإهمال في التسيير وتبذير الملل العام وتحويله لأغراض أخرى ثم يقر ببراءة أكثرهم دون حياء، إنها عمل "الأيادي النظيفة" وصاحبها رجل المهمات القذرة، الذي تحتاج دولة إلى التضحية.

ويعمل نفس النظام على تهميش أغلب الكفاءات الجامعية والمتخصصة في الدولة والمجتمع. التي تضطر إلى مغادرة الوطن لخدمة الخصوم والأشقاء الشماتين.

وهل غاب العقلاء في عصرنا وفي بلدنا، الجواب، لا؟ موجودون في كل مكان وفي كل مؤسسات الدولة وهم خير للمجتمع وللدولة وللسلطة ولكنهم لا يسمعون لأنهم أحياء، وقد يسمعون عندما يغادرون هذه الدنيا أويغادرون ديارنا على الأقل.

إن أمثل الداي حسين الجبان، المستسلم في ديارنا حاليا كثيرون ولا يهمهم مصير الجزائر، كما كان الشأن بالنسبة للدايات الذين حكموا الجزائر لم يفكروا في أمنها ولا في شعبها.

ومن ثمة فإن نية العدوان لدى السلطات الفرنسية التوسعية كانت مبيتة منذ القرن 18 الميلادي وحتى موقع الإنزال البحري الفرنسي حدد في بداية القرن 19 الميلادي.

إن سوء نية فرنسا وقصدها الجنائي كان واضحا من رغبات سلطاتها الرسمية في تشويه سمعة الجزائر أمام الرأي العام الفرنسي والرأي العام الأوروبي[1].

وأمام معارضة الدولة العثمانية والرأي العام الإسلامي لكل التهم الملفقة التي كانت تدفع بها فرنسا، سعت هذه الأخيرة بمكرها التقليدي إلى تحريض الأخوة للإضرار بالجزائريين، مثل ما فعلته مع بايات تونس ومع بشوات مصر الذين فهموا جيدا مقاصدها.

لقد خططت فرنسا بكل تأني وبمصلحة قصد احتلال الجزائر واستغلال ثرواتها ونهب خيراتها، وعقدت العزم على أن يكون استعمارها استيطاني وليس مؤقتا كما يذهب إليه بعض المؤرخين الجزائريين والأجانب.

الذين اعتمدوا على تقرير اللجنة العليا لسلطة الاستعمار التي أنشئت بمرسوم ملكي فرنسي في 12 ديسمبر 1833 م الذي قصد تغليط الرأي العام الدولي دون الفرنسي.

ذلك أن الفرنسيين كانوا يعانون من المجاعة وسوء التغذية وقد أوصلتهم حكومتهم إلى أكل الفئران والكلاب والقطط التي أصبحت نادرة في شوارع باريس ومرسيليا وليل ونانت ونيس لكثرة التهافت عليها وبطشت بهم الأوبئة والجرائيم لقلة الدواء ولإهمال السلطة الفرنسية.

وكان يقلق السلطات الفرنسية مطالبتها بدفع ديون الحبوب الجزائرية التي كانت على عاتقها وبالتالي يرضيها ويرضي الشعب الفرنسي تسوية مشكل الديون نهائيا بالاحتلال العسكري.

---

[1]- راجع : كلود مارتان Claud Marty " تاريخ الجزائر الفرنسية ج 1 ، ص : 67.

كما أن مثل هذا الاحتلال يثري السلطة الفرنسية وقادة جيش الاحتلال ويعود بالنفع على كامل الشعب الفرنسي وبالفعل لم تمض السنة الرابعة على عمر الاحتلال الفرنسي لاستيلائها على أخصب الأراضي الفلاحية في نواحي المتيجة ووهران ومستغانم وعنابة والبليدة والمدية والشلف حتى أقلع الفرنسيون عن أكل الفئران والكلاب والقطط، وأصبحت هذه الأخيرة تتجول بحرية في الشوارع الفرنسية وفي مدنها.

لأن المنتوجات الجزائرية الفلاحية والحيوانية بدأت تغزوالأسواق الفرنسية وطعمها جيد ثم رخيص.

وما أشبه البارحة باليوم، لقد أصبح الكثير من الجزائريين يأكلون لحم الحصان ولحم الماعز ولحم الدجاج الأصفر لأن لحم الخروف أصبح حلما ويأكلون ما قل من المنتوج الفلاحي بسبب مافيا الاحتكار التي نصبت غرف التبريد في كل ناحية فبدل من اهتمامها بحفظ المنتوج من الضياع، لخفته نهائيا عن المواطن، طبعا في غياب الدولة وسلطاتها المختصة.

ومن ثمة فلا نبكي الفرنسيين الذين ذهبوا ضحايا الطاعون بسبب إكثارهم من أكل الفئران والكلاب والقطط لأن سلطتهم أرادت لهم ذلك.

أما الآن فجاء دورنا نحن الجزائريين، خزينتنا بها أكثر من 30 مليار دولار، وشعبنا يعاني ويل أوكفر الفقر دون رحمة، وعاد الجرب والقمل وأمراض سوء التغذية، والقرآن الكريم يبين :

" إن الذين يكنزون الذهب والفضة فجزاؤهم جهنم ".

صدق الله العظيم.

إذن نحن لا نخاف من الطاعون ما دام البعض منا أي المسؤولين سيدخلون جهنم.

بعد احتلال الجزائر كتبت لجنة وزارية وجهت من باريس خلال جويلية 1833 عن وحشية جيوش الاحتلال الفرنسي ما يلي :

"كنا نعتقد أننا قصدنا الجزائر، بلاد البربر لمحاسن المدنية الفرنسية لكن العكس هوالذي طغى، الممارسة جاءت على ما يخالف العقل ويناقض القانون ويتعدى على الحقوق الإنسانية".

أحرار في فرنسا من بين الوزراء وزعماء أحزاب وجمعيات مدنية ونواب بالجمعية الوطنية "البرلمان" ومن اتحادات عمالية ونقابية كتاب ومثقفين جميعهم نددوا بتجاوزات سلطة فرنسا وجيوشها في الجزائر لما ارتكبوه من جرائم وتعذيب واغتصاب للنساء وخطف ونفي وهدم وحرق للمساكن دون سبب مقبول لقد حول أكثر من 200 مسجد إلى كنائس خلال أربع سنوات من الاحتلال في الجزائر.

وأزيلت مقابر المسلمين دون رغبتهم، بل وكذلك رفضت طلباتهم لدفن موتاهم في وسط المدن والقرى مثل ما هومخول للفرنسيين أواليهود التي تتولى السلطة الفرنسية صيانة مقابرهم. بل وأديست حقوق الجزائريين وهم أحياء، لأن حقوق الإنسان حسب المفهوم الفرنسي والأوروبي لا تراعى إلا للأوروبيين أما المسلمين فمصيرهم قانون الأهالي الذين يحرمهم من أدنى حق للإنسان وهوحقه الطبيعي في الحياة والعيش.

نعم رحل الداي حسين وعائلته وحاشيته وممتلكاته مع الذهب والفضة، تاركا الجزائريين لويلات ومآسي الاحتلال البغيض. تماما مثل ما فعل الشاذلي بن جديد مع السلطة الفعلية في الجزائر عام 1991 م بناء على اتفاق استسلام، ذهب سالما مع عائلته وحاشيته وجواريه وممتلكاته دون محاسبة ولا أدنى مساءلة رغم أنه أوصل الجزائر إلى حالة انسداد

وحالة إعلان الحصار وتوقيف المسار الانتخابي وبالتالي تدمير الدولة ومؤسساتها والبلاد والعباد وعاث الإرهاب في البلاد والعباد مثل ما عاثت فرنسا بجيوشها في الجزائر.

نهبت الممتلكات العمومية والخاصة، ودنست المساجد والعقيدة والحرمات وارتكبت المجازر والجرائم التي لا تتقادم بفعل الزمن بين الشعوب والأمم [1].

لقد أبدا الجزائريون دفاعا شجاعا منقطع النظير في تاريخ البشرية تضحيات جسيمة بمساهمة الرجل والنساء والشيوخ والأطفال ضد همجية ووحشية أعداء الإنسانية، الاستعمار الفرنسي المتخلف.

لقد تجاوز عدد القتلى في مقاومة الخمسين ألف "50" شهيد في السنتين الأوليتين للاحتلال، وأكثر من 500 ألف جريح.

كل ذلك اعتبر لدى الشعب الجزائري قليلا ما دام بطش الاحتلال الفرنسي يهدف إلى الاستيطان والتبشير والتنصير لأمة محمد فيالجزائر.

ورغم الإحباط والإخفاق الذي أصيب به الشعب الجزائري من جراء استسلام حاكمهم التركي الأصل الداي حسين فإن المقاومة الجزائرية أبدت تماسكا أخويا يستند إلى عقيدة الإسلام التي تأمر بالجهاد ضد المستعمر وضد الظالم مهما كانت هويته.

ولولا إقحام الاستعمار الفرنسي قصد احتلال الجنوب الوهراني لجيوش تجاوز تعدادها 150 ألف عسكري من أفضل مرتزقة أوروبا في نهاية 1833 لا ندحر ورجع خائبا.

لقد اختار الاستعمار الفرنسي الصليبي الشعب الجزائري والإقليم الجزائري لسببين اثنين:

---

[1]- راجع : اعترافات الجنرال المجرم الفرنسي ، بول لوساريس ، المصالح الخاصة للفرنسية

الأول : للانتقام من أحفاد المسلمين العرب الذين شغلوا الأندلس لزمن غير قصير وهددوا أوروبا حتى جنوب باريس ثم طردوا منها في عهد بني الأحمر عام 1492 م لدواعي فسادهم وانحرافهم عن عقيدة الإسلام هؤلاء الأحفاد نزحوا إلى الجزائر وإلى بقية أقطار المغرب العربي، والاستعمار الفرنسي احتفظ لنفسه كمسيحي صليبي أن ينتقم منهم.

الثاني : إن الاستعمار الفرنسي المهزوم في أوروبا من قبل جيوش بروسيا والنمسا وبريطانيا والذي تعرض لحصار طويل جعلت شعبه يأكل الفئران والكلاب والقطط والنباتات الطبيعية لغياب الخضر والفواكه ولولا حبوب وشعير الجزائر لتعرض للموت البطيء، غير أنه ظل يعاني من ديونه اتجاهها، ثم أن رغبته كبيرة في ثرواتها وما تكتنزه من معادن نفيسة، الأمر الذي لا يتحقق إلا بالاحتلال العسكري.

إن صدمة الاحتلال في الجزائر لم تفلجئ إلا الأغبياء، بينما العقلاء كانوا يعرفون جيدا نية فرنسا وهدفها ثروة الجزائر لتغطية إخفاقها في أوروبا ولخلق فضاء جديد لها.

ورغم أن الأشقاء في المغرب العربي والوطن العربي والإسلامي التزموا الحياد والسكوت خوفا من بطش فرنسا وحفاظا على عروشهم وأنظمتهم إلا أن الكثير من المتطوعين للجهاد من أجل الإسلام ينتمون إلى أغلب هذه الدول، شاركت الجزائريين في مقاومتهم لأن عقيدة الإسلام لا تسمح بالظلم ولا تسمح بالتعدي على المسلم مهما كان وطنه.

لكن ظروف التمزق والانحطاط التي تعاني منها أغلب الدول العربية والإسلامية ومخلفات هيمنة الدولة العثمانية المريضة على الصعيد العربي والإسلامي لم تسمح بأكثر من الإدانة والاستنكار للاحتلال الفرنسي للجزائر.

غير أن أغلب هذه الدول حرضت مواطنيها على الانضمام إلى الجهاد في سبيل الله وفي سبيل الإسلام، خاصة وأن الجزائر جزء من الوطن العربي والعالم الإسلامي وشعبها يكافح من أجل سيادته ومن أجل عقيدة الإسلام ونصرته.

بينما ساندت دول أوروبا فرنسا، خاصة بروسيا وبريطانيا والنمسا وإيطاليا وإسبانيا لصرف فرنسا خارج القارة الأوروبية، ساندتها روسيا لإتمام سيطرتها هي الأخرى على الدول الإسلامية "شيشينيا، أرزيجان، تركستان ـ أرمينيا"

إسبانيا ساندت فرنسا وساعدتها بالسفن المؤجرة وبجزر البليار وجبل طارق لإصلاح ما تعطل من بواخرها وسفنها وتموينها لوجيستيا.

إن نجاح الحملة الفرنسية العسكرية في مهمة احتلالها للجزائر يعد عملا مسيحيا موجها ضد الإسلام والمسلمين لأنه تم بتزكية الدول الأوروبية قصد تخليصها من قرصنة البحرية التركية في الجزائر[1].

ومما لا شك فيه أن العيب في حكامنا سواء كانوا أتراك لأننا سكتنا عن هويتم وإخلاصهم للوطن ولله أوكانوا من أبناء جلدتنا تربعوا على السلطة، وتحكموا في رقاب العباد والبلاد عن جهل وحب في الثروة والجاه كما هوحاصل في عصرنا مع إقصاء الكفاءات من القيادة والتوجيه.

إن مسؤولية الاحتلال عام 1830 يتحمل وزرها الحكام القائمين على شؤون الرعية الجزائرية الذين للأسف الشديد لم يكونوا وطنيين ولا مخلصين للوطن ولله بسبب جاهليتهم وفساد أخلاقهم وانحرافهم عن قواعد وتعاليم الإسلام، لكن مسؤولية الشعب الجزائري غير مستبعدة عن المآسي والآلام والمجازر والجرائم التي تعرضت لها البلاد نتيجة الاحتلال الغادر الفرنسي الصليبي الحقير.

---

[1]- راجع : تصريح لقيادة الجيش الفرنسي شارل روبير 1994 ، ص : 53

إن الشعب الجزائري يجب أن يحتفظ بذاكرته حفاظا على العهد كامتلاك السلاح النووي ووسائل نقله إلى أي مكان في العالم وتنمية المجتمع اقتصاديا وعلميا وحضاريا للقضاء على الجهل والجاهلين الذين هم خطر على الأمة، ذلك السبيل الوحيد لحماية السيادة الوطنية وردع كل معتد عليها سواء كان داخلي أوخارجي وحتى لا يتكرر سيناريو 1830 م.

علما أن أعداء الجزائر كثيرون وشماتوها متعددون، لا يريدون الخير لنا لأن قوتنا تزعجهم وضعفنا يريحهم ويسمح بتعديهم على الضعفاء والمعذبين في الأرض.

صحيح أن الاستعمار الفرنسي الذي تدعم تكنولوجيا بفضل الثورة الصناعية احتاج إلى المواد الخام والأسواق لتصريف سلعه واليد العاملة الرخيصة والثروات الطبيعية، وكل ذلك متوفر في الجزائر المحبوبة من الخالق لخلقه.

لوتوفرت دولة علمية قوية جزائرية وليست تركية لاهتمت بالتعليم وبالعلم، وصانت سيادتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وحضرت المجتمع الجزائري لما بعد الأتراك للدفاع عن كرامته وعزته وشرفه، ولجعلت من الجزائر حصنا منيعا بالعلم والعلماء وليس بالجهل والجهلاء أوبالشعوذة والدجالين كما هوالحال في زماننا عندما رجعت السلطة إلى ورقة العروشية وأحياء الزوايا والطرقيه بدل الاتجاه إلى الجامعة وكفاءاتها، وكأننا في رجعة إلى عهد المماليك والانحطاط.

إن الشعب الجزائري قبل 1830 م وبعد الاحتلال الفرنسي سيظل غيورا على سيادته وعلى وحدته في العقيدة وفي الوطن وفي الهوية وسيظل يصارع التخلف بجميع أشكاله ويقاوم الاعتداءات الخارجية، كما قاوم الاستعمار الفرنسي وأعوانه الخونة من أبناء جلدته، ولا يخيفه البطش أوالإرهاب مهما كان مصدره.

إن ثوراته التحريرية وقوافل شهدائه وبطولاته الخالدة لم تبخل بالتضحيات منذ أن وطئت أقدام جيوش الاحتلال الفرنسية الصليبية أرضه الطاهرة في شهر جوان 1830 م فكانت عدة ثورات شعبية مسلحة على الوجه الآتي :

❶. المقاومة المنظمة بقيادة الأمير عبد القادر ما بين "1830-1847م":

استسلام الداي حسين وإدارته التركية ودخول الاستعمار الفرنسي عاصمة البلاد الجزائر دون شقاء لاعتبارات عدة، خيل للدولة الفرنسية أن المدن الجزائرية الأخرى ستسقط في قبضة الاحتلال كأوراق الشجر في فصل الخريف وبكيفية توفير الرياح الملائمة.

وأمام تعاظم مقاومة الجزائريين لجيوش الاحتلال لجأ الاستعمار الفرنسي كعادته إلى المكر والخديعة فبعد أن كان هدفه في الجزائر هو تأديب الإدارة التركية وليس احتلال البلاد لولا بطشه وانتقامه الصليبي من أحرار البلاد الذي كشف طبيعته الإجرامية وغريزته نحوالاستيطان والاستغلال.

وأمام الخطر الاستعماري ظهرت التعبئة والتنظيم، وظهر الأمير عبد القادر بن محي الدين المولود بالقيطنة قرب معسكر سنة 1806 م والذي تعلم في الجزائر وفي وهران على وجه التحديد ثم في المغرب العربي وفي المشرق.

وبما أنه كان الشخص الشجاع، التقي، العالم كان جدير بالثقة والتقدير، اتجهت إليه كلمة العلماء والأعيان لتحمّله مسؤولية الجهاد ضد الكفار في الجزائر المسلمة.

ورغم أن الإمارة ومهمة الجهاد عرضت على والده محي الدين، فإن سنه المتأخر وعدم قدرته الجسدية أبتا ألا أن تنظم إلى العلماء والعيان وتبايع القائد الشاب لأهليته وكفاءته وشجاعته وأخلاقه، عبد القادر ابن

محي الدين، فكانت مبايعته التي تحدث عنها محمود بن حـوا الجـاهري " : لمـا انقرضـت الحكومـة الجزائريـة مـن سـائر المغـرب الأوسـط اسـتولى العدوعلى مدينة الجزائـر ومدينـة وهـران، وطمحـت نفـسه العاتيـة إلى الاستيلاء على السهول والجبل والفدافد والتلال وصار الناس في هـرج ومرج وحيص بيص، قـام مـن وفقهـم الله للدايـة مـن رؤسـاء القبائـل وكبرائها وصناديدها وزعمائها فتفاوضوا في نصب إمـام يبايعونـه علـى الكتاب والسنة، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطـاهر، والكمل الباهر أين مولانا محي الدين فبـايعوه علـى كتـاب الله العظـيم وسنة نبيه الكريم[1].

إذن مبايعة الأمير عبد القادر بن محي الدين علـى الإمـارة والجهـاد تمت من قبل العلماء والأعيان والشعب في الغـرب الجزائـري في يـوم : 27 /11/ 1832 ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

مقاومة الأمير عبد القادر التي اسـتمرت دون هـوادة رغـم جـسام وهول البطش الاستعماري حتى عام 1847 م. أظهـر فيهـا الأمـير عبـد القادر أنه رجل سياسة وحكمة ورجل فنون حربيـة ورجـل ثقافـة وأدب ورجل دين وتقوى، مواقفه خالدة ومؤلفاته عديدة.

وحدة الجزائريين وإخلاصهم في الجهـاد والـولاء والطاعـة للقائـد كان زاد الأمير عبد القادر الذي لا ينضب بل كانت أهم شروط الإمـارة في الجهاد المقدس ضد الاستعمار الصليبي الـذي اعتـدى علـى الـشعب الجزائري بغـرض الاسـتيطان والاكتنـاز والثـروة ولـيس حـسب مكـره وتغليطه مجرد تأديب الإدارة التركية للداي حسين التي غادرت الجزائر في أمان محملة بالمتلكات الثمينة والجواهر.

1- راجع : محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية ، دار النـشر بقـسنطينة 1985 ، ص : 34 .

نعم لقد نجح الأمير عبد القادر في جمع شمل القبائل وشيوخها.

في الغرب الجزائري ومد يده إلى أغلب الزعماء والشيوخ والعلماء والأعيان في منطقة القبائل والشرق الجزائري وجنوبه، لكن الخذلان والخوف من قبل هؤلاء كان نصيبه.

بل مد أيضا يده طالبا المساعدة والأخوة الإسلامية لدى الأشقاء العرب خاصة المغرب وتونس والدولة العثمانية إلا أن خوفهم على عروشهم وأنظمتهم من قوة فرنسا وبطشها جعلهم يتراجعون ويلتزمون الحياد وأي حياد هذا والذئب الكافر يعبث في أرض الإسلام فسادا.

على الرغم من الاستجابة الكبيرة التي تلقتها ثورة الأمير عبد القادر لدى شعوبهم، الذين توافدوا طالبين الجهاد في سبيل الله ونصرة الأمير في أهدافه النبيلة من أجل حرية واستقلال الشعب المسلم الجزائري وحماية عقيدة الإسلام.

مراسلة الأمير إلى القبائل والأعيان والزعماء والشيوخ والأشقاء خارج الجزائر وضحت أن مهمة الإمارة التي تولاها عظيمة وشاقة وإنما قبلها على مضض شديد، لكن هدفه توحيد المسلمين ومنع فرقة بين الأخوة في الوطن المعتدى عليه ومحاربة الخونة وطرد العدومن الديار طبقا لأحكام كتاب الله وسنة نبيه.

أعد الأمير عبد القادر في إطار الجهاد المعلن ضد جيوش الاحتلال جيش شبه نظامي من متطوعي القبائل ومن إتباعه تجاوز عدد أفراده 50000 رجل من المشاة، وأكثر من 2000 من الفرسان وبعض قطع المدفعية لكن الخبرة الحربية كانت تنقص أغلب وحداته لعدم الاستقرار وغياب مؤسسات التدريب العسكرية للظروف الحالية بالبلاد[1].

---

[1]- راجع : شال هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة د أبوالقاسم سعد الله ، ص : 60

حتى بدأ نفوذه يخيف الخونة ويقلق الاستعمار الفرنسي الذي هزمه في عدة معارك في حنق النطاح الأولى والثانية وبرج العين خلال عام 1832 في الغرب الجزائري وأمام ضرباته الموجعة والتي كان صداها كبيرا على الرأي العام الفرنسي والدولي وزاد في معنويات المجاهدين الجزائريين الذين أصبح عددهم في تزايد والتحق بهم إخوانهم المسلمين المجاهدين من المغرب وتونس ومن الشرق الأوسط بل ومن آسيا من مسلمي القوقاز ومن أفغانستان ومن إفريقيا.

ولولا النقص الكبير في الأسلحة والذخيرة والعتاد الحربي لكانت نهاية الاستعمار الغاشم في الغرب الجزائري كما أن لجوء قادة العدوإلى المكر والحيلة لربح الوقت وإعادة تنظيم صفوفهم بإبرامهم اتفاقية ديميشل مع الأمير عبد القادر بتاريخ: 24 / 02 / 1834، الاتفاقية التي اعترف فيها الفرنسيون بسيادة دولة الأمير عبد القادر في إقليمها.

وسمحت للأمير بتنظيم دولته وجيشه وتعيين عدة ولاة له على الولايات الداخلية، أغلبها في الغرب الجزائري لكن سلطته وصلت إلى أقصى الجنوب، الأغواط وأقصى الشرق، سطيف.

لكن بعد سنة واحدة من الهدنة وبعد أن وصلت جيوش عسكرية إلى الفرنسيين من وراء البحر بدأ جنرالات الاستعمار الفرنسي يحرضون شيوخ القبائل بالمال لإثارتها وردتها لتتمرد على الأمير ودولته، الأمر الذي أرغم الأمير بالعودة إلى الثورة والحرب على الفرنسيين فانتصر في عدة معارك منها وادي المقطع قرب سيق في 17 جوان 1835 حيث هزم الجنرال تريزل "Trezil" على رأس جيش احتلال، وأصاب من قواته ما يفوق 700 عسكري معتدي. مما حمل دولة الاحتلال إلى عزله وتعيين الجنرالين كلوزيل ثم بيجوودفعت بجيوش أخرى أكثر ممارسة

البطش بالجزائريين تقتيلا وتعذيبا وصارت الحرب بين الطرفين قاسية ومميتة لكنها غير متوازنة لقلة السلاح والذخيرة والدعم اللوجيستيكي في جانب الأمير عبد القادر وجيشه، وقوة الخصم للأعداد الكبيرة من الجيوش ولتنوعها وحسن تسليحها وتدعيمها لوجيستيكيا.

وزاد في المأساة ألم تمرد الخونة في عدة قبائل كانت مساندة للأمير عبد القادر وإعلانهم الحياد الأمر الذي ساعد كثيرا جيوش الاحتلال وسهل من مهمة تقدمها في إقليم دولة الأمير عبد القادر التي تراجع لحوالجنوب ثم كانت واقعة التافنة التي انهزم فيها الجنرال بيجو وجيوشه[1].

وتبعتها معاهدة التافنة التي أعادت الاعتبار لدولة الأمير وجيشه، ولكن إلى حين.

ورغم استطاعته الحفاظ على دولته وجيشه اللذان أصبحا متحركان فإن ذلك أدى إلى تشتيت قوة المجاهدين خاصة بعد أن تسللت بينهم عناصر خائنة تعمل لصالح الاستعمار، وبدأت معنويات جند الأمير عبد القادر تنخفض والعدد يتضائل بتناقص المؤونة والدعم.

وظل الحال كذلك وظهرت اشتباكات متفرقة بين الطرفين باستخدام الأمير وجيشه لحرب العصابات ومهاجمة العدومن الخلف أوعن طريق الكمائن، الأمر الذي أقلق معنويات العدوحتى عام 1839، حيث دفعت فرنسا بقوات عسكرية كبيرة قصد القضاء على جيش الأمير أوطرده إلى المغرب وإتمام غزوالجنوب الجزائري بعد أن دخلت جيوشها قسنطينة عام 1937 م وسيطرت على أغلب مناطق الشرق الجزائري، تفرغت لجيش الأمير وبدأت حرب الإبادة ضد المسلمين

[1]- راجع : اسماعيل العربي ، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر. ص : 120

الجزائريين، وممارسة الأرض المحروقة، أرزاق مستولى عليها، مساكن مدمرة، مواشي وحيوانات مصادرة، أوبئة منتشرة ... الخ

كل ذلك في الجزائر وضمير المجتمع الدولي غائب الاستعمار الفرنسي ينتقم من الجزائريين لأنهم أحفاد المسلمين المطرودين من الأندلس.

قاوم الأمير عبد القادر والمجاهدون الذين ناصروه طيلة سنوات وتكبدوا خسائر في الأرواح والعتاد وألحقوا بالعدوعددا كبيرا من القتلى والجرحى ولكن ميزان التفوق العسكري كان إلى جانب الاستعمار الفرنسي بسبب الخيانات بين الإخوة وخذلان الأشقاء وعدم تعاون المجاهدين ضد الاستعمار فيما بينهم مما شتت من جهودهم وسمح للعدوبالقضاء عليهم واحدا بعد واحد، دون عناء.

الأمر الذي يتطلب منا دراسته بالتفصيل بعد الإشارة الموجزة إلى مقاومة الحاج أحمد باي ضد الاستعمار الفرنسي في الشرق الجزائري الذي سجل بطولات جهادية غير عادية لكن يحسب عليه عدم نكرانه للذات ورفضه التعاون مع الأمير عبد القادر أوبالأحرى رفض المبايعة لدواعي ضلت مجهولة وغمرها الضباب الجزائري الذي لم ينقشع بعد.

❷. مقاومة الحاج أحمد باي :

الحاج أحمد باي، أحد بايات الداي حسين حاكم الإدارة التركية في الجزائر والمستسلم للإستعمار الفرنسي بعد أول معركة يخوضها ضدهم في نواحي سطاوالي خلال شهر جوان 1830 م.

أحمد باي، كان حاضرا بجنده للدفاع عن العاصمة، لكن الداي حسين لم يسمع لنصائحه العسكرية وفضل عليه صهره الآغا إبراهيم العديم التجربة الذي أغرق العباد والبلاد حتى النخاع في الهزائم الحربية لجهله وميوعته في مجالات أخرى بعيدا عن العسكر وعن الحرب وشؤونها.

أحمد باي من أم جزائرية وأب تركي ينتسب إلى ما يعرف في الجزائر بالإنكشارية، كان بايا على قسنطينة في خدمة الأتراك بالجزائر.

جمع أموالا وممتلكات كبيرة بحكم منصبه بايا في قسنطينة ولمدة طويلة وحفاظا على ثرواته أثناء الاحتلال الفرنسي رفض التعاون مع الفرنسيين لمعرفة الجيدة بمكرهم ومعاملتهم لعملائهم، ورفض التعاون ومبايعة العربي الجزائري الأمير عبد القادر لأنه ليس تركيا بل وليس من أصل تركي وفضل إقامة إدارة تركية محتلة أخرى في قسنطينة لأنه لم يكن يرى العرب أهلا للسلطة.

وقد أخطأ أحمد باي في موقفه ونظرته العنصرية ولتمييزه، خاصة وأنه يعترف أمام الجميع أنه ليس شيخا ولا زعيما لقبيلة جزائرية وليس وراءه أبناءه الأتراك وكان الفضل أن يذهب مع الداي حسين بدل إفساد مقاومة الجزائريين في وطنهم الذي لا وطن لهم غيره.

أخطأ أحمد باي في عدم مساعدته لدولة الأمير عبد القادر الوطنية الجزائرية والمسلمة والعربية.

حبا في احتفاظه بأرزاقه وسلطته في مدينة قسنطينة المنهوكة اقتصاديا واجتماعيا، والتي تسيطر فيها الطرقية والزوايا وبالتالي الشعوذة.

البعيد عن العلم وعن العلماء وعن التقنية فضل المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي الأمر الذي يفسر ويبرر احتفاظ أحمد باي بالسلطة بعد سقوط الداي حسين مثل الإدارة التركية في الجزائر دون أن ينازعه مقاوم وطني آخر في قسنطينة أومن الشرق الجزائري.

وبعد سقوط إدارة الداي حسين طلب أحمد باي من السلطان العثماني وليس من الشعب الجزائري، الاعتراف به كحاكم للجزائر ومده بالسلاح والذخيرة لمقاومة الاستعمار الفرنسي.

توسل أمام السلطان العثماني بعدم تفضيل الأمير عبد القادر في قيادة المقاومة الجزائرية عليه.

الأمر الذي أشار إليه السلطان العثماني في رده على طلب الأمير عبد القادر بشأن مساعدته، إذ راسله مشيرا على ضرورة توحيد المقاومة والاتفاق على قيادتها ملحا في مخطوطة إلى وجود عدة قيادات في المقاومة الجزائرية، وهدفه التملص من المساعدة خوفا من عقاب أوروبا المسيحية له.

لقد قاوم الفرنسيين ضمن زمرة من العرب بقسنطينة عام 1836 م بعد اليأس والإحباط الذي ألم بهم وبشيوخهم في الانضمام إلى دولة الأمير عبد القادر التي امتدت حدودها إلى سطيف، ولولا تدخل أحمد باي الذي منعهم دون وجه حق من الوقوف إلى جانب الأمير عبد القادر وشيوخ مناطق القبائل لكان التعاون وكانت الأخوة الجزائرية وكان النصر ضد الاستعمار.

بل وكذلك رفض أحمد باي التركي التعاون مع الثوار الجزائريين في كل من البليدة والمدية تحت قيادة ابن زعمون وابن السعدي لأنه رأى فيهما منافسين لزعامته التي لم يكن يرى لها نهاية إلا في حلمه أن يصبح ممثل السلطان العثماني في الجزائر.

إن أحمد باي كان يحلم وهو يعرف أنه لم يعد موظف في الإدارة التركية وليس وراءه قبيلة أو وطن وشعبية ضعيفة في قسنطينة ولم يبق له إلا حرب العصابات دون المواجهة مع جيش العدو المنظم والمدعم بالتقنية وقوة النيران "المدفعية" وسرعة فرسانه.

وبعد أن فشل الهجوم الفرنسي الأول على قسنطينة خلال عام 1836 م الذي قاده الجنرال كلوزيل وقرابة العشرة آلاف عسكري فرنسي بفضل مقاومة الشعب الجزائري القسنطيني العظيم واستبساله في الاستشهاد دفاعا عن وجوده وحرمانه مما دحر العدو على أعقابه.

أعاد الفرنسيون الهجوم الثاني والأكثر قوة تنظيما وتكتيكيا عام 1837 م وبقوات عسكرية كبيرة تجاوز عددها الخمسة عشر ألف رجل من مرتزقة فرنسا وأوروبا، بالإضافة إلى المعلومات التي حصلوا عليها أثناء الهجوم الأول الفاشل والمعلومات التي وصلتهم من الخونة استفادوا منها في فتح شفرة في المدينة للتوغل والسيطرة عليها، الأمر الذي تم الوصول إليه.

ورغم بسالة القبائل العربية من الحراكتة والتلاغمة والحنانشة وفرجيوة وزواغة وريغة ومجانة والحنانشة وقبائل الأوراس وقبائل جيجل التي وصلت على عجل وقبائل أخرى من البويرة والمسيلة وسطيف وغيرها القبائل التي ضربت أروع الأمثلة في التضحية والاستشهاد من أجل الوطن إلى درجة قتل قائد الحملة الجنرال دائر ديمون وقتل الكثير من الضباط والعسكر، تجاوز عددهم الألف رجل فرنسي.

ولولا سوء تنظيم المقاومة وتشتت قيادتها وتجهيزات الجيش الفرنسي وتفوقه في العدد والعدة لحصلت المعجزة وانتصر المقاومون في قسنطينة.

لقد كانت ملحمة بطولية رائعة لأن مجاهدي ومواطني قسنطينة كانوا يدافعون على حرماتهم من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع لكن عدم التنظيم وعدم التنسيق وعدم توافر السلاح أخل بالتوازن فكان الاحتلال للمدينة وتلك مصيبة الجزائريين في ربوع الجزائر وفي كل بقية من وطنهم العزيز يعتمدون في الدفاع عن مصالحهم على غيرهم من الأجانب الذين لا يخدمون الجزائر إلا طمعا في أرزاقها وفي ثرواتها وفي جمالها الذي صانه الخالق بكل الخيرات.

ورغم مرض الحاج أحمد باي في مقاومته على رأس المجاهدين الجزائريين في الشرق الجزائري، قرر الانسحاب نحوالزيبان ثم إلى الأوراس لتوقيف هجومات فرحات الذي كان يزحف نحوالشمال ولا

يعرف بمقاومة أحمد باي، بل يعتبره دخيلا تركيا في الجزائر انتهت مهمته برحيل الداي حسين من الجزائر.

وفي بسكرة ركبه اليأس والإحباط وبقي وحيدا فاستسلم بتاريخ : 5 جوان 1848 م فهجر إلى فرنسا وبها توفي عام 1850 وفي مقاومته لم يكن له علم وطني جزائري بل ظل يحتفظ بالعلم العثماني ولم يقبل التعاون مع الثوار الجزائريين جميعهم لاعتقاده أنهم ليسوا أهلا للسلطة وأن السلطة لا تخول إلا للأتراك.

الموضوع الذي نوضحه في دراستنا هذه في فصل على حده.

صحيح بعد استسلام كل من الأمير عبد القادر عام 1847 والحاج أحمد باي عام 1848 لجيوش الاحتلال الفرنسية القوية في عددها وعدتها وتنظيمها وخلوها من الخونة.

اتضح أن أسباب فشل ثورات الأمير عبد القادر والحاج أحمد الباي تعود إلى عدم توفر السلاح والذخيرة والمؤن الضرورية لمواجهة جيوش كبيرة تمتلك قدرة تعبوية وتجربة لا يستهان بهما، تنعدمان في وحدات المقاومين.

علاوة على الدور السلبي لأعوان الاستعمار الخونة الذين تمردوا مرارا على هذه الثورات وكانوا عيونا مخبرة لصالح العدو، ضد أبناء بلدهم وضد أهلهم، وما خلا وقت ولا ثورة من الخونة؟

دورهم السلبي أثر كثيرا وأحبط في معنويات المجاهدين الذين أعطوا الكثير لكن إرادة الاستعمار وقوته ومكره كانت الأقوى في النهاية.

إن شعلة الروح الوطنية بين أفراد الشعب الجزائري ظلت ملتهبة في النفوس، لأن الأمة الجزائرية رفضت الاستعمار خاصة بعد أن عرفت بطشه وظلمه وذاقت مرارة احتلاله.

عنصرية وهمجية وصليبية وتخلف أعمى لا يمت إطلاقا إلى تعاليم المسيحية السامية في الرحمة والتسامح ومساعدة الضعيف.

لقد خدع الاستعمار الفرنسي دينه وكنيسته بل وأفراد شعبه عندما أخبرهم أن حملته العسكرية الموجهة ضد الإدارة التركية في الجزائر إنما هي بهدف التأديب وليس الاحتلال لأرض المسلمين قصد الانتقام منهم لأنهم أحفاد العرب الذين فتحوا اسبانيا وتجاوزوها إلى جنوب باريس.

وكان جزاءهم الطرد منها عام 1492، لإهمالهم في حق الله وفي حق الوطن.

وعندما بدأ الفرنسيون يتساءلون عن أهداف الحملة العسكرية إلى الجزائر، قيل لهم أنها الثورة وإكتناز حيوانات كثيرة ومواشي كثيرة وحبوب وخضر وفواكه ستوجه إليكم، لتتوقفوا عن أكل الفئران والكلاب والقطط فقد أخذ منكم الطاعون وجراثيم أخرى من جراء ذلك. كل نقص في الغذاء وكل طاعون سيختفي بينكم اقتنع البعض ولم يقتنع آخرون.

فاستمرت المعارضة للحملة وكان لبعض الفرنسيين مواقف ايجابية لكن الأغلبية فضلت المصلحة الوطنية والتزمت السكوت.

أما في الجزائر فإن المقاومة والانتفاضات الوطنية ظلت متواصلة وشملت كل مناطق الجزائر في غربها وفي شرقها وفي شمالها وجنوبها.

لم تهدأ منذ 1848 م ولم تتوقف، لكنها صارت محلية وغير منظمة، لغياب التنسيق بين فصائلها والانتفاضة في قاموس المصطلحات الثورية ما هي إلا مقاومة وتعبير صريح للأمة بالرفض لسياسة أوسلوك معين لسلطة سواء كانت أجنبية أووطنية[1].

---

[1]- راجع : الثورة بين التنظير والواقع، أ. العربي منور، محاضرة ألقيت بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر عام 1982 ص: 16.

غير أن كل أشكال المقاومات والانتفاضات التي عمت الجزائر وبالرغم من كثرتها لم يكتب لها النجاح للأسباب الآتية:

1- عدم التنظيم الجيد للمقاومة من حيث تحديد المبادئ والأهداف وحصر الإمكانات التي تستند إليها المقاومة عددا وعدة.

2- ضيق مجال المقاومة أي فضاؤها، أي عدم اتساع حجمها، مما يسهل مهمة جيوش الاحتلال في تطويقها والقضاء عليها.

3- قلة التنسيق بين فصائل المقاومة لتشكيلها من عدد كبير من القبائل التي كثيرا ما كانت تستهدف بمكر الاستعمار الفرنسي قصد إحداث الفرقة بينها.

4- تعبئة المقاومة لم تكن وطنية ولا عقائدية بل كانت ارتجالية محلية، كالرد على إهانة أوتقتيل أومصادرة أملاك أواغتصاب، عمل منفرد سرعان ما يعزل من طرف قوات الاحتلال ويقضى عليه.

5- قنوات تدعيم المقاومة منعدمة أوضعيفة، فكل ما كانت متعددة ومتنوعة وسرية، كانت مفيدة ومؤثرة في إرباك العدو.

6- المقاومة إذا لم تكن شعبية ومتجدرة ويقودها المثقفون وينفذونها المؤمنون بها كان مآلها الفشل العامل الذي كان ينقص أغلب المقاومات والانتفاضات الجزائرية.

إن استعراض فضاء المقاومات في الجزائر حسب مكان اندلاعها وزمانها يوضح الروح الوطنية الثائرة للجزائريين ضد الدخيل الفرنسي الصليبي، الغادر المرفوض في بلاد الإسلام، لأنه جسم غريب ولا يعرف السلم ولا الرحمة، مثله مثل الكيان الإسرائيلي الغريب في الشرق العربي الذي لا بد وأن ينقرض مع الزمان أن المقاومات في الجزائر، خلال القرن 19 الميلادي، كانت شعبية وعامة، منها:

1- الظهرة، الواسنيس، مستغانم، الحضنة، أولاد رياح تحت قيادة بومعزة التي أقلقه جيوش الاحتلال عام 1845 م.

2- مسيردة، الغزوات، مغنية، بني بوسعيد، سبدو، تلمسان، رأس الماء، لم يهدأ نارها إلا بقتل الحاكم الفرنسي في تلمسان وتسليم عصابة أشرار كانت تساعد في القتل والسرقة، عام 1846 م.

3- الزعاطشة، الزيبان، الأوراس، بوسعادة، بسكرة، المسيلة بقيادة الشيخ بوزيان الذي لقن دروسا للاستعمار قاسية في الشجاعة وطلب الشهادة من أجل تحرير الوطن عام 1848 م.

4- الأغواط، تيارت، معسكر، تقرت، فغرداية بقيادة محمد بن عبد الله الذي ثار على ظلم جيوش وسلطة الاحتلال الفرنسي عام 1852 م.

5- ثورة القبائل، بجاية، تيزيوزو، البويرة، بومرداس، ثنية، بني ايراثين، بني عيسى، ايشريدن آيت تاوريرت.

هذه لم تكن مجرد انتفاضة بل كادت أن تطرد قوات الاحتلال الفرنسية من مناطق القبائل لظلمها ولتدنيسها لحرمات السكان وإعراضهم ولاعتدائها على أرزاقهم.

كانت بقيادة الشريف بوبغلة والبطلة لا لا فاطمة نسومر ما بين 1851 - 1857 م.

اتسع حجم هذه الثورة وزاد تنظيمها ولولا خيانة بعض أعوان الاستعمار لها لرمت بقوات الاحتلال في البحر.

6- الأوراس، الوادي الكبير، خنشلة، عين البيضاء، بسكرة، كانت بقيادة محمد بن عبد الله الذي ثار على الفرنسيين بعد أن تجرؤا على تحويل مسجد بالوادي الكبير إلى كنيسة، قرروا اللجوء إليها للقيام بشعائرهم المسيحية عام 1858 م.

7- وهران، مستغانم، مازونة، المحمدية، سيق، سيدي بلعباس، تليلات، عين تموشنت، جميعها هبت في ثورة شعبية في ذكرى خالدة للمجاهد الأمير عبد القادر، من مسجد المدينة الجديدة بعد صلاة الجمعة وعمت أغلب نواحي الغرب الجزائري حتى مدينة سعيدة اشتباكات

مباشرة مع الأوروبيين وأعوانهم واغتيالات بين صفوفهم كتعبير عن رفض التعاون معهم، عام 1860 م.

8- جبل عمور، البيض، تيارت، فرندة، الشعانية، غليزان، مازونة، واد رهيو، تسمسيلت لمسيلة ثار شيوخ أولاد سيدي الشيخ عام 1864 لظلم الاستعمار الفادح، الذي فرض ضرائب جائرة على الأهالي الجزائريين وصادر أراضيهم، دون الأوروبيين واليهود.

9- برج بوعريريج، العلمة، سطيف، البويرة، الأخضرية، ذراع الميزان، بجاية، تيزي وزو، بومرداس بسبب مصادرة الاستعمار لأراضي الجزائريين ومنحها للمعمري والمرتزقة من الفرنسيين والأوروبيين واليهود، كانت شبه ثورة قاما بها القائدان المقراني وأبناء الحداد عام 1871 م.

10- أدرار، عين صالح، تمنراست، جنانة، غرداية، انتفاضة ضد الوجود الأوروبي الذي بدأ يسيطر على العقار والتجارة مع النيجر وتشاد وأسيا، قام بها الجزائريون الصحراويون في الجنوب واستهدفوا الأوروبيين الكفار، أعداء الإسلام، عام 1875م.

11- الأوراس، أولاد داود بني سليمان، خنشلة، عين البيضاء، بسكرة، باتنة، تزعم الانتفاضة أمزيان بن عبد الرحمان عام 1876، لتعدي جيوش الاحتلال على أعراض وشرف السكان المحليين.

12- عين الصفراء، البيض، بشار، تيارت، لمسيلة، سعيدة، سيدي بلعباس، ورقلة، غرداية، بقيادة الشيخ بوعمامة عام 1881 م، الذي ضاق ذرعا من ظلم جيوش الاحتلال وسلطته المتغطرسة التي أفقرته واحتقرت أعضاء عشيرته وأهانت كل الجزائريين في حرماتهم وصادرت أراضيهم وأرزاقهم، قصد تهجيرهم وإسكان الأوروبيين مكانهم.

13- انتفاضة مسيردة وبني وسين، مغنية، تلمسان، لعشاش، جبالة، أدرومة سواحلية، الغزوات، عام 1890 م استجابة لدعوات

الشيخ بوعمامة والشيخ الخضير محمد بالجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الصليبي الغادر الذي لم يحترم المساجد ولا حرمات الجزائريين.

14 - مليانة، شرشال، تيبازة، البليدة، الحجوط، العفرون، تنس، ثارت ضد جيوش الاحتلال لإهانة المسلمين الجزائريين، في عقيدتهم وتقاليدهم، بل وحتى في أعراضهم، تزعمهم يعقوب بن الحاج عام 1901 م.

15 - انتفاضة باتنة، خنشلة، بسكرة، بريكة، مروانة، سطيف، القطارة، ميزاب، بقيادة الشيخ عبد السلام عام 1902 م لتعدي الاستعمار الفرنسي على المسلمين عند مصادرته لأراضيهم وأرزاقهم دون وجه حق.

16 - انتفاضة الغرب الجزائري والشرق الجزائري في وقت واحد حيث ظهرت فتاوي تدعوإلى الجهاد ضد المحتل الفرنسي الذي لجأ إلى تجنيد الجزائريين للدفاع عن فرنسا وعلمها وسيادتها بمناسبة الحرب العالمية الأولى في عام 1914 م وامتدت حتى عام 1916 م حين انظم إليها الشيخ بن علي بن النوي عام 1916 م.

فكانت ثورة عارمة ألحقت أضرار بالغة بجيوش الاحتلال وسلطته، فقد فيها قرابة الخمسين من عساكره وعشرون من أعوانه الخونة الذين باعوا نسمهم للإحتلال البغيض وخانوا عقيدتهم وأهلهم إلى الأبد.

إن مختلف الثورات والمقاومات والانتفاضات التي اندلعت في ربوع الجزائر عبرت بوضوح عن رفض الشعب الجزائري المسلم للاستعمار الفرنسي واحتلاله الصليبي البغيض.

إرادة صريحة عبرت عن الفهم الصحيح والرأي السديد والعزم الذي لا رجعة بعده في مقاومة الاستعمار الفرنسي، الكيان الغريب في أرض الإسلام، جلبه من أوروبا بهدف الاعتداء والانتقام والنهب والتنصير، والإرهاب والاستغلال، أهدافه ممقوتة ومكروهة ومرفوضة

تتنافى مع الدين الإسلامي الحنيف والسنة النبوية الشريفة وتعاليم الراشدين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

علاوة على تعارضها مع مختلف مواثيق المجتمع الدولي، بل هذه الأعمال البشعة للاستعمار تعتبر جرائم ضد الإنسانية لا تتقادم بفعل الزمن، ويجب أن يتابع على ارتكابها.

على سبيل المثل مقاومة الزعاطشة جنوب غرب بسكرة ما بين 1848 م حتى 1849 م بزعامة الشيخ بوزيان ومحمد الصغير، اندلعت دفاعا عن الشعب الجزائري المسلم الذي تعرض للإهانة في مقدساته وفي حرماته وفي أرزاقه، لقن دروسا قاسية لجيوش الاحتلال في الشجاعة والتضحية وطلب الشهادة وأقلق مضاجع حكام الاستعمار الفرنسي.

ولولا تدخل جيوش كبيرة الاحتلال وظهور دور سلبي للخونة الجزائريين وتعرض المجاهدين لحرب إبادة منظمة قصد تصفيتهم حتى أحرق بعضهم أحياء وبلغ ما قتل منهم قرابة 10000 شهيد مقابل أكثر من 50000 آلاف عسكري وخائن في الطرف الفرنسي لكانت نهاية المستعمر في الشرق الجزائري وفي جنوبه.

ثم كانت مقاومة القبائل ضد جيوش الاحتلال الفرنسي، هذا الأخير الذي حاول إتمام توسعه وإحكام قبضته على جزء غال من الجزائر، هي منطقة القبائل "الأمازيغ" وبالأحرى الأحرار الذين لا ينامون على الظلم ولا يسكنون على المنكر والحق بين، لا يمكن أن يتجاهله أحد ولوسكن دماغه الشيطان.

هذه شهادة الجنرال فالي قائد الحملة العسكرية الظالمة على قسنطينة عام 1837 م.

إن جنرالات الاستعمار الفرنسي المجرمين هم كذلك يفرقون بين الخير والشر. ولكن مصالح دولتهم الجائرة أعمت أبصارهم وقلوبهم وصاروا إرهابيين لا يفرقون بين الأطفال والنساء والشيوخ في القتل.

ما قاله هذا المجرم الفرنسي تأكد في منطقة القبائل عام 1851 م ثورة عارمة قادها الشريف بوبغلة والحاج عمر والبطلة الجزائرية القبائلية لالا فاطمة نسومر التي برهنت على قدرة المرأة الجزائرية في التضحية من أجل الوطن، هؤلاء ألحقوا بالإحتلال عدة هزائم موجعة وأفصحوا عن إرادة القبائل الذين هم جزء من الشعب الجزائري الأصيل والمخلص أن لا وطن لهم غير الجزائر وأن شهادتهم لن تكون إلا على الوطن وسيادته، كما أن عقيدتهم الإسلام ولا بديل لهم إلا مصلحة الأمة الجزائرية.

ولولا جيوش الاحتلال التي تدفقت على المنطقة تحت قيادة أكثر من ثمان جنرالات هم خبراء في العلوم الحربية ومن كبار المجرمين السفاكين الفرنسيين، الذين تفننوا في البطش والتقتيل وإنجاز المجازر في مقابر جماعية لا يحصيها ولا يعرفها إلا الله لطرد الاستعمار الفرنسي نهائيا من منطقة القبائل.

ومما لا شك فيه أن دور الخونة في هذه الثورة القبائل الأحرار ضد المستعمر الفرنسي الذي يسعى إلى جعلهم عبيدا في أرضهم ووطنهم كان سلبيا ومهينا لكرامة الشعب الجزائري.

إن تاريخ البشرية والأمم غني بالخونة والمتخاذلين والشماتين في كل الحروب والثورات وفي كل الشعوب مهما وصلت من التحضر بها خونة وبها متخاذلين، سنة الله في خلقه.

لقد شكا الفرنسيون من خونتهم خلال فترة صراعهم مع الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، بل لم تنتصر النازية والفاشية بأوروبا إلا بفضل ما قدم إليها من معلومات هامة عسكرية ومدنية من قبل عملاءها من الفرنسيين والأوروبيين، وقد اعترف هؤلاء العملاء صراحة بذلك.

ودور الخونة الفيتناميين في تدمير شعبهم أثناء الحرب الفيتنامية الفرنسية والفيتنامية الأمريكية مؤكد في نتائجه السلبية.

كما أن دور الخونة الجزائريين في ثورة نوفمبر 1954 م وحتى تاريخ استعادة الشعب الجزائري لسيادته في 5 جويلية 1962 م مؤكد بل كان سببا في إطالة عمر هذه الثورة التي حصدت أكثر من مليون ونصف شهيد.

بالفعل لقد كان لخونة ثورات الجزائر نتائج سلبية ومحزنة أعاقت وأفشلت ثورة الأحرار الأمازيغ الذين لا يخافون الموت ولا يترددون في طلب الشهادة خدمة للوطن ودفاعا عن الجزائر.

لقد استشهد المجاهدون في هذه المنطقة العزيزة على كل الجزائريين وكان من بينهم البطل بوبغلة الشريف وأسرا الحاج عمر والمجاهدة لالا فاطمة نسومر التي أبت إلا أن تبرهن عن كرامة الجزائرية وشرفها في حماية العقيدة والوطن والأهل والأرزاق وأن تقاوم جيوش الاحتلال الغادر دون خوف.

وبقضاء الاستعمار الفرنسي على هذه الثورة واعتبار أبطالها خارجين عن القانون أقام عدة حصون مراقبة دائمة في مناطق القبائل مثل حصن فورناسيونل "نابليون" وحصن ذراع الميزان، وحصن الثنية، لكن لم يتمكن من إطفاء شعلة التحرير في القبائليين نهائيا.

وظلت المقاومة متواصلة حتى عام 1857 م معبرة عن إرادة التحرر ضد الاستعمار الفرنسي الدخيل، متحملة ضحايا عديدين من أجل الجزائر.

ولم تخمد هذه المقاومة إلا بعد وصول جيوش كبيرة استعمارية قصد إتمام السيطرة والاحتلال لمنطقة القبائل التي لم تستسلم بل ثارت من جديد عام 1870 م في كل من بجاية وتيزي وزووالبويرة نتيجة ظلمه وبطشه وعنصريته الصليبية، إذا كان يكيل بمكيالين الجيد والأفضل

للفرنسيين والأوروبيين واليهود والأدنى والأحقر للمسلمين الجزائريين، رغم أنهم أصحاب الأرض وأصحاب الحق.

وتزامنت الانتفاضة المباركة هذه مع أخرى لا تقل عنها تضحيات وبطولات اندلعت في الشعابنة وقبائل بسكرة وورقلة والأغواط وغرداية وامتدت شرارتها حتى الأوراس العنيدة، وكان قائدها الشريف محمد بن عبد الله الذي أعلن الجهاد المقدس على النصارى والكفار أعداء الله وأعداء الوطن بدءا من عام1851 م حتى عام 1861 م.

ولولا تدخل أعتى جيوش الاحتلال وأكبر مجرمي فرنسا من جنرالاتها المحترفين في الجرائم والمجازر والبطش وخيانة بعض الأعوان من خدامها في الجزائر لكان النصر وكان طرد الاستعمار الفرنسي من كامل المنطقة المستهدفة.

ورغم التدمير وسياسة الأرض المحروقة والبطش والتقتيل التي رسختها فرنسا في الجزائر فإن مقاومة المجاهد الشريف محمد وأبنائه وأتباعه بين المجاهدين الجزائريين، ظلت متواصلة حتى بتاريخ وفاته عام 1895 م.

وقد كانت شعلته قوية وشعبية سمحت لثورة أخرى بالاندلاع بين أولاد سيدي الشيخ ما بين 1864 م حتى تاريخ 1904.

خاصة في الجنوب الوهراني، امتد لهيبها حتى الصحراء في الجنوب بسبب الظلم والتعدي على عقيدة الجزائريين وحرماتهم من أرزاقهم وسلطة الاستعمار الفرنسي التي كانت مذنبة ومجرمة لأنها الآمرة لجيوشها ومجرميها باتباع سياسة البطش والتقتيل اتجاه المسلمين الجزائريين بدل سياسة الرحمة والمساعدة الاقتصادية والمساواة مع الأوروبيين في الأرزاق وفي الحقوق وإن فعلت فرنسا بتعاليم دينها وسماحته وعدله لكانت مهمة الاستعمار حضارية في الجزائر.

لكن ما ارتكبه الاستعمار الفرنسي من مجازر ومن تعدي على الحقوق الأساسية للجزائريين، كالحق في الحياة والحق في العيش والحق في الكرامة وفي الأمن وفي السكن وفي ممارسة الشعائر الدينية والاعتداء على العقيدة وتدنيس المساجد وتخريب المقابر الخاصة بالمسلمين لا يوضح إلا شيئا واحدا الطبيعة العنصرية والإجرامية ضد الإنسانية للدولة الفرنسية.

إن ثورة أولاد سيدي الشيخ المحضرة جيدا في المساجد وفي الزوايا الطرقية البعيدة عن أعين الاستعمار ذات العلاقة المباشرة بالقبائل وشيوخها مما جعلها شعبية وذات بعد وطني وقومي وإسلامي والتي تدعمت ميدانيا بالمجاهد مولاي ابراهيم وابنه ناصر وبوخنتاش وسي الصادق الذين نشطوا في النواحي، في الصحراء وفي بسكرة والمسيلة، وتيارت ومغنية ومسيردة شغلوا قوات الاحتلال ودوخوها.

ورغم التضحيات الكبيرة التي أبداها الشعب الجزائري عن بكرة أبيه في كل النواحي الجزائرية إلا أن مردود الثورات الجزائرية لم يرتق إلى مستوى التهديد الفعلي للاستعمار الفرنسي بسبب غياب التنظيم والتنسيق والبعد العقائدي، والدعم اللوجستيكي. لأن الافتقار إلى الأسلحة والذخيرة والمؤن ظل يشكل عائقا مهما لكل نصر مبين خاصة وأن الاستعمار الفرنسي ضم في حملته العسكرية الصليبية خبراء ذوي كفاءة من مهندسين وأطباء نفسانيين وعلماء سوسيولوجية بل وحتى مختصين في الدراسات العربية والإسلامية قصد الاستيطان والاستغلال والتوسع وليس فحسب مجرد تأديب الإدارة التركية في الجزائر، كما أشيع عنه.

الاستعمار الفرنسي الماكر الذي لجأ إلى الفرقة وامتصاص غضب الثوار المسلمين كلما انتصروا إما بالهدنة أوبالتفاوض لتهدئة الأعصاب

وقلب الأدوار. ذلك ما فعله مع الأمير عبد القادر في معاهدة ديميشل ومعاهدة تافنة، اللتان نقضهما بمكر وحيلة.

وذاك ما فعله مع الحاج أحمد باي ومع المجاهد المقراني ومع المجاهد الشيخ بوعمامة بل وحاول إعادة تطبيق نفس المكر مع ثوار نوفمبر 1954 م، لكن دون جدوى.

إن الظلم الاقتصادي الاستعماري للجزائريين الذي بدأ بمصادرة أراضيهم وأرزاقهم وبعد أن فرض عليهم ضرائب مرهقة جعلت السلطة الاستعمارية تحجز ممتلكاتهم وحيواناتهم ومواشيهم وتهميشهم لتطبيق عليهم سياسة "جوع كلبك يتبعك" كانت سببا مباشرا للثورة على الاحتلال.

كما أن الظلم الاستعماري للجزائريين حرمهم من التطور ومن فوائد التقنية لأن كل المبتكرات والتكنولوجية كانت حكرا على الأوروبيين دون المسلمين.

مما خلق مجتمعين أوربي متميز طبقي، مسلم عربي متخلف ومحروم من أدنى تطور إنساني. كل ذلك التمايز والتفاصل بين الجانبين انقلب إلى شبه حقد خطير تطور فيما بعد إلى ثورة مسلحة قاتلة.

ظلم فرنسا وجرائمها دفعت المقراني والشيخ الحداد إلى الثورة للدفاع عن الجزائريين المظلومين. ذوي الحقوق وأصحاب الأرض، المهضومين، المجروحين في حرماتهم وفي شرفهم وكرامتهم.

كان من دوافع هذه الثورة عنصرية فرنسا، برزت بوضوح عند إصدارها لقانون كريميو الذي كان مضمونه تفضيل اليهود على الجزائريين المسلمين.

وقد كان هدف الاستعمار من ورائه خلق صراع بين العرب واليهود وسيطرة الاستعمار الفرنسي على الطرفين.

وزاد من ظلم فرنسا للجزائر احتقارها لعائلة المقراني بـ إهانة وإذلال أفراد عائلة المقراني، ومصادرة أرزاق الجزائريين ومواشيهم، مما عرض جلهم للأوبئة الفتاكة، إما لغياب الأدوية أوسوء التغذية.

المجاهد المقراني الذي اغتنم فرصة قيام ثورة البلدية في فرنسا وهزيمة جيوشها أمام جيوش بروسيا عام 1870 م، مما أربك قادتها وجيوشها في الجزائر.

لقد أحرز المقراني عدة انتصارات على العدو، ولولا استشهاده بوادي سوفلات بعين بسام يوم: 1871/05/05 م، الأمر الذي شتت من صفوف المقاومة لكانت نهاية عدة وحدات عسكرية في صفوف جيوش الاحتلال في الإقليم الجزائري.

ورغم أن أخاه بومرزاق الذي قاد الثورة بعده وساعده الشيخ الحداد في مواصلة الكفاح ضد الاستعمار والذي كبده خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، ولقنه دروسا في الشجاعة والتضحية.

غير أن الضغوط العسكرية الكبيرة للاستعمار أجبرتهما على الاستسلام، الأمر الذي تم يوم : 20/ 01/ 1872 بمنطقة ورقلة بالجنوب الجزائري.

لقد وضحت ثورة المقراني الشعبية رفض الجزائريين للاستعمار الفرنسي، الشعب الجزائري الذي ذاق مرارة الاحتلال والظلم، وتأكد من عنصريته وحقده على الإسلام والمسلمين.

لقد شاهد الشعب الجزائريْ ولاحظ ترحيل أبنائه إلى إقليم كاليدونيا، ومصادرة الأراضي الخصبة لصالح المعمرين، ومصادرة مواشيهم وحيواناتهم والحجز على ممتلكاتهم، أي غبنهم والتضييق عليهم دون وجه حق.

وبلغ الاستعمار الفرنسي وقاحته بإصداره لقانون الأهالي "Code indigent" لكن إن خمدت ثورة المقراني فقد كانت سببا في

ظهور عدة انتفاضات شعبية محلية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي منها، انتفاضات الأوراس والشعابنة وبجاية وانتفاضات مسيرة وبني وسينى في مغنية والسواحلية في الغزوات وبني بوسعيد وسكان رأس الماء وغيرهم من أحرار معسكر، كل ذلك كان تعبير عن الرفض الشعبي الجزائري للاستعمار الفرنسي.

وأمام همجية الاستعمار الفرنسي الإرهابية، الذي اتبع سياسة الأرض المحروقة والتجويع والحرمان لتخويف الشعب الجزائري مع الخونة وتناصى الغنائم الذين لا يخلوزمن منهم.

عدة حركات وطنية للمقاومة برزت من طلب الشعب الجزائري عبرت عن رفضها لسياسة الأمر الواقع ولمقتها وكراهيتها للاستعمار، قاد أحدها المجاهد الشيخ بوعمامة ما بين 1881 – 1904 م المولود سنة 1840 وهوابن العربي انطلاقا من الجنوب الغربي الوهراني بالجزائر.

بعد أن غار على عقيدة الإسلام والمسلمين من قبل الاستعمار الفرنسي وعدم احترامه لحرمات الجزائريين وممتلكاتهم.

تأثر الشيخ بوعمامة في دعوته للجهاد ضد فرنسا الظالمة الكافرة بتعاليم جمال الدين الأفغاني الإصلاحية التحريرية.

وبعد أن حشد أتباعه وبين لهم ما ينتظرهم في جهادهم من شرف وجزاء إلاهي لا يكرم به إلا الشهداء الذين مصيرهم الجنة خالدون فيها.

جمع الأسلحة والذخيرة والخناجر والعصا وكل ما يؤذي به العدو، وشن عدة هجومات مظفرة على العدوأربكته وفاجأته وألحقت به أضرارا بالغة في الأرواح والعتاد في كل من الشلالة وفرندة وسعيدة وتيارت وبوسعادة، وكانت معركة سفيسفة انتصارا، عظيما وتاريخيا ضد جيوش الاحتلال الفرنسي، الذي قتل منه أكثر من 300 عسكري وجرح أكثر من 600 آخرين.

وأمام انسحاب العدوقام الشيخ بوعمامة وأتباعه من المجاهدين بغنم كمية كبيرة من أسلحة وذخيرة العدو.

ولولا إرسال فرنسا لقوات عسكرية كبيرة ولجوئها إلى المكر باستمالة الشيخ قدور بن حمزة واستعماله ضد الشيخ بوعمامة لما استطاعت أن تجبره على الانسحاب إلى المغرب.

أين وجد مناصر آخر لثورته ضد الاستعمار وهوالمجاهد بوحمارة الذي أمده بالمساعدة حتى تاريخ وفاته في : 07 / أكتوبر / 1908 م.

لقد أبدا الشيخ بوعمامة وأتباعه بطولة وشجاعة كبيرتين ضد عدوالله وعدوالوطن وأعوانه من الخونة والمتخاذلين ورغم فرنسا وقدرتها الحربية، فقد لقنوها دروسا في التضحية والجهاد

ورغم فشل مقاومة الشيخ بوعمامة وأتباعه من المجاهدين إلا أن التاريخ سيظل يذكرهم بالفخر والخلود

ظلم الاستعمار وبطشه وانتقامه من القبائل التي ساندت الشيخ بوعمامة بل ومن كل الجزائريين بالتقتيل والتعذيب والتجويع والحرمان سبب اندلاع ثورة أخرى هي ثورة عين التركي والتي تعرف بثورة مليانة عام 1901 والتي قادها يعقوب بن الحاج وعدد من المجاهدين، تعاهدوا فيما بينهم على الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الصليبي الظالم.

هؤلاء المجاهدين هاجموا الوحدات العسكرية الفرنسية وأسروا قائد المنطقة العسكرية ثم التحقوا بالشيخ بوعمامة الذي كان لا زال على عهده من أجل حرية واستقلال الجزائر.

إن المعاملة السيئة للاستعمار الفرنسي للجزائريين واعتبار أراضيهم، أرض محتلة وأرض أعداء ومعاملة الجزائريين المسلمين من قبل إدارة عسكرية بواسطة المكاتب العربية بكثير من الاحتقار

والعنصرية بدءا من عام 1840 م بينما أفادت الأوروبيين بنظام مدني مماثل لذلك المتبع في فرنسا، زادت من كراهية الجزائريين لفرنسا.

ورغم أن نابليون الثالث حاول عام 1863 الاعتراف بالشخصية الخاصة بالجزائريين فإن معارضة الأوروبيين والمعمرين المحتلين لذلك كانت واضحة، خاصة بعد أن استولوا على أخصب الأراضي الفلاحية "قرابة 5 مليون هكتار" في الجزائر.

واجتماعيا، قام الاستعمار الفرنسي وسلطاته بمحاربة الدين الإسلاميواللغة العربية وتدمير المساجد والزوايا وفرنسة الجزائر وتنصيرها وتجنيس أبنائها.

فازداد الأوروبيين غنا والجزائريين فقرا، وتصاعدت نسب الأمية والبطالة والأمراض بين الجزائريين وأبيد أكثرهم فبعد أن كان سكان الجزائر عام 1830 "قرابة 6 ملايين نسمة، صاروا عام 1870 م لا يتجاوزوا 4 ملايين نسمة" على الصعيد القانوني والتنظيمي الاستعماري كان مرسوم 1834 الذي اعتبرت فرنسا فيه الجزائر أرضا فرنسية، منتهجة سياسة جرائم الإبادة والتعذيب والتجويع والحرمان والتجهيل ضد كل من رفض استعمارها وظلمها.

وظل الحال حتى سقوط نظام نابليون الثالث بهزيمته على يد بسمارك الألماني عام 1870 م، حيث تحول النظام الاستعماري في الجزائر من عسكري إلى مدني يتولاه الحاكم العام وهوموظف مدني يتبع وزارة الداخلية الفرنسية.

وفي عام 1898 استحدث مجلس الحكومة الأعلى في فرنسا الذي رجع إلى شبه نظام عسكري في الجزائر من جديد.

وأمام الرفض الجزائري للنظام الاستعماري الفرنسي، فإن قانون الجنسية المعروض على الجزائريين قصد التجنيس عام 1865 لم يعتنقه إلا أقل من 1000 جزائري الذين انسلخوا عن أصلهم.

ثم كانت قوانين كريميو "cremieux" التي أعدها اليهود موشي قم أدولف كريميوالذي كان محاميا ثم صار وزيرا للعدل بفرنسا خلال أكتوبر 1870 م.

مضمون هذه القوانين لطفت من النظام الاستعماري إلى شبه نظام مدني في الجزائر ومنحت اليهود إمتيازات لا تختلف عن تلك الممنوحة للفرنسيين والأوروبيين في الجزائر، ثم كان قانون الأهالي أوالأنديجينا "Code indigent" الذي صدر في سنة 1874 م وتضمن نصوصا ظالمة اتجاه الجزائريين، عدل مرتين في عامي 1881 ثم 1897 ولم يبلغ إلا في عام 1944، خول هذا القانون الذي كان من الأسباب الرئيسية لكل الثورات الجزائرية التي قامت بعده صلاحيات واسعة للإدارة الاستعمارية في إنزال كل العقوبات بالجزائريين.

وأخذ الاستعمار بمبدأ المسؤولية الجماعية في العقوبة وتطبيق سياسة التفريق بين الجزائريين القبائل والعرب في التقاضي أمام الحاكم.

كما أصدرت السلطة الاستعمارية بعد ذلك أي في عام 1912 قانون التجنيد الإجباري على الجزائريين لمدة 3 سنوات، وقد تصدى الجزائريون لهذا القانون وحاولوا إلغاءه لأنه يخدم دولة لا ينتمون لها، دولة لم يقصد إلا إرهاب الجزائريين واستعبادهم ولم يفكر إطلاقا في خدمتهم.

قوانين جائرة كلها كانت في خدمة الاستعمار الفرنسي الاستيطاني "فرنسيين، أوربيين، يهود خونة" وظالمة في حق الجزائريين الذين يطمحون إلى الحرية والكرامة والاستقلال.

استعمار استيطاني، صليبي، صادر أرض الجزائريين وأثقل ممتلكاتهم بالضرائب، وحول محاصيلهم الزراعية من حبوب وشعير إلى دوالي كروم لصناعة الخمور.

واستولى على أراضي الأوقاف وأراضي العروش، وألغت السلطة الاستعمارية عن قصد عقود ملكية الأراضي لضمها لأملاك الدولة وبالتالي الاستحواذ عليها "قرابة 4 ملايين هكتار" حسب المراسيم الآتية: "مرسوم 21 جويلية 1846 م خاص بوثائق إثبات الملكية، ومرسوم 16 جوان 1851 عدم الاعتراف بملكية العروش للقبائل.

قرار 30 مارس 1871، مصادرة أرض كل من عاد فرنسا.

قانون 26 جويلية 1873، جعل الملكية الفردية من أراضي العروش.

وزاد بؤس الجزائريين وحرماتهم استحواذ المعمرين على أخصب الأراضي وتحويلها من زراعة حبوب وشعير إلى زراعة نقدية كالكروم والتبغ والحوامض وخضروات وفواكه وفلين وحلفاء، وهدفهم كان خدمة الاقتصاد الفرنسي بالتصدير إلى الخارج إلى فرنسا أولا وأوروبا ثانيا.

لقد كان من ظلم الاستعمار الفرنسي ابتكار كل الوسائل وتوظيف كل القوانين لنزع الأراضي من الجزائريين وتجويعهم لأنها مصدر أرزاقهم والعمل على توطين الفرنسيين واليهود وبعض الخونة من الجزائريين الذين خدموا الاستعمار، الأمر الذي يفسر الملكية الكبيرة للأراضي لبعض الجزائريين المعروفين في الجزائر.

وثقافيا: عمل الاستعمار الفرنسي على تجهيل الجزائريين بتقييد حريتهم في التعليم وتحويل المساجد والكتاتيب والزوايا إلى كنائس وثكنات ومدارس التعليم الفرنسية وتنصير الجزائريين، ثم تولت الكنيسة المسيحية في محاربة العربية والإسلام مع إحداث التفرقة بين العرب والقبائل لتستفيد من مبدأ "فرّق تسد".

واستفلحت الأمية، إذ بلغت النسبة بين الذكور إلى 96 بالمائة وبين الإناث 98 بالمائة وهيمن الفقر والمرض والجهل وفساد الأخلاق لطمس الشخصية الوطنية من طرف الاستعمار الفرنسي.

إن ظلم الاستعمار وجوره في حق المسلمين الجزائريين وفي حق العرب سكان الجزائر من عرب وقبائل وشاوية ومزابيين ووهرانيين ومسيرديين جميعا يحبون وطنهم الجزائر وعقيدتهم الإسلام وعلى استعداد أن يموتوا شهداء في الدفاع عن قيمهم الأبدية المستمدة من شريعة الله والوطن.

وهل يعقل أن تتغطرس السلطات الفرنسية فتمنع الجزائريين المسلمين من أداء فريضة الحج، بل هل يعقل أن يمنع الجزائري داخل وطنه من زيارة أهله في الجنوب أوفي الغرب الجزائري وأن لا يتم ذلك إلا بترخيص من سلطات الاحتلال.

إنها حماقة الحاكم الفرنسي جونار في الجزائر خلال عام 1908 م.

إن طغيان الاستعمار الفرنسي لم يعرف أمثال الحاكم جونار فحسب بل عرف أبشع من ذلك عرف آخرين لم يكتفوا بغلق محلات الجزائريين التجارية أويأمروا بتدمير سكنات قيل عنها أنها مأوى لمجاهدين ثوار جزائريين معارضين للوجود الفرنسي.

إن الاستعمار الفرنسي عرف حكاما وجنرالات مجرمين وسفاكين للدماء تفننوا في التقتيل والمجازر والإبادة من أمثال بيجو، ومونتانياك ودور وڤيغوروسانت آريووبيلسي وكلوزال وكافينياك وآخرين سيكونون محل دراسة مستفيضة منا.

وهؤلاء مجرمين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية لا تتقادم بفعل الزمن ومن ثمة يحق للجزائريين متابعة الأحياء منهم ومتابعة سلطتهم المجرمة هي الأخرى قصد التعويض عن كافة الأضرار اللاحقة بالضحايا.

ومسؤولية سلطة فرنسا خلال فترة الاحتلال للجزائر قائمة وثابتة ويبقى على الأحرار تحريكه أمام القضاء الجنائي الدولي.

مسؤولية جنائية ومدنية، وعليها الإدانة والتعويض لصالح الضحايا. وهل يعقل أن يعوض الضحايا اليهود عن جرائم الحرب ولا يعوض الجزائريين لأنهم عرب، ولأن العلاقات المختلفة مع السلطة الفرنسية قد تتجسد عن واقعيتها.

المبدأ العام، ما ضاع حق وراءه طالب سيبقى فقط على المجتمع المدني وذوي الحقوق التثبت بالحق وسيأتي زمن القصاص، ولأن فكرة عفى الله عما سلف لا تسري في هذا الشأن.

آخر مقاومة جدية ضد الاستعمار الفرنسي في نهاية القرن 19 الميلادي كانت تتمثل في جهود وتضحيات الشيخ بوعمامة وأتباعه في النضال المسلح الذي أرهب الاستعمار الفرنسي وجيوشه الكبيرة، لقنه دروسا تاريخية في الشجاعة ولم يبدأ دوره الثوري بتلاش إلا عندما خانه الإخوة الذين فضلوا الفانية على الخلود دفاعا عن العقيدة وعن الوطن التي أمدته بالرجال المجاهدين وبالسلاح وبالذخيرة، لكن شاءت الأقدار أن تحصل الردة بين الأحيلة، فلم يعد مكان الشيخ بوعمامة وأتباعه بالجزائر فانتقل إلى فقيق بالمغرب الشقيق مسقط رأسه.

لكن العدوظل يطارده حتى من مدينة مسقط رأسه ولم يجد إلا المدينة المضيافة وجدة، وجدة الجزائر، وجدة العروبة، وجدة الأصالة والعصرنة، كانت مأواه الأخير. كما كتب أن تكون هذه المدينة المضيافة مقر لقيادة أركان جيش التحرير الوطني خلال ثورة نوفمبر الخالدة 1954 م.

الأوضاع السياسية والإدارية

منظومة الحكم

مجال السلطة التركية :

كان مجال سلطة الإخوة بربروس، عند مقتل عروج سنة 1518، يمتد من جيجل إلى نواحي مستغانم، ومن مدينة الجزائر إلى المدية. ظل هذا المجال يزداد توسعا إلى غاية أوائل القرن التاسع عشر حيث بدأت حركة عكسية فأخذ هذا المجال ينحسر. بفضل ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية والدعم الذي قدمته هذه الأخيرة، وسّع خير الدين مجال سلطته خاصة إلى الناحية الشرقية وأمكن له أن يقضي على الوجود الإسباني في جزيرة البنيون. لكن التوسع الأكبر حدث في عهد البايلربايات الذين أنهوا وجود مملكة بني زيان في تلمسان وأنهوا كذلك وجود مملكة بني حفص في تونس واقتلعوا الإسبان من بجاية. ولم ينته هذا العهد إلاّ وقد مدّ الأتراك نفوذهم على الشمال الجزائري إلى غاية الأغواط، ورقلة وتقرت. لكن مناطق هامة في جبل الأوراس وجبل القبائل الكبرى والونشريس وغيرها من المناطق الجبلية ظلت خارج نفوذهم. لقد عرفت عمليات التوسع نوعا من الركود في عهد الباشوات والأغوات وانفصلت تونس عن الجزائر. حاول الدايات إعادة تنشيط حركة التوسع وخاصة في المنطقة الكبرى، غير أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على مجملها. إن طرد الإسبان من وهران والمرسى الكبير سنة 1792 قد أفقد الأتراك علّة قبول الجزائريين سلطتهم، وقد تعرضت هذه السلطة للعديد من الهزات في أوائل القرن التاسع عشر نتيجة حركات التمرد العديدة في الشرق والوسط والغرب. ضعفت هذه السلطة ثم تلاشت في الكثير من المناطق، وخاصة في بلاد القبائل وجبل البابور، الأوراس، الونشريس وغيرها.

بلختصار، وجد الفرنسيون السلطة التركية في حالة التقهقر والانحسار. انتهت الدراسة التي أنجزها لويس رين، في أواخر القرن التاسع عشر، إلى أن السيادة التركية الفعلية لم تكن تمتد، في سنة 1830، إلا على حوالي 15 مليون هكتار، تقيم عليها 126 جماعة مخزنية وحوالي 104 جماعات من الرعية (القبائل التي تخضع مباشرة للسلطة التركية) و86 جماعة من الجماعات التابعة أوالحليفة للأتراك. وبما أن هذه الجماعات الأخيرة كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، فهذا يعني أن الأتراك لم يسيطروا سيطرة مباشرة ومطلقة إلا على جماعات الرعية والمخزن، التي كانت تشغل حوالي 8 ملايين من الهكتارات. مع العلم أن فرنسا كانت تسيطر على ما يقرب 48 مليون هكتار سنة 1886 وهي مساحة الجزائر الشمالية تقريبا[1]. معنى هذا أن الأتراك لم يكونوا يسيطرون، بصفة مباشرة أوبصفة غير مباشرة سنة 1830 إلا على حوالي30 % من الجزائر الشمالية الحالية أو6.3% من كل الجزائر الحالية، أما سيطرتهم الفعلية والمباشرة فهي تمتد على 16% من الجزائر الشمالية أو 3.3% من الجزائر كلها.

علاقة الجزائر بالدولة العثمانية :

كانت منظومة الحكم التركي في مراحلها الأخيرة تتكون من البلي والحكومة والديوان.

ظهر نظام الداي إلى الوجود سنة 1671، في إطار مسار يتجه نحوالانفصل عن الدولة العثمانية. لجأت الدولة العثمانية، بعد أن أصبحت الجزائر تابعة لها، إلى تعيين بايلربايا مسؤولا على الجزائر وعلى كل الأقاليم التي انضوت تحت سلطتها في بلاد المغرب. هذه الأهمية التي

---

[1]- رين. مملكة مدينة الجزائر في عهد الداي الأخير. المرجع السابق عدد 43. ص 123 وعدد 41 ص 125.

'ولتها الدولة العثمانية للجزائر وبلاد المغرب نابعة من كون المنطقة تشكل جبهة متقدمة في الصراع بين العثمانيين والإسبان خاصة في عهد شارل كان. لكن ما إن خف هذا الصراع حتى أسرعت القسطنطينية إلى تفكيك المغرب إلى ثلاث وحدات إدارية هي الجزائر، تونس وطرابلس، على رأس كل منها مسؤول تابع لها مباشرة فألغت منصب البايلرباي. نعتقد أن هذا الإجراء كان سببه خوف الدولة العثمانية من أن تتشكل سلطة قوية في المغرب قد تستقل بالمنطقة. ولعل هذا هوالسبب الذي جعل القسطنطينية لا ترمي بكل ثقلها للقضاء على الوجود الإسباني في الغرب الجزائري، فهذا الوجود كان يخدم سياستها.

أصبحت الجزائر تخضع، بعد التفكيك، لباشا تعينه الدولة العثمانية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد. لم تكن هذه المدة القصيرة كافية ليتمكن الباشا من فرض سلطته، لهذا كان ينشغل بجمع المال الذي يمكنه من تقديم الهدايا الضرورية لمسؤوليه حتى يُعاد تعيينه مرة أخرى. أهمل بذلك شؤون الإيالة، وبرزت الإنكشارية كقوة بيدها السلطة الحقيقية. في سنة 1659 أزاحت الإنكشارية الباشا عن الإدارة المباشرة للبلاد، وأوكلت هذه المهمة للآغا، قائدها العام، الذي كان يعين من طرفها. لم يعد الباشا سوى ممثل السلطان في الجزائر. لم تستطع الإنكشارية المضي قدما لتحدث القطيعة مع القسطنطينية لسببين: يتمثل الأول في كون هذه الإنكشارية تجند عناصرها في أراضي الدولة العثمانية؛ ويتمثل ثانيا في رفضها جزأرة السلطة. كانت فترة الأغوات فترة اغتيالات ومؤامرات، بحيث قتل كل الأغوات الذين مارسوا السلطة. لاشك في أن الباشا لم يكن بعيدا عن تلك المؤامرات والاغتيالات. لم يتم تجاوز الأزمة التي عرفتها سلطة الآغوات إلا بتدخل طائفة الرياس التي أقامت نظام الدايات. على الرغم من الإصلاحات السياسية التي أدخلها الدايات على نظام الحكم إلا أنهم لم يُبعدوا باشا

القسطنطينية إلا سنة 1711. منذ هذا التاريخ أصبح السلطان يخلع لقب الباشا على الداي نفسه. معنى هذا أن الداي الباشا هوممثل أتراك الجزائر، من جهة، وممثل السلطان من جهة أخرى. ظلت الوضعية على هذه الحال إلى آخر الدايات.

يتضح إذن أن أتراك الجزائر لم يكونوا قادرين على إحداث القطيعة النهائية مع الدولة العثمانية،لأن هذه القطيعة كانت تعني تقهقر طائفتهم في الجزائر من الناحية العددية، مادامو لا يعترفون بالصفة التركية لأبنائهم من الجزائريات ويرفضون مشاركة الجزائريين في السلطة. ما يمكن قوله هوأن أتراك الجزائر تمكنوا من انتزاع الاستقلال الذاتي، وأن السلطة كانت تعبر عن مصالحهم وما علاقتهم بالدولة العثمانية سوى علاقة تبادل منافع وتضامن في مواجهة العدوالمشترك على الرغم من أن الدول الأوربية كانت تتعامل مع الجزائر على أساس أنها ولاية عثمانية. كانت ترسل سفراءها إلى عاصمة الدولة العثمانية كانت تعتبر سكان الجزائر رعاياها، إلا أن السلطة الحقيقية في الجزائر كانت بيد أتراكها، وأن هذه السلطة كانت قادرة على إبرام معاهدات مع بلدان أخرى دون الرجوع إلى السلطان. ما حصل في تونس من تونسة النظام، بالقضاء على الإنكشارية، لم يحصل في الجزائر، رغم محاولة علي خوجة.

الداي لم يكن هناك نظام محدد ومضبوط لتعيين الداي، كما لم تكن فترة حكمه محددة، فالداي يبقى على رأس السلطة إلى غاية وفاته، إن لم يُبعده غيره أويستقيل. كان هناك نوع من الاتفاق على أن "الأمير (الداي) إذا مات يتولى مكانه الخزناجي والآغا (آغا العرب) يتولى خزنلجيا"، كما يقول الزهار[1]. غير أن هذه القاعدة ليست محترمة دائما،

[1]- مذكرات الزهار. المرجع السابق ص 51.

فقد يتولى السلطة عضوآخر من الهيئة التنفيذية، وقد يوصي الداي بها لمن يراه صالحا، فقد أوصى علي باشا بالسلطة لمحمد باشا مثلا. وقد يصل الداي إلى سدّة الحكم نتيجة تمرد من الإنكشارية أونتيجة مؤامرة يدبرها أحد أعضاء الهيئة التنفيذية. بعد أن يُعين الداي بطريقة من الطرق تأتي مرحلة المبايعة من الديوان الأكبر والشخصيات المتنفذة. يقدم لنا الشريف الزهار صورة عن مبايعة محمد باشا نقدمها هنا كنموذج : في اليوم الموالي لتعيين محمد باشا " قدم الدولاتلي أعني آغة العسكر وكاهيته، وكافة الديوان والمفتيين، والقضاة، ونقيب الأشراف، وأعيان الناس واجتمعوا به بدار الإمارة فجلس محمد باشا على كرسي الملك، وبايعه العلماء، ثم نقيب الأشراف، ثم الوزراء وكافة الديوان وجميع الناس، ولبس الخلعة السلطانية وأطلقت المدافع ثم انفض الموكب[1]. بعد التنصيب يُعين الداي باشا من طرف السلطان.

يقول حمدان خوجة : "عندما تنتهي عملية التنصيب (تنصيب الداي) يُكلف أحد الأشخاص بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم وقيام الديوان بانتخاب الحاكم الجديد، وبهذه المناسبة تُكتب رسالة تحمل إمضاء وخاتم كل واحد من أعضاء الديوان وخاصة القاضي والمفتي ونقيب الأشراف. ويوافق أعيان المدينة كذلك على هذا الاختيار ويشهدون على مقدرة الشخص المعين". ويذهب الرسول (آغا المدية) محولا هدية لا تتجاوز قيمتها خمسة آلاف فرنك إلى عاصمة الإمبراطورية ليطلب من الباب العالي "أن يعطف على الإيالة ثم يُطلعه على بؤس البلاد وقلة الأموال اللازمة لإقامة الحصون، ويطلب المساعدة والحماية. عندئذ يقدم الباب العالي للإيالة عتادا حربيا مثل المدافع والبارود والحبالة، وأخشاب البناء إلى غير ذلك، وفي بعض

---

[1]- نفسه ص 23.

الأحيان يزودها ببواخر (بسفن) جاهزة". ويؤكد حمدان خوجة على الهدية التي قُدمت للباب العالي بعد وفاة محمد باشا كانت "تتضمن الماس والجوهرات وأشياء أخرى مماثلة مما يتقبله الدايات من البلدان الأوربية. ويمكن تقييم هذه الهدية بمبلغ مليون من الفرنكات. وبالمقابل كانت أعطية الباب أكثر أهمية إذ اشتملت حتى على بعض الحراقات"[1]. هذا ويرسل الباب العالي فرمانا يعين بموجبه الداي ويخلع عليه صفة الباشا، وقد جرى هذا التقليد منذ إبعاد الباشا ممثل الباب العالي في الجزائر.

بعد تنصيبه يقوم الداي باختيار حكومته كما يحلوله. غالبا ما يتخلى عن أعضاء الحكومة السابقة. يلعب الداي دورا رئيسيا في منظومة الحكم فهوالذي يترأس الهيئة التنفيذية وهوالذي يعين البايات وخلفاءهم وهوالذي يترأس الديوان الأكبر. يقضي جُلّ وقته في إدارة شؤون الدولة " لأن المراسيم لا تسمح له بالتمتع بالحياة العائلية في داره الخاصة إلا بنصف نهار وليلة واحدة في الأسبوع" [2]. أما بقية الأسبوع فيقضيها في قصر الجنينة. يستيقظ قبل طلوع الشمس، حيث تفتح أبواب القصر أومقر الحكومة، وينزل إلى الديوان لاستقبال الضباط وتناول القهوة. لا أحد من كبار المسؤولين يعود إلى بيته إلا بعد العصر حيث تُقفل أبواب الحكومة. وفي يوم الجمعة يأتي كبار المسؤولين والضباط لمرافقة الداي إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة[3].

لا يمكن للداي أن يحتفظ بزوجته في قصر الحكومة الذي يقضي فيه جل وقته[4] مثله مثل كبار المسؤولين. للداي ولكبار الضباط بيتان، البيت الخاص وبيت النساء. وعند وفاة أحدهم يُصادر البيت الخاص

1- حمدان. المرجع السابق ص 132 و134.

2- جوليان. تاريخ إفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 376.

3- بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 68 و69.

4- نفسه عدد 40 ص 267.

ليصبح من أملاك البايليك، لكن بيت النساء لا يصادر. لهذا يحفظ الداي وكبار الضباط أموالهم في بيت النساء، ولحسن طريقة للحفاظ على الأملاك، في حالة عدم وجود الأطفال، هي أن تُشترى الأملاك باسم النساء وتُسجل لفائدة الحُرس[1]. ما قام به الداي علي خوجة سنة 1817، حين نقل مقر الحكم من الجنينة إلى القصبة، لم يكن محاولة للحد من نفوذ وهيمنة الإنكشارية فحسب بل كان محاولة كذلك لتغيير المراسيم المقعدة التي كان يخضع لها الداي وكبار الموظفين. لهذا نقل حريمه إلى دار الحكم أين أعدّ غرفة خاصة له[2]. وكان الداي بابا علي قبله قد قرر يوم الثلاثاء يوم عطلة لكل الموظفين[3].

للداي مترجم، وهومن الأهالي دائما، مهمته الترجمة الشفوية الفورية. وله كاتبان أهليان كذلك، يعرف كل منهما باسم خوجة العرب، وهما مكلفان بقراءة الرسائل المحررة باللغة العربية والرد عليها. وله 12 شاوشا من الأهالي، على رأسهم مسؤول يعرف باسم الباش شاوش. من مهام هؤلاء الشواش تشكيل اللجان التي تقوم بمهام داخل مدينة الجزائر، كما يقومون بعمليات الجَلد في قصره بالنسبة للأهالي والمسيحيين. وله مسؤولان عن الطباخين، أحدهما رئيس والثاني نائب له وهما تركيان، أما الطباخون فهم من العبيد. كل من له علاقة بالحكومة يتناول وجبة الصباح في مطبخ الداي، باستثناء الحراس (النوبلجية) والعبيد الذين يتناولون كلا من وجبتي الصباح والمساء في هذا المطبخ. نجد في قصر الداي أربعين عبدا مكلفين بالنظافة وأربعة بسكريين مكلفين بالمهام الخارجية وعشرة سياس (مفردها سايس) مكلفين بالخيول والبغل وسجانا من الأهالي وثلاثة وعشرين من جنود

1- نفسه عدد 41 ص 70 و 71.

2- جوليان. تاريخ إفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 376.

3- بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 68 و 69.

الحاميات (النوبات) يكونون من الاتراك لا من الكراغلة، يتم اختيارهم القصر، أخيرا، رئيس الموسيقيين وهوالذي يعرف باسم المهتر باشي[1].

حول مداخيل الداي، يقول المؤرخ الفرنسي جوليان: "ليس للدايات سوى ما يتفاضله أعلى الإنكشارية مرتبة وذلك احتراما لفكرة المساواة النظرية، غير أن ما يدفعه لهم الموظفون وخاصة البايات عند تسميتهم وهدايا القناصل والملوك ونصيبهم من الغنائم وأرباحهم من ثروته وهي طائلة في أغلب الأحيان إلى الخزينة العامة"[2]. لقد كان الداي "رجلا ثريا لا يتصرف في كنوزه وأبا بدون أولاد وزوجا بلا زوجة وطاغية غير حر وملكا لعبيد وعبدا لرعايله"، كما يقول المؤرخ الإسباني خوان كنو[3].

الحكومة:

يترأس الداي الحكومة أوالديوان الصغير، ويعين أعضاءها ويعزلهم. تتكون الحكومة حسب ما أورده باراني، من العناصر التالية:

1. الخزناجي : وهوبمثابة الوزير الأول، مكلف بالخزينة وهوالوحيد الذي يدخلها بعد أن يستلم المفاتيح من الداي. وللخزناجي أهمية كبرى في النظام التركي، لأن هذا النظام قائم على جمع المال وتوزيعه فقط، خاصة بعد خروج الإسبان من وهران والمرسى الكبير.

2. الحلة أغاسي أوآغا العرب (الباشاغا)، وهوالوزير الثاني، يقود القوات البرية، ويدير دار السلطان، باستثناء مدنها الكبيرة.

---

[1]- نفسه عدد 40 ص 273 و274.

[2]- جوليان. إفريقيا الشمالية. المرجع السابق ص 375.

[3]- انظر : نفسه ص 376.

3. آب خوجاسي أوخوجة الخيل (كاتب الخيل)، وهومكلف بمداخيل الولايات من أراضي البايليك ومن بيع الخيول والبغل والجمل والأغنام والأبقار التي يحصل عليها البايليك من الجباية العينية وغيرها.

4. البيت مالجي، المكلف بجمع التركات التي لا وارث لها، وهومكلف كذلك بثياب عبيد الداي، ويشترط في البيت ملجي أن يكون أعزبا.

5. وكيل الحرج، وهومكلف بمسائل البحرية، أم قيادة الأسطول فهي موكلة لأحد رياس البحر يعرف باسم القبطان.

6. الكتاب، وهم أربعة: الأول، ويسمى المكطعجي وهومكلف بدور أوتكنات اليولداش والعسكر، وكل أملاك وعوائد البايليك، الثاني، وهوالمسمى باش دفترجي، يمسك النسخة الثانية من سجل الفرق العسكرية، الثالث، وهوالذي يمسك النسخة الثانية من دفتر أملاك وعائدات البايليك الرابع، ويسمى خوجة العشور، مكلف بسجل الديوانة الخاص بكل ما يأتي من البلاد المسيحية.

7. وكيل الحرج الكبير، مكلف باستلام وخزن زيت البايليك وله مساعد يعرف باسم وكيل الحرج الصغير.

المتمعن في تركيبة هذه الحكومة يجد أنها حكومة تنحصر مهمتها في جمع المال والحربية. فالشؤون الخيرية أوالخدمات الاجتماعية والثقافية والتربوية والاقتصادية ليست من مهام السلطة، فالمجتمع هوالذي ينظم هذه الشؤون بنفسه.

الديوان:

نفرق هنا بين الديوان الكبير وديوان الإنكشارية، فهذا الأخير يتكون من ضباط الإنكشارية مثل جموع البولكباشي وجموع الأوضة باشي وغيرهم. وقد لعب هذا الديوان الأخير دورا كبيرا في توجيه

سياسة البلاد في عهد الباشوات إلى أن أصبح هوالقوة الفاعلة الرئيسية في أواخر هذا العهد. ثم غدا مباشرا للسلطة بنفسه في عهد الآغوات. لقد حاول خضر باشا أن يحد من سلطته سنة 1595 لكنه لم يفلح في ذلك. في عهد الدايات تعرض هذا الديوان لضربات عديدة أعنفها تلك التي وجهها له علي خوجة سنة 1817. في الوقت الذي كان يفقد فيه هذا الديوان نفوذه كان دور الحكومة أوالديوان الأصغر يتقوى إلى أن أصبح هوالسلطة الحقيقية شكلا.

الديوان الأكبر مجلس واسع جدا يضم حوالي سبعمائة عضو أغلبيتهم من العسكر[1] والبقية هم أعضاء الحكومة وشواش الداي والعلماء والوجهاء ونقيب الأشراف وضباط البحرية وغيرهم. كان الديوان هذا يلعب دورا هاما في البداية عند الدايات غير أن هذا الدور أخذ يتراجع إلى أن أصبح، في أواخر العهد التركي يقتصر على تقديم المشورة للهيئة التنفيذية والمصادقة على اختيار الداي.

المنظومة الإدارية

الإدارة الإقليمية:

يعود التقسيم الإداري الإقليمي، الذي ظل قائما، دون تغيير جوهري إلى نهاية العهد التركي، إلى عهد حسن باشا بن خير الدين، الذي قسم البلاد إلى أربع مقاطعات هي دار السلطان وبايليكات التيطري، قسنطينة والغرب.

روعي في إقامة دار السلطان العامل الجغرافي، فهذه المقاطعة تضم المنطقة السهلية، المتيجة والساحل، الواقعة بين البحر والأطلس التلي،

---

[1] -Mahfoud KADDACHE. L'Algérie durant la période ottomane O.P.U Alger 1992 p 93.

(محفوظ قداش. الجزائر خلال العهد العثماني. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1992 ص 93)

والعامل السياسي المتمثل في ضمان أمن السلطة المركزية في مدينة الجزائر. إذا كان بايليك الشرق وبايليك الغرب قد فرضتهما الحاجة الإدارية ولهما وحدة إدارية منذ العهدين الحفصي والزياني، باعتبار الأول تابعا للإدارة الحفصية والثاني كان تابعا للإدارة الزيانية، فإن بايليك التيطري الضيق قد فرضته المسألة الأمنية، فهوالدرع الواقي لدار السلطان من أخطار حركات قبائل الجنوب دائمة التهديد للشمال. لهذا وضع بايليك التيطري نظام خاص، فصلت بموجبه مدينة المدية، عاصمته، عن باقي الإقليم ووضعت تحت سلطة حاكم لا يتبع الباي بل يتبع مدينةالجزائر.

دار السلطان هي أصغر المقاطعات وأكثرها تميزا. إنها مقاطعة تابعة مباشرة للسلطة المركزية، في مدينة الجزائر. تضم جغرافيا المدن الخمس الهامة الجزائر البليدة، القليعة، شرشال ودلس وأوطانها، وهي تخضع في تسييرها لقادة أتراك خارج هذا الإقليم نجد عددا من القبائل تتبع الجزائر رغم وقوعها جغرافيا في باقي المقاطعات. لقد وضعت هذه القبائل تحت إدارة آغا العرب أوخوجة الخيل، وهي إما قبائل محاربة (أجواد) أوقبائل تابعة أوحليفة[1]، الأمر هنا يتعلق بقبائل في بايليك التيطري وبايليك الغرب بصفة خاصة.

يقود المحلة أغاسي (الباشاغا أوآغا العرب أوالآغا ببساطة) وهوالقائد العام للقوات البرية، بما فيها الإنكشارية، الحملات العسكرية الاستثنائية، فيصبح البايات، في هذه الحالة تحت إمرته. هذا الآغا هوالمكلف بإدارة ريف دار السلطان، لكن إدارته وسلطته لا تمتد إلا إلى الأهالي، فالأتراك والكراغلة لا يخضعون له، لكنه في إمكانه أن يرسل أحدهم إلى الداي ليصدر عقوبة في حقه[2]. آغا العرب هووحده الذي

---

[1]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 134.

[2]- بارادي المرجع السابق عدد 40 ص 58.

يقرر عقوبة الإعدام في حق الأهالي، لكن صلاحية تقرير هذه العقوبة أسندت بصفة استثنائية لقائد سباووقائد السبت كذلك. كل القادة في دار السلطان يتبعون آغا العرب باستثناء قائد مدينة البليدة أوحاكمها[1].

تخضع البايليكات الثلاثة لموظفين مستقلين عن الآغا من الناحية الإدارية. على رأس كل بايليك باي يعنيه الداي لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، إن لم يتخل عنه قبل انقضاء المدة المقررة. ما الباي سوى أكار، يأخذ على عاتقه أويتكفل بإدارة المقاطعة وهويتمتع بصلاحيات واسعة، ولا يخضع لأية مراقبة منظمة، ماعدا باي التيطري الذي يراقبه حاكم مدينة المدية، المكلف بإدارة المدينة. لكي يُعاد تعيين الباي مرة أخرى لابد عليه أن يرضي الداي وحاشيته من الوزراء والمحظوظين بالهدايا، وهذه الهدايا ضرورية للتعيين في الوظائف الإدارية في السلطة التركية. حتى الباشوات كانوا يقدمونها للسلطان بصفة مباشرة، كما كان الدايات يدفعونها بطريقة غير مباشرة.

في كل ثلاث سنوات يأتي البايات وجوبا إلى مدينة الجزائر بصفة شخصية. يأتي باي التيطري ثم باي الغرب ثم باي قسنطينة. ويأتي خلفاء البايات إلى العاصمة كل ستة أشهر. يأتي هؤلاء جميعا إلى الجزائر لتقديم الدنوش باي معسكر سنة 1788، نلخصه نحن في التالي : حمل باي معسكر الضريبة على ظهر ستين بغلا، كل بغل يحمل ألفي بياستر، وكانت البغال مرفوقة بالخيول التي منها ما يقدم للبايليك ومنها ما يقدم هدايا لكبار الإيالة. كان يتقدم البغال والخيول عدد من العبيد الزنوج (ذكور وإناث) يتراوح عددهم بين 30 و40 عبدا، وهم هدايا لكبار رجال الإيالة كذلك، و80 عبدا مسيحيا من وهران، 60 منهم للبايليك و20 هدايا لكبار الشخصيات. كان الباي، وهوفي طريقه إلى قصر الداي،

[1] -C.TRUMELET.Boufarik. Adolphe Jourdan. Alger 1887 p 4 et 10.
(س. ترومیلي. بوفاريك. أدولف جوردان الجزائر 1887 ص 4 و10)

يلقي بالنقود على السكان الذين كانوا ينتظرون قدومه. يُقبّل الباي يد الداي، ويرحب به هذا الأخير ويلبسه قفطانا، وبعد ثلاثة أيام يلبسه قفطانا آخر. يقضي الباي ثمانية أيام في الجزائر[1]. يغادرها بعد أن يقدم الهدايا والضرائب.

لقد وصف والزين استرهازي دنوش باي وهران، نسجل هنا ما يتعلق منه بالهدايا. يقول استرهازي: "في يوم الوصول يأتي أوضة باشية وبولكباشية نوبات (حاميات) القصبة ودار الباشا (لم تكن الخزينة قد نُقلت بعد إلى القصبة) وشواش الباشا وأصحاب المقام لزيارته خلال الليل. يدخل البولكباشية البهو الذي يجلس فيه الباي رفقة خوجاته وإمامه وقائد مكحاليته. يبقى الأوضة باشية والشواش في الخارج. بعد تقديم التحيات المعهودة من طرف بولكباشيين اثنيين يدخل أحد الشواش فينحني أمام الباي ثم يفرش سجادا (فوطة). عندها يقدم الباي أحد العبيد يحمل خمسة أكياس مملوءة بالسلطاني، ويأخذ في إفراغ الكيستلوالآخر على الفوطة قائلا : لسيدنا الباشا، ليسيدنا الخزنلجي الخ، كيس واحد لكل عضومن أعضاء الديوان، ثم يأخذ السجاد ليعوضه بآخر. نفس الإكرام يتجدد بالنسبة للآغوات والبولكباشية، بالنسبة للكبجية حكام الثكنات، بالنسبة لأئمة السراي، بالنسبة للخوجات الخ. يأتي بعد ذلك دور خدماجية الباشا : كل موظفي داره من البوابين والحلاقين وسقاة الماء الخ، كل هؤلاء الناس يأتون ليطلبوا العوائد أوالهدايا الإجبارية. حين ينتهي التوزيع يُستقبل الباي الحامل للدنوش من طرف الباشا.ينتظره المزورعند الباب ليجرده من يطغانه الذهبي (سيفه) ويستلم منحة سلطاني عندما يعيده إليه عند خروجه. بعد ذلك يذهب الباي لز يارة البحرية فيقدم هدايا لكل موظفي وعمال هذه المؤسسة. إنها هدايا اختيارية هذه المرة، وهذه المرة فقط"[2].

---

[1]- بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 103.

[2]- انظر : كداش المرجع السابق ص 147-148.

نفس ما يقوم به باي الغرب يقوم به باي قسنطينة وباي التيطري. هذا الأخير يغادر المدية، حين يأتي عام الدنوش، في شهر أفريل متجها نحو مدينة الجزائر متبوعا بشواشه وصبايحيته ومكلحليته وعلامته وموسيقاه. يصل إلى البليدة في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني يصل عين الربط، القريبة من مدينة الجزائر، وفي اليوم الثالث، بعد أن يصله أمر الداي، يدخل مدينة الجزائر، وهويلقي بالنقود على الجمهور الذي جاء ليشاهد مرور موكبه. يصطحب الباي 20 حصانا و60 ألف بوجو(108 ألاف فرنك) ليسلمها للخزينة ومبلغا مماثلا كعوائد (هدايا) يوزعها على أصحاب المقام السامي والموظفين من الدرجة الثانية وعلى كل خدم الداي، بمن فيهم الحلاق. تبلغ هدية الباشا ثمانية آلاف فرنك. مقابل هذه الهدايا يستلم الباي، كدليل على توليته من جديد، يطغانا مذهّبا وقفطانا مطرزا بالذهب يلبسه خلال تواجده في الجزائر. قبل عودته يعيد هذا القفطان وتُعطى له قندورة. خلال الأسبوع الذي يقضيه في العاصمة، يحل كل يوم ضيفا على أحد كبار المسؤولين من أمثال الخزناجي والآغا وخوجة الخيل ووكيل الحرج[1].

كل باي يرسل خليفته إلى الجزائر مرتين في السنة. يأتي خليفة باي التيطري إلى هذه المدينة في أفريل، وفي نهاية الخريف. يبقى بها مدة أسبوع، مثل الباي، يستلم يطغانا من الفضة. يحمل إلى العاصمة 24 ألف بوجو. في دنوش الربيع يُحضر كل من الباي والخليفة 80 قلة (جروتحمل 480 رطلا) من الزبدة المذوبة لموظفي الدولة، كما يرسل الباي كل سنة خمسمائة خروف إلى العاصمة، ويرسل كل ثلاثة أشهر مبلغ 2100 بوجومع سياره (صاحب البريد) هذا عدا الضرائب الأخرى التي لها طابع مركزي[2]، كما سنرى لاحقا.

---

[1]- فيدرمان وأوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 290 و291.

[2]- نفسه.

الإدارة المحلية:

كانت الإدارة التركية على المستوى المحلي بسيطة. تناسب وضعية المجتمع فالمدينة لها إدارتها والقبائل لها إدارتها والمناطق التي تجاوزت نظام القبيلة لها إداردتها. تقوم الإدارة المحلية، مثل الإدارة الإقليمية على ركيزتين هما؛ ضمان دخول الضريبة إلى الخزينة؛ وضمان خضوع الرعية للسلطة المركزية.

دار السلطان:

كانت دار السلطان تتكون، في أواخر العهد التركي؛ من مدن هامة هي الجزائر، البليدة، القليعة، شرشال، دلس وتنس (هذه الأخيرة كانت تتبع بايليك الغرب من قبل)، ومن الفحص أوضاحية مدينة الجزائر ومن عدد من الأوطان والقيادات.

1. مدينة الجزائر:

كانت مدينة الجزائر أكبر المدن الجزائرية، في العهد التركي. تضم أكبر عدد من السكان، وهي أكثر المدن تطورا وازدهارا. فهي تحتوي على أكبر ميناء للقرصنة، وهي عاصمة البلاد، تأتي إليها الضرائب من كل الجهات، كما يأتي إليها الجزء الأكبر من غنائم البحر والبر. فيها أكبر عدد من الأتراك وأكبر عدد من البحارة والإنكشارية وهي أكثر المدن تنوعا من حيث السكان، حيث يأتي إليها الناس من كل جهات البلاد. كان للأندلسيين تأثير كبير عليها. يقول حمدان خوجة : "وقد ساعد الأندلسيين في الجزائر مساعدة كبيرة على تنظيم الحكومة". كان على رأس مدينة الجزائر "شيخ المدينة يساعده مجلس بلدي. ومن اختصاصاته المحافظة على الأمن والنظافة والعمل على توفير كل ما من شأنه أن ينفع المدينة. كما كان مكلفا بجمع الضرائب، وكانت في ذلك الوقت تُفرض

علـى الحوانيـت، فيـدفع كـل حـانوت شـهريا حـوالي سـتة "سوردي" من سوارد فرنسا"[1].

كان يعمل تحت إشراف شيخ البلد أوشيخ المدينـة أمنـاء الحـرف المختلفة وكانوا يعملون جميعا بالتنسيق مع نقيب الأشراف الـذي تعينـه السلطة التركية من إحدى العائلات المرابطية[2]. وأما شيخ البلـد فكـان يُعين دائما من بين العرب[3]. كانـت صـلاحيات شيخ البلـد محـدودة في الحقيقة، فهي تقتصر على بعض الخدمات الموجهـة للحـضر، فالأشـغال العمومية مثلا لم تكن كلها من مهامه. كانـت هنـاك عقـارات مداخيلـها موقوفة على صيانة طريق أوأكثر، وعقارات أخرى مداخيلها موقوفة على طرق أخرى، وكان هناك أمناء مكلفون بتسيير تلـك العقـارات والطـرق وكان للقنوات وكل ما يتعلق بالماء إدارة خاصة يـسيرها مـسؤول يعـرف باسم قائد العيون. وكانت هذه الإدارة تشكل نوعا من الجمعيـة. كانـت هناك عقارات مداخيلها مخصصة للماء لا يديرها قائد العيون، بل يديرها شيخ البلد أحيانا، ويديرها أحيانا أخرى وكلاء مكلفون بإدارة العقـارات الموقوفة تحديدا على حنفيات معينة، أوترع الماء[4].

لما كانت الأموال المحصلة مـن الـضرائب لا تعـود علـى الـسكان أبدا، لا في شكل خدمات ولا في شكل إعانات، فـإن المجتمـع كـان يـنظم نفسه لمواجهة حاجياته. كان هذا التنظيم يأخذ شكل جمعيات متنوعة. كان لمدينة الجزائر سنة 1830 حوالي سبع جمعيات هي جمعيات الطرق والميـاه

---

[1]- حمدان. المرجع السابق ص 109.

[2]- حميدة عميراوي. دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840). دار البعث قسنطينة 1987 ص 68.

[3]- سعد الله محاضرات المرجع السابق ص 54.

[4]- AUMERAT. La propriété urbaine à Alger. Revue Africaine N°41. (أوميرات. الملكية الحضرية في مدينة الجزائر. المجلة الإفريقية عدد 41 (1897) ص 330.

والمساجد ومكة والمدينة وجوامع، أوقباب المرابطين والأندلسيين والانكشارية.

بالنسبة للمساجد التي بلغ عددها حوالي 103 (14 منها كانت مساجد حنفية والبقية مساجد مالكية)، كانت تسيرها جمعيتان؛ واحدة حنفية وأخرى مالكية والجمعيتان تملكان عقارات عديدة داخل المدينة وخارجها، مداخيلها موقوفة على تلك المساجد، يسيرها المفتون والوكلاء. أما جمعية مكة والمدينة فكانت لها أملاكها المختلفة: - الأملاك التي تُستعمل مداخيلها في مساعدة الفقراء الذين يستفيدون من النقود والخبز - الأملاك التي تُستعمل مداخيلها في صيانة الصروح الدينية في مكة والمدينة. وتُرسل هذه المداخيل إلى مكة والمدينة كل سنة - الأملاك التي توجه مداخيلها لصيانة الصروح الدينية في مدينة الجزائر. بالنسبة لجمعيات جوامع أوقباب المرابطين أوبعبارة أخرى أضرحة المرابطين أوالأولياء فإن مداخيلها الناتجة عن العقارات الموقوفة عليها أوالهبات النقدية تستعمل في صيانة الأضرحة، وتوفير أسباب العيش للوكلاء والطلبة[1].

لقد تضامن الأندلسيون فيما بينهم، منذ نزوحهم من إسبانيا إلى مدينة الجزائر. اشترى أغنياؤهم عقارات كثيرة أوقفوا مداخيلها على مساعدة فقرائهم وكانت هذه الأملاك مُسيرة من طرف وكيل أندلسي[2].

كان سكان مدينة الجزائر مُنَظمين في طوائف إثنية أوجهوية أودينية. من بين هذه الطوائف نذكر البراني وبني ميزاب واليهود. مع العلم أن هذه الطوائف غالبا ما تنطبق على الطوائف المهنية أوالحرفية. فالطائفة تكون إثنية وحرفية في الوقت نفسه.

1- نفسه ص 326- 328 .

2- نفسه ص 329.

البراني جماعات من الأهالي حديثي الإقامة في مدينة الجزائر، مقارنة بالحضر. يأتون إلى المدينة بحثا عن العمل. نجد فيهم الأغواطيين، البسكريين، قبائل مزيتة الخ. نظمهم الأتراك في مجموعات يسيرها أمناء مسؤولون أمام البايليك، وبهذه الطريقة أمكن للسلطة التركية مراقبتهم وتسييرهم. الملفت للانتباه أن السلطة التركية رفضت تنظيم الوافدين من منطقة القبائل، باستثناء من جاء منهم من مزيتة. هذا يعني أنها رفضت الاعتراف بوجودهم في المدينة، وكان هؤلاء يعملون حمالين ويمارسون مهنة الكيل والميزان في الرحبة (السوق)[1].

كان بنوميزاب يشكلون مجموعة منعزلة. يملكون كل المطاحن والمخابز والحمامات العامة في مدينة الجزائر. كما كانوا يحتكرون بيع اللحوم، ويتمتعون بامتيازات مقارنة بالأهالي[2]. في رسالة مؤرخة سنة 1835، أرسلها وجهاء بني ميزاب في مدينة الجزائر إلى الجنرال الفرنسي رابتل، أوضحوا أن امتيازاتهم تعود إلى عهد حسن آغا، الذي كافأ الطائفة لخدمات قدمتها أثناء حملة شارل كان على مدينة الجزائر سنة 1541، كما تتعرض الرسالة إلى مهام الأمين، أمين الطائفة، الذي هووحده المكلف بالشرطة أمام السلطة[3]. لاشك في أن الرواية الواردة في الرسالة والمتعلقة بحملة شارل كان تبدوغريبة، ولعل حمدان خوجة محق حين أعاد امتيازات طائفة بني ميزاب إلى خدمات قدمها هؤلاء للسلطة سنة 1630، حين كانت هذه السلطة تواجه تمرد الكراغلة[4]، التمرد الذي تعرضنا له سابقا.

---

[1] René LESPES. Quelques documents sur la corporation des Mozabites d'Alger dans les premiers temps de la conquête (1830-1838). Revue Africaine N° 66 (1925) p 197.

(روني ليسبيس بعض الوثائق حول طائفة مزابيي مدينة الجزائر في أوائل الغزو (1830-1838) المجلة الإفريقية عدد 66 (1925) ص 197.

[2] - بارادي المرجع السابق عدد 39 ص 278.

[3] - انظر الرسالة في : ليسبيس المرجع السابق ص 199.

[4] - حمدان المرجع السابق ص 154.

كان بنوميزاب في مدينة الجزائر ينتمون إلى قبائل واحات غرداية ومليكة وبونوار والعطف وبني يزغن. كان لكل جماعة مقدمها، أما الرئيس أوالأمين، الذي يمثل كل المزابيين فكان دائما من غرداية، ولا يوليه البايليك هذه المسؤولية إلاّ مقابل هدايا معتبرة، تقدم للداي وللمسؤولين الرئيسيين. هذا يعني أن المسؤولية تُشترى شراء. يلتزم هذا الأمين بتوفير اللحم للإنكشارية وإعارة دواب النقل الضرورية للأشغال الحكومية، وفي المقابل يستلم من مواطنيه ضرائب ورسوما تتمثل في: – الأجرة وهي 400 بوجو (البوجوحوالي 1.85 فرنك) تُقدم له من رعايله في شهر رمضان – حق الصباط، وهوضريبة على الحوانيت والمطاحن والحمامات والقصّابات ويدفعها قادة الحمير كذلك. هذا إضافة إلى الغرامات التي يفرضها على مواطنيه المخالفين للقوانين. مقابل هذه الحقوق يلتزم الأمين بإيواء وإطعام المزابيين الذين يمرون بمدينة الجزائر لعدة أيام، وكذلك الشأن بالنسبة للذين يأتون للإقامة الدائمة في المدينة. كان لطائفة بني ميزاب أهمية كبيرة بالنسبة للسلطة التركية، لأن أفرادها كانوا تجارا لهم علاقات واسعة بالجنوب وبلاد السودان. فكانوا أحسن العناصر التي تجمع المعلومات وتقدمها لها[1].

يخضع اليهود في مدينة الجزائر، وهومن أهل الذمة وأجانب كذلك، إلى نفس النظام الطائفي لبني ميزاب تقريبا. تختار الطائفة أمينها الذي يعرف باسم القسيس، ويصادق الباشا على الاختيار. يتكفل المجمع الديني اليهودي بجمع الضرائب من الطائفة ليقدمها إلى البايليك. لقد أورد هايدوأن الطائفة اليهودية كانت تدفع الباشا، في أواخر القرن السادس عشر، 1500 دوبلة (2475 فرنك) سنويا وأن المجمع الديني كان يوزع هذا المبلغ على أفراد الطائفة من دون تدخل السلطة. كان لليهود دور هام في مدينة الجزائر، لا يقل عن دور بني ميزاب، فهم الذين

---

[1]- ليسبيس المرجع السابق ص 199 – 202.

يشترون غنائم القرصنة فيعيدون بيعها للمسيحيين، محققين بذلك أرباحا طائلة، وهم الذين يحتكرون ضرب النقود الذهبية والفضية والبرونزية. كان لهم الحق في ممارسة عباداتهم، ولهم معبدان في حييهم، يجتمعون فيهما يوم السبت، ولهم الحق في تعلم العبرية التي كانوا يكتبونها بالحروف العربية[1].

كان لمدينة الجزائر نظام للشرطة. هناك ضابط للشرطة يعرف باسم جراح باشي، وهوإما كرغلي وإما تركي ينظر في كل الخصومات التي تقع بين الأتراك والأهالي واليهود المسيحيين. وهوغالبا ما يغتني بسرعة نتيجة الرشاوى التي يحصل عليها. في الليل يقود ضابط تركي يعرف باسم كلجي باشي الدورية الليلية. له الحق في أن يجلد الأهالي واليهود في وسط المدينة، كما يمكنه أن يوقف ويعاقب كل تجمع باستثناء تجمعات الاحتفالات. لا يمكن لهذا الضابط أن يسلط عقوبة على الأتراك. هناك دورية ليلية أخرى يقودها المزور، وهومن الأهالي، ودوريته تتعلق بهم. يمكنه أن يوقف من ارتكب مخالفات أووُجد بعد صلاة العشاء بدون مصباح. المزور مكلف بالعاهرات كذلك، يفتشهن ويدفعن له مبلغا من المال في كل شهر قمري حتى يسمح لهن بالقيام بعملهن لدى الأهالي أوالأتراك أما إذا ارتبطن بالأتراك فقط فيمكن إعفاؤهن من دفع المبلغ. إذا وُجدت امرأة مسلمة مع مسيحي فإن المزور يحكم عليها بالإعدام شنقا. يقوم قائد الزواوة بدورية أخرى عند الفجر. هذا وكان في مدينة الجزائر مسؤول يعرف باسم قائد الزوبية، وهوتركي مكلف بمراقبة نظافة الشوارع والطرق[2].

---

[1]- Don Diego de HAEDO. Topographie et histoire générale d'Alger. Revue Africaine Nc 15 (1871) p 91.

(دون ديغودوهايدوطبوغرافية وتاريخ مدينة الجزائر العام. المجلة الإفريقية عدد 15 (1871) ص 91).

[2]- بارادي المرجع السابق عدد 41 ص 108 – 110.

2. وطن الفحص:

يحيط هذا الوطن أوالدائرة الإدارية بمدينة الجزائر ويتكون من سبعة فحوص أومناطق هي: زواوة، بوزريعة، بني مسوس، عين الزبوجة، بير خادم، القبة والحامة[1]. هذا الوطن لا يتكون من قبائل كما هوالشأن في الأرياف بل يضم جماعات إدارية موزعة على الفحوص والأحياء التي تتكون من عدد من الأحواش أوبيوت النزهة، أومزارع أوكفر للناس الفقراء. الكثير من الأحواش كانت بيد عائلات الإنكشارية ومنها ما كان بين أيدي مرابطين صغار، كانوا يتدخلون لدى السلطة التركية[2]. كان وطن الفحص من أحسن المناطق الريفية تطورا ورخاء، ولقد أبدى الأوربيون "إعجابهم بتلك المنازل الريفية التي كانت تنتشر على المنحدرات المواجهة للبحر بفحص باب عزون، أوبأعالي بوزريعة وهضلب الأبيار ومصطفى والقبة أومنعرجات أودية بئر خادم وبير مراد رايس أوبجهات دالي إبراهيم وتقصرين"[3]. وكما هوالشأن بالنسبة لأرياف دار السلطان، فإن الفحص كان يخضع لأغا العرب وينوب عنه قائد يعاونه المقاتلون المعروفون باسم شرطة الأعياد[4]. هذا ونجد في الفحص عناصر بشرية متنوعة، مثل الأتراك الكراغلة، الحضر، الأوربيين واليهود وعمالا من القبائليين. لذا فإن وطن الفحص هوامتداد لمدينة الجزائر من الناحية البشرية ومن الناحية الحضرية.

3. وطن بني خليل:

يشمل هذا الوطن ساحل الجزائر والمتيجة، بين الحراش وواد تيحميمين في الشرق ومزافران والشفة في الغرب. إضافة إلى تلك

---

[1]- رين. مملكة مدينة الجزائر في عهد الداي الأخير. المرجع السابق عدد 41 ص 146.

[2]- نفسه ص 135.

[3]- سعيدوني. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 144.

[4]- نفسه ص 147.

الجماعات التي كانت تقطن هذه المنطقة، أقام الأتراك في القرن السابع عشر ست جماعات أخرى هي زمامة، سيدي موسى، بني كينة، روسة،تفشة وبوينام[1]. في هذا الوطن نجد مجموعة من الأحواش : بابا علي، الشرفة، الشاوش، غيلان، المعصومة، ابن الشريف، سركلجي، ابن عيسى، الغربة، الخ. في هذا الوطن تقع بوفاريك والبليدة، وفي هذه الأخيرة لا تتبع الوطن إلاّ جغرافيا، إذ كانت تخضع من الناحية الإدارية لحاكم[2]. وكان قائد هذا الوطن هوأكبر قائد بين قادة الأوطان[3].

4. وطن السبت:

يقع وطن وادي السبت بين البحر ومزافران والشفة ووادي مراد ووادي الناضور، غربا، والجبل جنوبا. يتكون من خمس جماعات، أربع منها من الرعية هي : أولاد حميدان، بني علال، الزنانخة، حجوط الساحلية، حجوط اللواطة، وتشكل هذه الجماعة الأخيرة مخزنا[4].

5. وطن بني موسى:

يقع بين الخندق في الشمال والحراش في الغرب وبني سليمان في الجنوب ووادي سمار في الشرق. يضم سبع جماعات في السهل هي شرابة، الحميرات، أولاد سلامة، المرابع الشراقة، المرابع الغرابة، أولاد أحمد وبني وغلي، وسبع جماعات في الجبل هي بني عطية، شغيو، بني خشريط، بني محمد، بني عزون، بني تاشفين وبني جليل[5].

1- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 140.

2- تروميلي. المرجع السابق. ص 9 و10.

3- مذكرات الزهار. المرجع السابق. ص 48.

4- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 147.

5- نفسه ص 148.

6. وطن الخشنة :

يقع بين البحر ومصب الحراش في مرسى الحلجز ووادي مرجة ويسر في الشرق، ووادي سمار في الجنوب. في هذا الوطن نجد خشنة السهل (هراوة، أولاد هداج، المرجة، أولاد بسام، أولاد ساعد، شعر بن جنان، زراولة، أولاد أيوب، المساردة، بن عكنون، تالة أوالقصر، بن زاية، مصيورة، بني مستينة) وخشنة الجبل (بني عيشة، بني عمران، دبارة، بوتقوبة، بني خليفة)[1].

7. وطن اليسر :

ويضم الدروج، يسر جديان، يسر الغربي، يسر أولاد سمير، أولاد موسى، تورة والكدين[2].

8. وطن سباو(قيادة سباو) :

ظلت قيادة سباوتابعة لبايليك التيطري إلى سنة 1769، فبعد تمرد فليسة في هذه السنة نُقلت إدارة سباوإلى دار السلطان. وكانت تضم بني خلفون، فليسة أم الليل، بني طور، مدينة دلس، وادي الحمام، بني عيسى، بني دوالة، بني زمنزر، بني بطرونة، بني خليفة، وجزء من المعاتقة -كما رأينا سابق-. وكانت بوغني تتبع قيادة سباو. كما كان قائد سباو "هوالذي يسمي" قائد يسر إلا أن الآغا" هوالذي يتصرف فيه" [3].

كل وطن من هذه الأوطان كان يسيره قائد تركي، وكل منطقة أوجماعة يسيرها شيخ، وفي بعض المناطق أوالجماعات الكبيرة نجد لكل شيخ شيوخا، وكل هؤلاء القادة يتبعون آغا العرب[4].

---

[1]- نفسه ص 148 و149.

[2]- نفسه ص 149 و150.

[3]- مذكرات الزهار. المرجع السابق. ص 48.

[4]- تروميلي. المرجع السابق. ص 10.

آخر آغا العرب أدركته الحملة الفرنسية هوالآغا إبراهيم إذا استثنينا الفترة القصيرة التي كلف فيها باي التيطري مصطفى بومزراق. لقد عين الفرنسيون بدورهم آغا آخر هوحمدان بوالركايب، ثم خلعوه ووضعوا مكانه الفرنسي موديري في فيفري 1831[1].

كانت هناك جماعات أخرى في دار السلطان تدخل في عداد قبائل المخزن العسكرية التي لها إدارة خاصة تختلف عن إدارة قبائل الرعية، مثل حجوط اللواطة، أوحجوط السهل، وهم خليط من الأجواد والمغامرين وأصحاب الإقطاعات والمزارعين والخدم المنزلي وكبار ضباط الداي، وهم موزعون في وطني السبت وبني خليل وسوماطة وبوحلوان وموزاية. ومخزن الزواتنة (كراغلة) في يسر وزمول بني هارون وحرشاوة وعبيد أقبووشعبة العامر (يسر)، وزمالة عين الزاوية (غشتولة) واينزليون، وقبيلة بني سليمان الصبايحية التي ضُم إليها أتباع زاوية طورطاتين الخ[2]. من بين قبائل المخزن الوافدة على دار السلطان نذكر عريب التي أقامها الأتراك في المنطقة.

كانت هناك جماعات أخرى في دار السلطان، تدخل في عداد الحلفاء أوالأتباع حسب تصنيف لويس رين، مثل منطقة نفوذ أولاد سيدي علي مبارك في القليعة ولأولاد سيدي علي مبارك المرابطين نفوذ في أوطان الفحص والسبت وبني خليل. وبنومناد المتيجة وبنومريت ومنطقة نفوذ زاوية طورطاتين التي كان يسيطر عليها أولاد محي الدين ولد سيدي تواتي، ومنطقة نفوذ زاوية سيدي سالم ومرابطوها هوسادة القبيلة الكبيرة بني جعد، والقبيلة الكبيرة إيفليسن أم الليل (فليسة)، التي كانت تحت القيادة الوراثية لأولاد بن زعموم منذ 1769[3]. ومعلوم أن ابن عيسى البركاني خليفة الأمير عبد القادر كان أحد مرابطي زاوية سيدي سالم.

1- نفسه ص 16 و17.

2- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 142 - 145.

3- نفسه ص 152 و331.

من الجماعات الحليفة للأتراك في دار السلطان نجد كذلك قبائل بني هني وآيت خلفون وآيت عزيز والقبيلة الكبيرة آيت واغنون والقبيلة الكبيرة إيفليسن البحر (فليسة البحر) وآيث غبري وقبيلة المعاتقة وقبيلة إيبترونن وآيت خالفة وزاوية بوهينون وآيث منزنزر وزاوية آيث إسماعيل الرحمانية وقبيلة آيث صدقة[1].

من القبائل المستقلة تماما عن السلطة التركية في دار السلطان، نذكر القبيلة الكبيرة آيث جناد التي لم يتمكن الأتراك من اخضاعها فسالموها منذ 1826 وأعراش إيزرفاوين وإيعزوزن وآيث تيغرين وإيجرمانن وآيث حسان وإيغيل نزكري وآيث فليك وآيث شايب وآيث خليلي وآيث فراوسن والقبيلة الكبيرة آيث إيراثن ومثيلتها إيغاواوين بشقيها آيث بترون وآيث منغلات وأعراش إيليلتن وآيث يحي وإيلولة وآيث زيكي والقبيلة الكبيرة آيث إيجر ومنطقة نفوذ مرابطي غبريني[2].

البايليكات الثلاثة :

البايليكات الثلاثة هي الشرق (قسنطينة) والغرب (وهران بعد رحيل الإسبان) والتيطري. إنها تخضع لنظام إداري واحد تقريبا.

ضم الأتراك مدينة المدية إلى سلطتهم في مدينة الجزائر منذ سنة 1517، أما بايليك التيطري فقد نظم في عهد حسن باشا بن خير الدين مثل البايليكين الآخرين. كان باي التيطري يقيم في أوائل العهد التركي في المدية تارة وفي برج سباوتارة أخرى، إلى أن استقر نهائيا في المدية. يحد هذا البايليك من الشمال الأطلس البليدي ومن الجنوب الأطلس الصحرواي ومن الغرب الشلف ومن الشرق جبل ونوغة. كان هذا البايليك أضعف البايليكات من جميع النواحي فهوأضيقها مجالا، يفتقر

1- نفسه ص 333 و335.

2- نفسه ص 335 - 339.

للأراضي الزراعية الجيدة. ولأن هذا البايليك وُجد لأسباب سياسية أكثر منها اقتصادية أوإدارية، فإن الفرنسيين ضموه إلى مقاطعة الجزائر، في تقسيمهم الإداري الأول، الذي ظل قائما أكثر من قرن من الزمن.

كان بايليك قسنطينة أوبايلك الشرق من أهم البيليكات سواء من حيث عمقه الجنوبي أومساحته أوثروته. إنه يملك أحسن أراضي الحبوب وأجود أشجار النخيل الخ. يمتد إقليمه من منطقة وادي سوف إلى البحر المتوسط ومن الحدود التونسية إلى وسط جرجرة، جبال البيبان، سيدي هجرس وسيدي عيسى. لعب هذا البايليك دورا كبيرا في مراقبة إيالة تونس وساهم في إخضاعها لنفوذ أتراك الجزائر. يختلف عن بايليك التيطري في الكثير من الجوانب، فعاصمته مثلا كانت تحت سلطة الباي منذ إنشائه وإلى غاية سقوطها بيد الاستعمار الفرنسي سنة 1837، بينما كانت المدية عاصمة لبايليك التيطري، تخضع لحاكم خاص خارج سلطة الباي.

كان بايليك الغرب يمتد من الحدود المغربية إلى الحدود التي تفصله عن دار السلطان وعن بايليك التيطري ومن سواحل البحر المتوسط إلى نواحي البيض حيث مجال النفوذ الديني والسياسي لمشيخة أولاد سيدي الشيخ. ولم يكتمل بصفة نهائية إلا بعد خروج الإسبان من منطقة وهران سنة 1792. انتقلت عاصمته من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران. كانت مدينة مازونة في أوائل القرن السادس عشر جيدة التحصين إلا أن الحروب جعلتها مدينة فقيرة إذ "كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إما نساجون أوفلاحون وجميعهم تقريبا فقراء لأن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات والأراضي الزراعية جيدة تعطي غلة حسنة"، كما يقول

الوزان[1] في أوائل القرن السادس عشر. لقد ازدهرت هذه المدينة بعد أن صارت عاصمة البايليك. كانت مدينة ثقافية مشهورة بمدرستها التي بناها الشيخ الأندلسي محمد بن الشريف منذ نهاية القرن السادس عشر. ظلت مازونة عاصمة بايليك الغرب حتى نهاية القرن السادس عشر. من أشهر البايات الذين أقاموا بها الباي ابن خديجة الذي عينه حسن آغا على الناحية الغربية بعد حمله على وهران سنة 1563. لقد عمل الباي على إقامة التنظيم الإداري في المنطقة الغربية، وبذلك كان الباي الفعلي الأول والباي السايح الذي حكم مدة 11 سنة، والباي محمد بن موسى والباي شعبان الزناقي الذي برز في إحدى الحملات على وهران وتوفي فيها (قتله المغطسون). آخر البايات هومصطفى بوالشلاغم الذي نقل مقر البايليك إلى معسكر[2]، سنة 1701. وذلك لأسباب عديدة نذكر منها أن معسكر على طريق بين قلعة بني راشد وتلمسان"، مما جعلها سوقا لمنتوجات السودان ومستودعا لبضائع فاس وملتقى لتجارة الغرب الجزائري" وهي كذلك منيعة بموقعها على منحدرات جبل بني شقران، ومن جهة أخرى، تقع منطقة زراعية تتمثل في سهل غريس[3]، لكن الأهم من كل هذه العوامل هوأن معسكر اختيرت لتحقيق الأهداف العسكرية المتمثلة في محاصرة وهران والقضاء على الوجود الإسباني فيها، كما رأينا من قبل.

حين تحررت وهران من الاسبان، في بداية القرن الثامن عشر، أمر الداي بكداش بإلحاقها ببايليك الغرب اعترافا بجميل الباي مصطفى بوالشلاغم. جعلها هذا الأخير مقرا دائما له، وظل مستقرا بها مدة ربع القرن، إلى أن استعادها منه الاسبان سنة 1732. رغم محاولات الباي

---

[1]- الوزان. الجزء الثاني. المرجع السابق ص 36.

[2]- قداش. المرجع السابق. ص 138.

[3]- سعيدوني. الجزء الأول. المرجع السابق ص 147 و148.

لاستعادتها مرات عديدة انطلاقا من معسكر، ظل الاسبان سادتها مدة حوالي ستين سنة، إلى أن استعادها الباي محمد الكبير نهائيا سنة 1792. فنقل إليها مقر البايليك ثانية، وعمل كثيرا على تدعيم السلطة التركية في الناحية الغربية حتى بلغ البايليك الغرب أقصى اتساعه في عهده.

من الناحية الطبيعية، كان بايليك الغرب أقرب إلى بايليك التيطري من بايليك الشرق باستثناء المدن والمناطق الجبلية، فإن تربية الماشية والسكن تحت الخيمة هما القاعدة فيه، كما أنه بايليك معرض للجفاف بسبب موقعه في ظل الجبال المغربية والإسبانية.

من الناحية العسكرية، كان هذا البايليك عرضة للحروب المتواصلة مع الاسبان، إذ ما انفك الاسبان يغيرون على القبائل المجاورة للمنطقة التي كانوا يحتلونها، وما انفك الأتراك يجهزون الحملات ضد هؤلاء الاسبان. كما كان هذا البايليك عرضة للحملات المغربية التوسعية التي كانت تحاول الاستيلاء عليه عامة وعلى تلمسان خاصة. ما إن انتهى خطر الاسبان والمغاربة حتى ظهرت حركات التمرد التي قادها الدرقاويون ثم التيجانيون في القرن التاسع عشر. الحركات التي خلخلت سلطة الأتراك في المنطقة. لهذا كان البايليك الغرب يقوم بتنظيم إداري أكثر عسكرية من غيره.

القوات العسكرية للبايات:

إضافة إلى جنود الحاميات التي تتواجد في المدن الهامة الموجودة في البايليكات وهؤلاء الجنود من الإنكشارية يتبعون قيادة مركزية في مدينة الجزائر، نجد في البايليكات قوات أخرى متنوعة تحت تصرف البايات، يستعملونها في القضاء على حركات التمرد وفي إجبار القبائل على دفع الضرائب. نستعرض هنا قوات باي التيطري على سبيل المثال. القوات العسكرية التي كانت تحت تصرف باي التيطري بصفة مباشرة ودائمة، هي:

1. الزبنطوط (العزاب)، في البرواقية، وهم جنود الأتراك يقودهم البلي نفسه.

2. الصبايحية، وهم فرسان، عددهم 50، يتبعون البلي في كل خرجاته أوحملاته.

3. المخازنية، وهم الخيالة الذين ينتمون لقبيلتين يُعرفون، كما في كل جهات البلاد بأسماء الدواير (مفردها الدايرة) أوالعبيد أوالزمول (مفردها الزمالة). أقامت السلطة التركية العبيد (المحررين) على جزء من إقليم الحكم الذي أصبح شاغرا بفعل انقراض الملاك القدامى، كما أقامت الدواير على الأراضي التي صادرتها من أولاد خديم، وعلى أراضي أولاد سعيد التي آلت إلى بيت الملك بالشغور، وأقامت البعض الآخر من الدواير في إقليم زغوان. يستخدم البلي فرسان المخزن في تأديب المتمردين أوفي حملاته التي يقودها بنفسه. كل جماعة مخزنية تخضع لآغا، لكن في المراحل الأخيرة من عهد السلطة التركية أصبح البلي يعين آغوين للدواير وآخرين للعبيد. ولما كانت وظيفة الآغا هامة جدا فإنها تُشترى مقابل ما يقرب من 1500 بوجو، عدا (العوايد)، وهي الهدايا التي تُقدم للبلي وحاشيته. امتيازات رؤساء المخزن، ومنها حصولهم على الغرامة، التي تُفرض على قبائل معينة، لا يأخذ منها البلي سوى الثلث أوالخمس[1].

يدخل في عداد هذه القوات القوم أومقاتلوالقبائل، خاصة القبائل الحلفية كما هوالشأن بالنسبة لقبيلة أولاد مختار. لقد لعب هؤلاء دورا هاما في بقاء السلطة التركية في جنوب بايليك التيطري.

كانت مهمة شيخ أولاد مختار تتلخص في مراقبة ومتابعة تحركات قبائل البدوالجنوبية، بواسطة الشوافة (مفردها شواف) أوالرقاصة

---

[1]- فيدرمان ولوكابيتان. المرجع السابق. ص 358 و361.

(مفردها رقاص) الذين يعرفون سطح الصحراء جيدا. يعود النجاح أوالفضل في الحملات دائما إلى شيخ أولاد مختار. ما إن يُخبر الباي من طرف هذا الشيخ بموقع القبيلة المستهدفة حتى يرسل إلى آغا الدواير وآغا العبيد للاستعداد للحرب رفقة المخازنية، كما يرسل إلى الزبنطوط لنفس الغرض. يأتي الباي من المدية مرفوقا بشواشه وصبايحيته ومكلحليته ورراياته. وقد يأتي بمدفعين صغيرين أوأكثر من البرواقية يسير إلى أم الطابور بانضمام المخزن والقوم إلى باقي الجند. ويتكون القوم من أولاد مختار ومقاتلين من قبائل أخرى. يستبدل شيخ أولاد مختار حصانه بأحد أحصنة البايليك وتنطلق الحملة التي تتكون عادة من 50 صبايحيا ومائة زبنطوط أوأكثر يمتطون البغال وعشرة مكلحلية وسبعة علالمة (الذين يحملون الرايات) ومن أربعمائة إلى خمسمائة فارس من فرسان المخزن وحوالي 150 فارسا من القوم. يكون السير ليلا في العادة، وغالبا ما تُغيّر الطريق للتشويش على كشافة العدو. يسير الشيخ مقاتلوالمخزن في المؤخرة. لا يتدخل الزبنطوط في المعركة إلا حين يعجز المخزن، أويتحصن العدوفي مكان لا تستطيع خيول المخزن الوصول إليه. بعض الغنائم الشخصية التي يستولي عليها المقاتل تصبح ملكا له مثل البندقية. الغنائم من الماعز والحمير تقسم نصفين : نصف للدواير، يشاركهم فيه الباش علام والخزناجي واباش سيار (مسؤول البريد)، النصف الآخر للعبيد، يشاركهم فيه المكلحلية ومستخدمون عسكريون آخرون. يبيع الباي الأغنام والجمال والأبقار وغيرها إلى الدواير والعبيد الذين يعيدون بيعها للرعية. يستلم الزبنطوط الواحد أربعة بوجو (7.2 فرنك)، الصبايحي الواحد ستة بوجو، أما شيخ أولاد مختار فيحصل على إكرامية من أربعمائة إلى ستمائة خروف تبعا لأهمية الغنيمة[1].

---

[1]- نفسه ص 1 - 36.

موظفو البايات:

للبايات موظفـون يـساعدونهم في إدارة البايليكـات ونحـن نملـك معلومات كافية عن هؤلاء الموظفين في بايليك قـسنطينة، ولهـذا نقـدمهم هنا كنموذج، مع الإشارة إلى أن هنـاك بعـض الاختلافـات الطفيفـة بـين البايليكات. بالنسبة للموظفين الكبار نجد:

1. الخليفة: الذي يدير شؤون الأوطان أوالـدوائر الإداريـة المحليـة، تحت تصرفه القادة وكل القوات النظامية. يعمـل علـى جمـع الـضرائب وإخضاع السكان لكن مدينة قسنطينة لا تخضع له، تماما مثلما لا تخـضع مدينة الجزائر لآغا العرب.

2 قائد الدار: وهومكلف بإدارة شـرطة مدينـة قـسنطينة وبـإدارة الجزء الأكبر من الأملاك الريفيـة التابعـة للبايليـك وكـذلك العقـارات المصادرة الواقعة في المدينة. يـشرف علـى تخـزين حبـوب العـشور، وهـو قاضي كل الجنح والجرائم التي تُرتكب داخل مدينة قسنطينة وهومكلـف كذلك حتى بالتدابير المتعلقة بطرد الباي نفسه. يمكنه أن يـصدر عقوبـة الجلد أوالغرامة لكن الإعدام من شأن الباي وحده.

3. الخزندار: وهوالذي يشرف على المصالح الماليـة وعلـى الإنفـاق ويراقب جمع وتسليم الضرائب أوالجباية.

4. آغا الدايرة: وهوأحد قـادة المخـزن لـه رايـات خاصـة. يكلـف أحيانا بحملات صغيرة ضد القبائل المتهمة.

5. البـاش كاتـب: كـبير الكتـاب أوالكاتـب العـام، الـذي يحـرر الرسائل السياسية الهامة التي تخص الباي ويراقب باقي الكتاب.

6. الباش مكـاحلي: وهوقائـد الحـرس الشخـصي للبـاي، يحمـل سلاح هذا الأخير في التظاهرات العامة ويقود المكاحلية، فرسـان النخبـة الذين يشكلون الحرس الشخصي للباي.

7. الباش سراج: هوقائد عمل الحظائر. يمسك لجام حصان البـاي حين يمتطيه هذا الأخير.

8. الباش علام: قائد حاملي الرايات السبعة. يستفيد الباش عـلام من عزل وادي الزناتي. هذا ويقطن قسنطينة كـل مـن قائـد العواسـي (الحراكتة) وقائد الزمالة والباش حانبة، وهذا الأخير عُين في عهـد أحمـد باي، وهوبدون مهمة محددة، يشبه الوزير الأول، وقد عُين في هذا المنصب ابن عيسى المقرب من الباي أحمد.

هناك موظفون آخرون هم قائد الجبيرة، الذي يعتني بمحفظـة البـاي المعلقة في سرج حصانه، وقائد المقصورة أومدير القصر، والبـاش فـراش مسؤول الفراشين، وقائد الطاسة الـذي يحمـل كوكـب أثنـاء الخرجـات، والباش قهواجي، وقائـد الدريبـة أوالحاجـب الأول، وهنـاك الـشاوشان، وهما تركيان يقومان بوظيفة الجلـد حـين يخـرج البـاي يـسبقانه ليُقـدما التحية للجمهور نيابة عنه[1].

إدارة المدن:

تخضع المدن الكـبرى في البايليكـات إلى إدارة خاصـة علـى غـرار مدينة الجزائر في دار السلطان. من هذه المدن مـا لهـا حـاكم خـاص يتبـع مدينة الجزائر أوالسلطة المركزية، ومنها مـا لهـا قائـد يتبـع البـاي، مثلمـا هوالشأن بالنسبة لقسنطينة. إن هذه الأخيرة قد ظلت عاصـمة البايليـك منـذ الربـع الثـاني مـن القـرن الـسادس عـشر إلى أن سـقطت بيـد

---

[1]- فايسيت. المرجع السابق. عدد 3 ص 111-113.

الباش سيار هوقائد البريد، وهومكلف بمراسلات واتصالات الباي الشفوية بالباشا فقط، للباش سيار نفوذ كبير لدى الباي. نشير هنا أن البايات كانوا يستعملون وكلاء رسميين لهم في العاصمة مكلفين باستلام البريد وتقديمه للباشا، لكن مهمتهم الحقيقية هي التجسس على الباشـا وحاشـيته. لاطـلاع البايات على ما يجري في دواليب السلطة العليا واقتراح ما يجب تقديمـه عـن هـدايا لأعـضاء للديوان.

الفرنسيين، ولهذا فهي أحسن نموذج نقدمه عن تلك الإدارة التي خص بها الأتراك المدن الكبرى.

يقود قائد الدار مدينة قسنطينة، تحت إمرته أمنه أونقباء طوائف الحرف ومقدم أورئيس اليهود، وعدد آخر كبير من الموظفين. يوجد في قسنطينة حوالي عشرين طائفة مهنية أوحرفية، على رأس كل منها أمين مكلف بمراقبة العمل وتسوية الخلافات التي تحدث بينهم. لا أحد في استطاعته أن يمارس عملا أومهنة إلا بترخيص من الأمين. الأكثر أهمية بين هؤلاء الأمناء هما أمينا الخبازين والفضة. وهناك موظف آخر يعرف باسم قائد الباب وهووكيل يستلم حقوق الاحتكار والديوانة، ويدفع عن هذه الوظيفة مبلغا ماليا يصل إلى 20 ألف بوجو(حوالي 36 ألف فرنك)، وهناك قائد السوق وقائد الزبل المكلف بالنظافة العمومية وقائد القصبة (وهوالمزور في مدينة الجزائر) المكلف بمهمة الشرطة ومراقبة العواهر. يقوم بدوريات ليلية مرفوقا بخليفة الليل أوحارس الليل. تُعينه في تلك المهمة دورية من القبجية أوأعوان الشرطة. هناك كذلك البراح المسؤول عن الإعلان، والباش حمار أوقائد البغالين الذين يوفرون البغل للحملات ووكيل بيت المال الذي يدير التركات الشاغرة التي لا وارث لها، ويتولى مهام الدفن وصيانة المقابر[1].

إدارة الأرياف:

السكان خارج المدن منتظمون في أعراش أوقبائل يدير كلا منها قائد أوشيخ كبير يعنيه الباي. تقسم القبيلة إلى فرق (كما هوالشأن في بايليك قسنطينة) على رأس كل فرقة شيخ، والفرقة بدورها تقسم إلى دواوير، يكون العضوالأكبر سنا والأغنى فيها مسؤول الدوار. يستلم القائد الأوامر من الباي. يقوم بدور الشرطة فيوقف الأشرار ويفصل في

1- نفسه ص 113 – 114.

الخلافات والخصومات التي تقع بين رعاياه. يسهر على أمن الطرقات كما يرأس عملية توزيع الأراضي الفلاحية، إن كانت عرشا، وتوزيع الضرائب على العائلات. يجمع فرسان القبيلة (القوم) ويقودهم حين يُطلب منه ذلك[1].

يدير بايليك قسنطينة القبائل بطريقة إقطاعية. حيث يكلف الموظفون الكبار في قسنطينة بالإشراف على القبائل. يشرف قائد الدار على تسع قبائل ويشرف آغا الدائرة على 39 قبيلة ويشرف الباش كاتب على 23 قبيلة والباش مكاحلي على سبع قبائل والباش سراج على خمس قبائل، الخ[2]. عدد القادة 35، منهم 11 شيخا و20 قائدا و4 قادة يسيرون مدن تبسة وميلة وزمورة ومسيلة. نذكر من هؤلاء شيخ الحنانشة (12 قبيلة)، شيخ العرب (كل زاب بسكرة و11 قبيلة بدوية)، قائد الحراكتة أوقائد العواسي الذي يقيم في بلاط صغير في قسنطينة (32 قبيلة، أغلبها من قبائل الشاوية)، قائد النمامشة، قائد الزمول (حوالي 20 قبيلة)، قائد الأوراس (12 قبيلة)، قائد عامر الشراقة (6 قبائل)، شيخ الدير (أولاد يحي بن طالب)، شيخ بلزمة (13 قبيلة)، قائد سكيكدة (9 قبائل) قائد زردازة، شيخ الزواغة، شيخ فرجيوة (6 قبائل)، قائد أولاد عبد النور (31 قبيلة)، قائد التلاغمة، قائد عامر الغرابة (5 قبائل)، شيخ قصر الطير (8 قبائل)، شيخ أولاد أمقران في مجانة (13 قبيلة)، شيخ أولاد دراج[3].

هذه القبائل مختلفة من حيث علاقتها بالسلطة التركية، منها قبائل الرعية ومنها قبائل المخزن والقبائل الحليفة. بالنسبة لقبائل الرعية نذكر عامر الشراقة وعامر الغرابة وسنية ودريد وساحل سكيكدة وكرارب

---

[1]- نفسه ص 118 و119.

[2]- نفسه ص 113 – 114.

[3]- نفسه ص 118 و119.

سلاوة وأولاد علي وبني مزلين والعشايش أولاد علي العشايش العطاطفة وبني صليب وبني ورزدين وأولاد حريد وسلحل عنابة وإيدوغ وأهل تبسة ووادي الذهب وأولاد دراج وغيرها[1].

بالنسبة للجماعات المخزنية، نذكر دايرة خليفة الباي في الحامة ومخزن الحراكتة، الذي يترأسه قائد العواسي وهودائما أحد أقارب الباي وأحد كبار الضبط في البلاط، تحت تصرفه ثلاثمائة فارس عدا ما تقدمه القبيلة من مقاتلين آخرين، ودواير الآغا وهي الوادي، بني مروان، سرواية والزناتية. يضاف إلى ذلك الزمول والقبيلة الصبايحية أولاد عبد النور وبمثيلتها التلاغمة والعلمة وسلحل سطورة أوبني محنة ومعاوية وأولاد عطية ومخزن قرفة ودايرة وأعزال وادي الذهب وزمالة العثمانية في نواحي سطيف (تتكون من الكراغلة) ومخزن قائد منطقة الأوراس وسحاري شيخ العرب ومخزن أولاد بليل الخ[2].

بالنسبة للجماعات الحليفة أوالتابعة نذكر المنطقة الوراثية الكبيرة في مجانة وهي منطقة نفوذ أولاد أمقران وأيث شرفة ومشدالة وبني مدور وزاوية شلاطة وهي منطقة النفوذ المرابطي لذرية الشريف بن سيدي موسى التي تمتد على كل وادي الساحل، وزاوية الشريف إيولا وهي منطقة النفوذ المرابطي لعائلة سيدي الشريف ميهوب، وزاوية سيدي مبارك بن سماتي، والساحل القبلي للبابور وهومنطقة نفوذ عمر بن عبيد بن واري، وزاوية أمعبدان وهي منطقة نفوذ المرابطي لأولاد سيدي محمد أمقران وهم فرع من مقرانيي مجانة، والمشيخة الوراثية لقصر الطير، والمشيخة الوراثية لفرجيوة، والمشيخة الوراثية للزواغة، وبني فوغل جيجل، الذين كانت تمثلهم سنة 1830 عائلة ابن

---

[1]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 42 ص 136 – 139.

[2]- نفسه ص 129 – 133.

حبيلس وبني قائد جيجل (فحامون وتجار زيت كانوا يمونون حامية وحضر جيجل)، وزاوية مولى الشقفة الذي كانت له السيادة على قبيلة بني يدر وهي منطقة نفوذ مرابطي ومكان لجوء معترف به من قبل الأتراك منذ القرن السادس عشر، والمشيخة الوراثية لبلزمة، تحت سيادة أولاد بوعون وهم أجواد، ومنطقة النفوذ لأولاد الحاج في مدوقل، الذين كان يمثلهم سنة 1830 سي مقران الحاج، وزاوية طولقة التي كان يقودها سنة 1830 سي علي بن عمر، مقدم الطريقة الرحمانية، والمشيخة الوراثية للحنانشة، ومشيخة المزولة تحت قيادة أولاد ديب، الذين كانوا يدفعون الضريبة لشيخ الحنانشة الخ[1].

كانت هناك جماعات عديدة مستقلة عن الأتراك تماما سنة 1830، وكانت تتواجد في المناطق الجبلية بصفة خاصة، وقد لعب تمرد ابن الأحرش دورا كبيرا في استقلالها. لقد أورد لويس رين أسماء ومواقع هذه الجماعات أوالقبائل[2]. نجد منها قبيلة النمامشة الكبيرة التي كانت في صراع حاد مع الأتراك.

---

[1]- نفسه ص 289 - 297.

[2]- من الجماعات المستقلة نجد في السلسلة الجبلية لالا خديجة أيث يعلى، إيمشدالن، آيث واكور، آيث ملكيش، وفي الضفة اليسرى لوادي الساحل نجد سيدي عبو، آيث يحي أويوسف، آيث عامر، عنوشة، بني منصور، آيث أحمد أوقرط، قبائل بوسالم، بني يعلى الغبولة، بني ورتلان، زاوية سيدي الجودي أومرابطي قرقور الذين هم سادة قبائل مختلفة في بلاد القبائل، وقبائل أولاد نايث، بني وغليس، أيث عيسى، بني أحمد، آيث إسماعيل الخ.. ومن بابور وتبابورت نجد بني مرعي، أولاد صالح عموشة، الدهمشة، أهل بابور، أهل تبابورت، بني ياجيس، بني عمران الجبالة (رقادة، المثلاثين وشادية)، بني عمران السفلية، بني خطاب الغرابة، بني عافر، جيملة، بني سيار وساحل جيجل، نجد العوانة، دار البلاطح، بني معمر، بني صالح، لجناح، بني حبيبي، أولاد عسكر، بني فتح، بني عيشة، أولاد علي، تايلمان، أولاد عواط، قبيلة أولاد عيدون الكبيرة، مشاط، خبالة، بني مسلم، بني بلعيد، بني فرقان، أولاد مبارك، بني قايد، بني صبيح، القل (المدينة التي كانت بها حامية تركية والتي استقلت منذ 1805)، أولاد نوار، بني صالح، أولاد خزار، الزرامنة، بني بشير، عرب سكيكدة، الخ. ومن قبائل إيدوغ نجد بني محمد، عرب العيون، التريعات الخ. ومن القبائل الهامة التي يمكن ضمها إلى القبائل المستقلة نذكر قبيلة الحنانشة (التي كانت مشيخة وراثية لا يضاهيها في القوة سوى قبيلة الحراكتة وقبيلة النمامشة).

سيطر النمامشة على المنطقة الواقعة بين تبسة ونفطة وسوف. وحسب رواية الحاج حمودة التونسي كان النمامشة منقسمين في القرن السابع عشر إلى صفين متصارعين. حاربهن، خلال القرن الثامن عشر عاهل تونس يونس باشا. خضوعهم لبايات قسنطينة لا يتجاوز فترة تزودهم بالحبوب في الشمال. لم يدفعوا الضريبة كاملة أبدا. كان النمامشة تحت نفوذ أحرار الحنانشة ولم يتخلصوا منه إلا في عهد صالح باي في حوالي نهاية القرن الثامن عشر، ولما عين الأتراك عليهم القائد العداسي قتلوه، فساروا إليهم إلا أنهم فقدوا الكثير من الجند بالقرب من فج فكرون كما تقول الرواية المحلية. إن المنطقة الواسعة التي كان يسيطر عليها النمامشة تجعلهم قادرين على اختيار مكان المعركة كما يحلولهم، لهذا لم يخضعوا للأتراك خضوعا كاملا أبدا. حين يسير إليهم المكلف بتحصيل الضريبة يجد نفسه أمام إحدى الحالتين: إما أنهم

هذا في الشمال أما في وسط البايليك وجنوبه فإننا نجد كذلك العديد من الجماعات المستقلة، نذكر منها مشيخة الدير التي كانت على رأسها عائلة يحي بن طالب وهي مستقلة منذ 1819، وبوسعادة (المدينة وضواحيها)، وشرفة الهامل، وأولاد زيان (تحت السيادة الدينية لأولاد الحاج في صدوقل)، وشاوية بلزمة الذين كانوا في صراع مع العرب، ومنطقة الوادي، والمشيخة الوراثية للأوراس، تحت سيادة أولاد بلقاسم الذين كان يمثلهم العربي بن بوضياف بن بلقاسم سنة 1820، والقبيلة الكبيرة النمامشة.

من الجماعات المستقلة نجد أيضا زاوية سيدي علي أومنطقة النفوذ الديني وكذلك السياسي لأولاد سيدي علي وتضم طلبة الزاوية وبدوأولاد سيدي علي وزبائنهم (منهم من تونس ويعرفون باسم الزغولمة)، ومنطقة أولاد سيدي عبيد المحصورة داخل إقليم النمامشة (يدعي أولاد سيدي عبيد أنهم منحدورن من الرسول، فهم أشراف، لادعى جدهم عبيد الخوارق، بعض ذريته تجمعوا حول الجامع فشكلوا بذلك القرية التي تسمى باسمه، والبعض الأخر استقر حول جبل قوة فعرفوا باسم أولاد سيدي عبيد). ونجد في خانة الجماعات المستقلة كذلك زاوية سيدي ناجي أومنطقة النفوذ المرابطي لأولاد سيدي ناجي وزبائنهم هم البراجة أوأولاد عمران في جبل ششار. نذكر قبائل أخرى كانت مستقلة مثل زاوية أحمر خدووالإمارة الوراثية لبني جلاب في تقرت، وبيت بوعكاز أوالإمارة الوراثية لأجواد الدواودة وأولاد صولة، وكان بين بوعكاز يختار منه شيخ العرب، قبل أن يحوله صالح باي إلى بيت ابن غانة. رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 42 ص 297 - 308 والعدد 43 ص 105 - 115.

يريدون دفع الضريبة فيعتذرون له، وإما، وهذه حالة نادرة جدا، أن يدفعوا إن كانوا يريدون بيع غنائمهم، التي استولوا عليها أوبيع منتوج قطعانهم الضخمة، أويريدون التزود بالحبوب في التل. في هذه الحالة يستلم محصّل الضريبة من فرسان يمثلون العشائر. كان النمامشة في صراع دائم مع جيرانهم الحراكتة والعمامرة والسوافة وحمامة والفراشيش ومع أولاد يحي بن طالب بصفة خاصة. كانت ثروة النمامشة الرئيسية تتمثل في قطعان الماشية وخاصة من الجمال، فهم لا يولون اهتمام كبير بالزراعة، ولأنهم كانوا رحلا، فإنهم يطوون خيامهم عندما يشعرون بالخطر ويتوغلون في الصحراء فيفلتون من كل ملاحقة. في كل سنة، في حوالي أكتوبر، حين يشتد البرد، ينتقل النمامشة من قدم جبل الدير ونواحي تبسة ويدخلون إلى بحيرة الأرانب، أين تزرع كل عائلة قطعة أرض تتناسب مع حاجياتها وإمكانياتها ثم يزحفون، لما تنتهي أعشاب التل، نحوالصحراء على مراحل. بعضهم يتجه نحوالجريد وسوف والبعض الآخر نحوقصور فركان، نجرين وتامرزة. كانت تبسة وقرية أوقاس المخازن المؤقتة لحبوبهم[1].

يختار البايات مناسبة تخييم النمامشة صيفا في السهول الواقعة بين تبسة وجبال الأوراس للإغارة عليهم والحصول على الضرائب. هاجمهم الباي شاكر مرات عديدة في حوالي سنة 1815. كما نظم الباي أحمد غارات عديدة ضدهم، حين كان قائدا للعواسي. ولما أصبح بايا جند فرسان البايليك ضدهم وضد الحنانشة الذين انضموا إليهم في تمردهم. حين يعلم النمامشة بمقدم الأتراك يمدون الحبال حول دواويرهم ليحولوا دون نفور جمالهم وخروجها عن نطاق خط الدفاع. في خط الدفاع هذا يفقد المهاجمون العديد من رجالهم. وفي وضعية الفوضى التي تحل بالعدو،

[1]- فيرو. مذكرات حول تبسة. المرجع السابق ص 449 – 455.

ينقض فرسان النمامشة على المغيرين ويفقدونهم مُشاتهم فتصبح المعركة معركة العهد البيزنطي. لقد ظل صراع النمامشة مع أحمد باي قائما على ما بعد سنة 1830.

يتشكل بايليك التيطري من الناحية الإدارية من أربع دوائر هي:

1. التل الشمالي الذي يضم سبعة أوطان هي حسن بن علي، وزرة، ريغة واوعمري بني يعقوب، غربي وحناشة.

2. التل الجنوبي، ويضم أولاد ديد، العبيد الدوائر، أولاد حميد أولاد سيدي أحمد بن يوسف، بني حسن، الربايع، أولاد علان، التيطري، السواري، أولاد معروف، الدهيمة وأولاد حمزة.

3. ديرة، وتشكل دائرة خاصة تضم أولاد دريس، أولاد بركة، أولاد فرحة وأولاد بوعريف، أولاد مريم، العذاورة بني عقبة، أولاد سليمان، أولاد عبد الله، أولاد علوش، مغراوة، أولاد سيدي عيسى، أولاد موسى، أولاد سيدي عمر، جواب وأولاد النهر. يفصل بين هذه القبائل جبل ديرة. وهي تشارك في الحياة الحضرية أوالرعوية حسب موقعها من السلسلة الجبلية، في الشمال أوفي الجنوب.

4. دائرة الجنوب، وتضم قبائل رحمان، الزناخرة، العبدلية، المواياة (الشراقة والغرابة)، أولاد مختار (الشراقة والغرابة)، العبازيز، أولاد أحمد الرشايقة، أولاد سيدي عيسى (السواقي والعرق والأحباب)، السحاري، أولاد الشايب، بني بوعيش، أولاد نايل الحزازلية ولرباع. هذه القبائل تسكن الخيام وهي بدوية[1].

لم تكن هذه القبائل تخضع كلها للبايليك في أواخر العهد التركي، فمنها ما أصبح يتبع السلطة المركزية في الجزائر، ومنها ما استقل عن الأتراك، ومنها ما يدخل في عداد الحلفاء أو الأتباع.

---

[1]- نفسه ص 456.

الجماعات التي تدخل في خانة الأتباع أوالحلفاء هي زاوية سيدي حامد بن يوسف وأولاد سيدي لخضر، وهذه الجماعة الأخيرة تشكل منطقة نفوذ مرابطي كان رئيسها يلقب بالأمير ويتبع مدينة الجزائر مباشرة، وقصر زاوية سيدي البخاري الذي كان يتبع الجزائر، المشيخة الوراثية لأولاد سيدي عبد الله الأجواد الذين ينحدرون من أحد مقرانيي مجانة ويتبعون مدينة الجزائر، ومنطقة النفوذ المرابطي لأولاد سيدي عيسى الذين يتبعون مدينة الجزائر، وأولاد سيدي عامر وهم مرابطون وأشراف يتبعون مدينة الجزائر، وأولاد سلامة وهم قبيلة تخدم أولاد سيدي عبد الله وأولاد سيدي عيسى وهي قبيلة مكلفة من قبلهم بتوفير العزلية (الذين يفلحون أراضي العزل) في بلاد معمورة، والمشيخة الوراثية لأولاد مختار المقسمة إلى صفين : صف أولاد عدة (أولاد مختارالشراقة)، وصف أولاد علي (أولاد مختار الغرابة)، وأولاد سيدي أحمد الرشايقة أوأولاد أحمد بن عيسى وهم مرابطون وزبائن وأتباع أولاد الشايب[1].

من الجماعات المستقلة نذكر أولاد دريس (في ديرة) وهم خدم أولاد سيدي عبد الله، والعذاورة (في السفح الجنوبي من جبل ديرة)، وأولاد سيدي عيسى العضب وهم مرابطون، وعزيز، والسحاري العطاية الذين يشكلون قبيلة كبيرة، وأولاد نايل وهم كذلك قبيلة كبيرة، وبني الأغواط، ولرباع، بني ميزاب، والشعانبة، وورقلة وهي إمارة تشمل المدينة والأحياء المحيطة بها، والمخادمة (سعيد المخادمة) الخ[2].

كن التنظيم الإداري لبايليك الغرب بسيطا وقويا في الوقت نفسه، باستثناء مجموعتين من القبائل، هما أولاد عامر والمجاهر، وقد كان

---

[1]- فيدرمان وأوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 361 – 366.

[2]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 344 – 346.

بلي وهران متحفظا منهما، فإن الإدارة المباشرة لبايليك الغرب كانت مقسمة بين ثلاثة من الرؤساء ذوي النفوذ يستلمون مداخيل الجباية ويعينون القادة، وهؤلاء الرؤساء هوآغا الدواير وآغا الزمالة في الناحية الغربية من البايليك وخليفة البلي، في الناحية الشرقية. غالبا ما كان يسمى خليفة الشرق، تمتد إدارته على السكان الذين يقطنون مناطق شرق مازونة تقريبا فقط في الحقيقة كان هناك أربعة آغوات، اثنان منهم يكونان في عطلة واثنان يعملان، ثم يحدث التناوب. بخلاف الخليفة الذي له منطقة معينة فإن لكل آغا من الأغوين قبائل متشابكة مع قبائل زميله، فالتقسيم لا يتعلق بالمنطقة الجغرافية بل يتعلق بالقبائل. هكذا فإن ممارسة مهمتهما تقودهما إلى نفس الأماكن دائما، فإن أراد أحدهما التمرد كان الأخر له بالمرصاد، والأمر هنا يتعلق بالدواير والزمالة[1]. هذه هي اللامركزية الحذرة التي كانت مطبقة في بايليك الغرب.

يتكون مخزن آغا الدواير من الدواير، الدرادر، هاشم الدروع، برجية سيراط، البرجية الجبايلية، عكرمة الغرابة، أولاد أحمد الحل، السحاري، دواير فليتة، القبيلة الكبيرة هاشم. ويتكون مخزن آغا الزمالة من الزمالة (الزمالة وحميان)، مخزن الغرابة سجرارة، عبيد الشراقة، المكحالية، أولاد سلامة. ويتكون مخزن الشرق من بني فاطم وهم صبايحية آغا العرب، وعزلية خوجة الخيل، ذوي حسن (يتبعون خوجة الخيل)، أولاد خلوف، بني يحي أزاغر، عبيد عين الدفلة والمكلحلية وعبيد السدرة، الفراحلية، صبايحية الشلف أوهاشم الشلف وهاشم دردور[2].

من الجماعات التي تدخل في عداد الموجودة في اغاليكي الدواير والزمالة مدينة القلعة، قبيلة فليتة الكبيرة، الزدامة، ذوي أنكاد، السحاري، أولاد خليف، أولاد الشريفة، أولاد بوغدو، بنومنيارن، أولاد

[1]- نفسه ص 346 – 348.

[2]- نفسه ص 139.

خالد، أولاد عفان، بنومدين، أولاد عوف، القبيلة الكبيرة بنو عامر، أولاد سيدي خليفة، أولاد ثابت، وطن تلمسان الذي يديره قائد البلد، القبيلة الكبيرة ذوي يحي، القبيلة الكبيرة الترارة، والهاصة التابعة لقائد البلد في تلمسان، القبيلة الكبيرة الغسل، وطن جبل تلمسان، ندرومة وضواحيها، بنوهيدل، الخ. وأما رعية خليفة الشرق نذكر منها هروة اللواطة، قبيلة بني زقزوق الكبيرة، بنومايدة، القبيلة الكبيرة عطاف، القبيلة الكبيرة بزان (ينتمي إليها سي بن عيسى بن التومي خليفة الأمير عبد القادر)، أولاد فارس، أولاد قصير، بني راشد، القبيلة الكبيرة صبيح، أولاد خويدم، القبيلة الكبيرة بني زروال مغراوة[1].

بالنسبة للأتباع أوالحلفاء، نذكر، في أغاليكي الدواير والزمالة، أولاد سيدي بوعبد الله المغوفل، وهم مرابطون والقيادة عندهم وراثية وقد بلغ نفوذهم كل وادي الشلف من مستغانم إلى الأصنام ووادي مينا الأسفل وغرب الظهرة (أنهم يستلمون العشور وعائدات دينية أخرى من جزء من الظهرة)، والحال وأولاد العباس وأولاد خويدم وأولاد الشريفة وأولاد القرود الخ[2]. لقد تحالف أولاد بوعبد الله المغوفل وهم أجواد ومرابطون في الوقت نفسه، مع الأتراك ضد الأشراف والإخوان وضد الإسبان في وهران. يسيرُ قادة أولاد سيدي بوعبد الله دائما مع المخزن ويوفرون الموظفين القضاة للأتراك في وهران[3]. من الأتباع كذلك بنومسلم وهم يشكلون قبيلة كانت تحت السيادة الدينية لزاوية سيدي الشاذلي، وزاوية أولاد سيدي دحّو، وقبيلة الأحرار الكبيرة التي قبلت التبعية للأتراك حتى تتمكن من الدخول إلى التل وكانت مستقلة تقريبا منذ بداية القرن التاسع عشر، والمنطقة الوراثية لأولاد سيدي التاج

1- نفسه ص 349 و350 والعدد 42 ص 5 – 10.

2- نفسه عدد 42 ص 13 – 20 و113 – 116 و155 و156.

3- نفسه ص 116 و117. انظر الهامش كذلك.

والطرافي أوحميان الغرابة وهم بـ، وأتباع أولاد سـيدي الـشيخ وأتبـاع الأتراك كذلك عملاء إخوان التيجانية والطيبية والقادرية وذلـك لتـأمين تجارتهم، وأغـواط الكـسل وهـم أتبـاع أولاد سـيدي الـشيخ والأتـراك ومؤاكرو إخوان التيجانيـة، والـترارة الـذين يـدفع جـزء مـنهم الـضريبة للأتـراك دون التـدخل في إقلـيمهم، والـسواحلية، ومـسيردة والمـشيخة الوراثية لأولاد سيدي بن زمارة، وأولاد سيدي تالة، وزاوية سيدي أحمـد وينوسنوس الخ[1].

في ناحية خليفة الشرق نذكر، مـن القبائـل الحليفـة، عيـاد أونهـر اصل تحت سيادة أجواد عياد الحل، وبني لنت، بسام، بني بلحسن، أولاد عمار، المشيخة الوراثية جندل وهي تحت سـيادة أولاد بـن شـريفة وهـم أجواد، ومرابطي بني فرح الذين هم ذرية وزبائن سيدي أحمد بن يوسف المـشهور بمليانـة، ومحاجـة ا٠ـرابطين الـذين يـزودون الأتـراك بالقـضاة والخوجات[2].

هذا ونجد جماعات أخرى مستقلة، في أواخـر العهـد التركـي مثـل القبيلة الكبيرة بـني وراغ، مكناسـة، مطماطـة، بـني طغـرين، الكـرايش، العاصم، أولاد يعقوب، الزرارة وهـم من كبار البـدويتنقلون بـين الـزاب وتاجرونة وشط اليعقوبية، الحساسنة حلفاء الأحرار، المجاد حميان الغرابة، عمور وأشراف أولاد مولاي عبد المالك، زاوية عين ماضي، بـني سناسـن، بني بوسعيد الظهرة، عريب، زكار، أولاد عنتر، أولاد هلال الخ[3].

المنطقة الاسبانية:

بعد أن سيطر الاسبان على المرسى الكـبير سـنة 1505 ووهـران سنة 1509 اعترفت بسلطتهم بعض القبائل المجاورة للموقعين، وقدمت لهم، من بين ما قدمت المقاتلين. أصبحت بـسرعة المنطقـة الواقعـة بـين

---

[1]- نفسه عدد 41 ص 138.

[2]- نفسه عدد 42 ص 111 – 122.

[3]- نفسه ص 124.

وهران وجبل راشد إما خاضعة لهم أوحليفة في الكثير من المرات بلغت القوات الإسبانية غريس وبني شقران. غدت الأراضي الخصبة في القلعة، لدى بني راشد وأراضي البطحاء ملاتة وتليلات تمون وهران بكل الحبوب والمواد الاستهلاكية. هكذا بدا للإسبان أنهم أقاموا سيادتهم على كل الغرب الجزائري، لكن لسوء حظهم ظهر الأتراك في المنطقة[1]، فحدّوا من توسعاتهم.

يمكن القول أن القرى والدواوير الواقعة ضمن شعاع من حوالي 2 إلى 3 فراسخ من وهران كانت خاضعة للإسبان خضوعا مباشرا قبل تدخل الأتراك. كما كانت تعترف لهم بالنفوذ كل من تلمسان ومستغانم وتنس. وأصبحت قبيلة بني عامر الكبيرة، منذ هذا الوقت، صديقة لهم ومن حلفائهم، تدفع لهم ضريبة (الرومية). مع هذا هنالك مواقع وقبائل في عداوة مفتوحة مع هؤلاء الاسبان، مثل بني زناتي وبني راشد[2]. لم يكن يضاهي بني عامر قوة سوى قبيلة بني عامر إلى الاسبان أخذت قبيلة بني هاشم تزداد أهمية إلى أن بدأت السيادة التركية في المنطقة، في حوالي 1530، فانضمت إليهم مقابل حصولها على أراضي هامة في السبق والهبرة[3].

كان الهجوم التركي على الناحية الغربية مبكرا. ضم الأتراك تنس ومستغانم ومزغران وسيطروا على مازونة سنة 1517، كما سيطروا على قلعة بني راشد في نفس السنة، ثم استعادوها سنة 1540، بعد أن أخذها منهم الاسبان وحلفاؤهم الزيانيون، عند مقتل عروج سنة 1518. كما استولوا على تلمسان في أواسط القرن السادس عشر - كما رأينا سابقا. لقد أدى الوجود الإسباني في وهران والمرسى الكبير والوجود

---

[1]- نفسه ص 129.

[2]- جورجوس. لمحة عن باي وهران. المرجع السابق ص 28 و29.

[3]- دوسلندوفال. المرجع السابق عدد 15 ص 278.

التركي في باقي الغرب إلى فرز بين القبائل. منها ما انضمت إلى الاسبان ومنها ما انضمت إلى الأتراك. أما القبائل الواقعة على الحدود الفاصلة بين إقليمي الاسبان والأتراك فقد ظلت مترددة بين التبعية لهؤلاء وأولئك. لما تضعف شوكة الاسبان تقترب من الأتراك ولما تضعف شوكة الأتراك تقترب من الاسبان. يتجلد ذلك في كل مرة يهاجم الأتراك المنطقة أويهاجمون وهران والمرسى الكبير[1].

رغم مقاومة السلطة التركية للتوسع الاسباني إلا أن الاسبان تمكنوا من توسيع منطقة سلطتهم إلى الشرق والغرب والجنوب، في شعاع يصل طوله إلى حوالي 20 فرسخا من وهران. لقد أكد تقرير الدوق كانزانو، حاكم وهران في أواخر القرن السابع عشر، على أن شريط بني غدوهوالحد الشرقي للسيادة الإسبانية، وأن إقليم جماعة فلاحي بني يعقوب هوالحد الجنوبي، وإقليم جماعة أولاد ميمون هوالحد الغربي. هذا ما أكده تقرير أرامبورو، الحاكم الاسباني. لقد جاء في تقريره أن الاسبان، كانوا يسيطرون قبل الانسحاب الأول سنة 1708، على منطقة تمتد غربا إلى وادي تلمسان، على بعد 14 فرسخا من وهران، وتمتد شرقا إلى 20 فرسخا، أي إلى ما قبل الوصول إلى الشلف بفرسخين، وتمتد إلى الجنوب إلى أبعد من وادي السيق، إلى المكان المعروف باسم مقرة، على بعد 20 فرسخا من وهران. يُستثنى من هذه المنطقة مدينتا مزغران ومستغانم[2].

1- ليسبينس. مذكرة حول هاشم معسكر. المرجع السابق ص 144 و 145.

2- Mohamed ELKORSO et Mikel de EPALSA. Oran et l'ouest algérien au 18 ème siècle d'après le rapport d'Aramburu. Bibliothèque National. Alger 1978 p 39

(محمد القورصو وميكل دوايبالزا. وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر، حسب تقرير أرامبورو. المكتبة الوطنية. الجزائر 1978 ص 39.

التحصينات الاسبانية:

لمواجهة الهجمات المتواصلة التي كانت تتعرض لها وهران والمرسى الكبير، أقام الاسبان تحصينات ضخمة لا يمكننا إلا أن نتعرض لها باختصار. في سنة 1734 حرر دون جوزي فاليجوالحاكم الاسباني مذكرة حول وضعية وهران والمرسى الكبير، في إطار المناقشة التي كانت تدور آنذاك حول مسألة الإبقاء على الموقعين أوالتخلي عنهما، وقد ترجمه إلى الفرنسية وعلق عليه جون كازيناف. نعتمد نحن هنا على هذا التقرير وملاحظات المترجم بخصوص التحصينات التي أقامها الاسبان في وهران والمرسى الكبير[1].

نصب الاسبان في المرسى الكبير 27 مدفعا من البرونز ومدافع أخرى من الحديد ونصبوا في وهران 8 مدافع من البرونز و31 مدفعا من الحديد، أما الأبراج التي شيدوها فهي:

1. برج القديس جريجوار (برج اليهودي)، ويقع أسفل برج سانتاكروز وهويحمي وهران والمرسى وفيه ثلاثة مدافع من البرونز و11 مدفعا من الحديد وراجمتان.

2. برج سانتاكروز (برج مرجلجو)، وقد بني في أواسط القرن السادس عشر بعد هجوم إبراهيم باشا، وقد طلب الاسبان دعم القبائل المجاورة لبنائه، فعاونت قبيلة حميان بكل قواها. أعاد بناءه كلّه تقريبا الحاكم فاليجو. كان هذا البرج ضروريا لوهران والمرسى الكبير، فبدونه وبدون برج القديس جريجوار لا يمكن لهما أن تقاوما الهجمات التركية. ضم برج سانتاكروز سبعة مدافع من البرونز وراجمة واحدة.

---

[1]- نفسه ص 37 – 39.

3. برج القديس فيليب (برج العيون أوبرج بني زروال)، وقد سمي برج بني زروال لأن بني زروال استولوا عليه سنة 1791 عند هجوم الباي محمد الكبير على وهران، وهوالهجوم الذي جاء بعد الزلزال الذي اقتلع الاسبان من الأراضي الجزائرية نهائيا. إنه أول برج كان يصطدم به الأتراك في هجماتهم على وهران والمرسى الكبير لأنه أبعد الأبراج عن المدينة (على بعد ربع الفرسخ منها). بالقرب من هذا البرج شُيد برجان صغيران لوقف الهجمات، وهما برج القديس فيرديناند الذي بني في 1514، بالقرب من العيون، واستولى عليه حسن باشا في أفريل 1563، قبل أن يحاصر المرسى الكبير. وقد وسعه فاليجو، الذي أنشأ البرج الثاني، سان شل. يضم برج فيليب 16 مدفعا من البرونز و12 مدفعا من الحديد و3 راجمات.

4. برج القديس أندري (البرج الجديد)، بني في عهد الحاكم كانزانو(1692 – 1697)، وقد سقطت عليه صاعقة سنة 1769 فانفجر باروده، الشيء الذي ألحق به أضرارا بليغة، اضطرت الاسبان لإصلاحه. لعب دورا كبيرا في هجومي الأتراك سنتي 1708 و1732، له 13 مدفعا من البرونز و16 مدفعا من الحديد و3 راجمات.

5. برج روزالكزار (البرج الأحمر)، وهوقديم أول من بناه هوالسلطان المريني أبوالحسن في 1347 وأعاد الاسبان بناءه إنه أحسن الأبراج، فيه 12 مدفعا من البرونز و17 مدفعا من الحديد وراجمتان.

يضاف إلى هذه الأبراج حصن يقع بين القديس أندري وروزالكزار وقد شيد سنة 1570 أما باب تلمسان، وثلاثة مساجد حصنها الاسبان وتقع بين فيرديناند وأندري.

مدينة وهران الاسبانية:

يذكر تقرير دون جوزي فاليجوأن عدد سكان وهران من الاسبان كان حوالي خمسمائة نسمة، بينهم عائلات من النبلاء. لم يكن عدد أفراد الحامية الاسبانية مستقرا، لكنه نادرا ما كان يتجاوز 1500 رجل، من المشاة والفرسان. يضاف إلى هؤلاء الجنود الأهالي المعروفين باسم "المغطسين". عدد هؤلاء الجنود كان كافيا للقيام بحملات مفاجئة على القبائل التابعة. الغنائم المحصل عليها أثناء الحملات الإسبانية التي تتكون أساس من البشر (الأهالي) والحيوانات تُباع وتُقسم المبالغ المحصل عليها على الموظفين والجنود والسكان حسب قاعدة معلومة. جزء من هذه المبالغ يُسلم للخزينة الملكية. تقوم القوات الإسبانية بحملات خارج منطقة نفوذها اعتمادا على نفسها، وفي بعض الحالات تأتي قوات إضافية من إسبانيا لتدعمها. تُسيّر الحملات هذه للحصول على الغنائم أولمواجهة القوات التركية حين يأتي لتحصيل الضرائب[1].

شكل الاسبان، منذ احتلالهم وهران والمرسى الكبير، فرقا عسكرية من الأهالي تتكون أساسا من الفرسان، وقد عُرف هؤلاء الجنود باسم المغطسين، وهذه الكلمة تعني المعمّدين وقد ظل هؤلاء الجنود أوفياء للاسبان إلى غاية سقوط وهران والمرسى الكبير بيد الباي محمد الكبير. عن دور المغطسين في تدعيم الاسبان يقول عبد القادر المشرفي:"ولم استقل قدم الإسبانيين بوهران انحاز إليهم طرف من الأعراب فصاروا خدمة لهم ومن جملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين فكانوا لهم

1- Don José VALLEJO. Contribution à l'histoire du vieil Oran. Revue Africaine N° 66 (1925) p 331 343

(دون جوزي فاليجو. مساهمة في تاريخ وهران القديمة. المجلة الإفريقية عدد 66 (1925) ص 331 - 343.

عليهم أعوانا وفي الدين الفاسد إخوانا فشنوا بهم الغارات وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات"[1].

الأهالي رعايا الإسبان:

يذكر سي عبد القادر المشرفي أن الأهالي الذين كانوا تحت سلطة الاسبان يتشكلون من ثماني جماعات هي كرشتل وشافع وحميان وغمرة وجيزة وأولاد عبد الله وأولاد الونازرة وحول سياسة الاسبان تجاه هذه الجماعات يقول : " وللاسبان ترتيب في رعيتهم ليحصل التعاند لهم في خدمتهما وهوأنهم يقدمون الونازرة على جيزة وهم على حميان عبد الله وغمرة وهم على شافع وهم على كرشتل وهم على أولاد علي وهم على عبد الله وهوعلى شقران وهم على القليعة وهم على الحشم لكونهم معهم بين نفرة واستقامة تارة يذعنون لهم وتارة يخرجون عن طاعتهم ويأنفون الدخول تحت ذمتهم"[2].

من الأسباب الرئيسية التي جعلت بعض الجماعات الأهلية تنضوي تحت سلطة الاسبان في وهران سيطرة هؤلاء الاسبان على السهلين الهامين مليتة وسيراط، وهما سهلان واسعان وخصبان وفيهما مراعي لا مفر منها لقطعان ماشية القبائل المجاورة. فكان على هذه الأخيرة أن تتصالح مع الاسبان لكي تضمن لنفسها الاستفادة من السهلين، كما يقول مترجم كتاب عبد القادر المشرفي[3]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كانت سوق الاسبان تسمح للأهالي ببيع فائض إنتاجهم. وقد شجع الاسبان الذين كانوا في حاجة لمنتوجات الأهالي عمليات البيع التي استفاد منها تجارهم والأجانب، الشيء الذي جعل

---

[1]- فاليجو . المرجع السابق ص 349 و 350.

[2]- نفسه ص 217 – 218.

[3]- نفسه.

الملك الاسباني يقدم كل سنة كمية من النقود لكل شيخ من شيوخ الجماعات الأهلية تتناسب مع عدد خيام كل جماعة، الأمر الذي يجعل هؤلاء الشيوخ، ومن ورائهم قبائلهم، يتقربون من المحتل. من المواد التي كان الأهالي يبيعونها للاسبان الحبوب والجلود والشموع والفواكه[1].

من بين الرعايا جماعة شافع الذين كانوا جنودا للاسبان "ودون غيرهم من إخوتهم من بني عامر فإنهم كانوا رعية النصارى لا جنودا ثم أن شافعا كان عددهم نحوالعشرين دوارا وكانوا أهل نجدة وبأس شديد وقتال عنيد. فتقوى بهم الإسبانيون بغاية التمكين واشتدت شوكتهم على المسلمين واعتدوا بهم وصاروا مشتدين وأكثروا من الغارات على الأقربين والأبعدين"[2]. كانت تبعية شافع للاسبان أكثر من غيرهم، فهم لا يبرمون معهم اتفاقيات مثل غيرهم بل يدفعون الضريبة عن الزويجة (محراث يجره ثوران) التي يستعملونها كل سنة. كانت شافع وحميان من أتباع ملك إسبانيا لا من أتباع وهران. لذلك فهما لم تكونا في حاجة إلى معاهدة حماية ولا تقدمان الرهائن[3]. كانت شافع تقطن وتستفيد من الإقليم الواقع بين أراضي وهران وسسال على خمسة فراسخ من ساحل غرب وهران، إلى أن طُرد الأسبان من وهران في القرن الثامن عشر، حيث خضعت شافع للأتراك الذين منحوها أراضي بين عين البيضاء والزيدور[4].

كان أهل يفّر يستفيدون من الأراضي المغطاة بالأحراش الواقعة بين إقليم شافع والبحر. كانوا من رعايا وهران، بدون أية واجبات عدا رعاية مائة حصان تابعة للاسبان ويصحبونها في الحملات، وتُسند لهم

[1]- بودان. المرجع السابق ص 195 و196.

[2]- فاليجو . المرجع السابق ص 349.

[3]- المشرفي. المرجع السابق ص 210.

[4]- فاليجو . المرجع السابق ص 361.

مهمة رعاية قطعان الغنائم من الماشية. يشكل أهل يفّر حوالي مائة وخمسين كانونا، خُربت مساكنهم مرات عديدة في الحصارات التي كانت تتعرض لها وهران. أما الأراضي الواقعة ما بعد نصف فرسخ من المرسى الكبير وبوحسين، فكانت من نفس نوع أراضي أهل يفّر، ويبدو أنها سلمت إلى أربعة دواوير انفصلت عن حميان وشافع تحت اسم غمرة، وبني زروال الذين نزحوا في العديد من المرات، مع قطعانهم، إلى وهران لخدمتها أثناء الحصارات. في الإقليم المعروف باسم تارقة، من عين البيضاء في مليتة إلى البحر، في اتجاه جنوب – شمال، كان يقيم فرسان أولاد جبارة المعروفون باسم أهل الوادي المالح[1].

من بين أنصار الأسبان الأشداء حميان، وكانوا من جنودهم وكانت لهم "رغبة شديدة في التنصر"، وكان شيخهم أول من أتى بالقرب الماء للاسبان لأجل بناء قلعة مرجاجو(سانتاكروز) وتحصينها بعد الهجوم الذي نظمه الباشا إبراهيم، وهوأول هجوم تركي على وهران. وكان عدد حميان كبيرا، فقد كانت دواويرهم تزيد على الثلاثين دوارا[2]. مُنحت حميان الإقليم الواقع بين كرشتل والسيق. بعد السقوط الأول لوهران بيدهم منح الأتراك حميان أراضي أخرى في إقليم سيراط، بالقرب من تمزوغة، لحووادي السيق[3].

في شرق مدينة وهران، كانت تقيم جماعة من الأهالي تعرف باسم كرشتل وكانوا يشكلون ثلاثمائة كانون، أجبرهم الاسبان على النزول من مناطق جبلية إلى ساحل البحر، وعلى الرغم من أن جماعة كرشتل لا يدفعون شيئا يذكر للأسبان في الكرشتليون هم المغطسون، "فهذا الاسم هولهم على الحقيقة ولغيرهم على المجاز" "وكيفية التغطيس أنهم يأتون

---

[1]- القورصوو إيبالزا. المرجع السابق ص 42.

[2]- نفسه.

[3]- المشرفي. المرجع السابق ص 211.

السلطان بيوتهم متمتعين بأجرة. يشتركون في الحرب ممتطين خيولهم حين يسير الباشا نفسه إلى هذه الحرب. مهمتهم الأساسية هي الدفاع عن مدينة الجزائر. يبلغ عددهم حوالي الخمسمائة، وهم في أغلبيتهم شيوخ، منهم الأتراك بالأصل ومنهم الأعلاج، ويوجد بينهم من كانوا يشغلون مسؤولية آغا الإنكشارية[1]. غير أن بارادي يذكر، في القرن الثامن عشر، أن الصبايحية الأتراك لا يُستعملون أبدا في مدينة الجزائر، وأنهم يوجدون لدى البايات فقط، ينتقلون من خدمة فرق الإنكشارية المشاة إلى هيكل الصبايحية بموجب رخصة وأن قائدهم العام يعرف باسم باشاغا الصبايحية، الذي يمكث دائما في مدينة الجزائر، وهو تركي الأصل على الدوام[2]. هذا وكنا رأينا أن لباي التيطري مثلا حوالي خمسين صبايحيا من الأتراك، يتبعونه في كل خرجاته ويستلمون أجرة مثل الإنكشاريين القدامى، أسلحتهم يوفرها الباي وكذلك خيولهم.

الصنف الثاني من الصبايحية يتكون من الأهالي، الذين ينتمون إلى العائلات الكبيرة، يجندون في خدمة آغا العرب. يوفر الصبايحي الأهلي حصانه وبندقيته بنفسه، بل ويدفع حوالي مائة بوجولكي يُقبل في خدمة الأغا. يُدمج الصبايحي الأهلي مع فرسان المخزن ويتمتع مثلهم بالإعفاء من الرسوم الشخصية وأعمال السخرة[3]. من القبائل التي كانت توفر الصبايحية الأهالي، في أواخر العهد التركي، نذكر قبيلة بني سليمان الكبيرة في دار السلطان، وقبيلة أولاد دبار، وقبيلة أولاد عثمان، وقبيلة أولاد بوعيش التي وفرت سنة 1825 حوالي أربعمائة صبايحي لوحدها. كل هذه القبائل الأخيرة في بايليك التيطري. من قبائل بايليك الشرق نذكر قبيلة أولا عبد النور التي توفر حوالي ألف صبايحي، وقبيلة

1- فاليسيت. المرجع السابق عدد 3 ص 133 - 136.

2- نفسه. ص 137 و138.

3- هايدو. طبوغرافية وتاريخ للجزائر العام. للمرجع السابق عدد 14 ص 499.

التلاغمة التي توفر حوالي المائة ه يحي. وفي بايليك الغرب، نذكر قبيلة ذوي حسن، وهاشم الشلف (صبليحية الشلف)[1].

الزواوة:

هيكل الزواوة أخذ اسمه من قبائل الزواوة في جرجرة، حيث جُند الأوائل من هذا الصنف. يتكون هيكل الزواوة من الأهالي فقط، ويأتون من جهات مختلفة من البلاد مثل بايليك التيطري، الذي اشتهر فيه زواوة قبائل معقيف وأولاد سيدي عمر من أولاد علان. الزواوة جنود مشاة يقومون بالحراسة في مدينة الجزائر، خاصة في الأبراج المجاورة لها، ولا يتقاضون راتبا إلا أثناء الخدمة ولهذا قيل عنهم: "الزواوة مُقدّمون في البلاء ومُؤخرون في الراتب"[2]. يذكر هايدوأن الأتراك كانوا يستعملون هؤلاء الزواوة في الحرب عادة، كما يستعملونهم في الحاميات، كما هوالحال في تلمسان، مستغانم، بسكرة، قسنطينة، عنابة وغيرها. أما في مدينة الجزائر، فإن ما يقرب ثلث جنود الحاميات كانوا من الزواوة، قائدهم آغا خاضع لأغا الإنكشارية. لأن راتبهم كان متدنيا، كانت نساؤهم تقطن غرفا مكتراة في مدينة الجزائر، وغالبا ما تعملن نساجات أوفي بيوت الحضر أوبيوت العلجات الغنيات[3].

يعود تاريخ إنشاء هيكل الزواوة على عهد حسن باشا بن خير الدين، الذي أقام علاقات حسنة بملك كوكوأوملك قبائل الزواوة. لاشك في أن أحسن باشا كان يريد الحد من نفوذ الإنكشارية، بإنشائه فرق الزواوة. وكان هذا التصرف سببا في تمرد الإنكشارية عليه سنة 1561- كما رأينا سابقا- غير أنه حقق انتصارا عليها، ولما حاول إدخال

---

[1]- بارادي. المرجع السابق. عدد 40 ص 57 و58.

[2]- فيدرمان ووكايتان. المرجع السابق. عدد 11 ص 300.

[3]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 145 و341 وعدد 42 ص 11 و131.

هذه الفرق إليها تمردت عليه وأسقطته. كان الزواوة الأداة التي تستعمل ضد تمردات هذه الإنكشارية، كما فعل خضر باشا سنة 1596، وكما فعل غيره من الحكام.

فرسان المخزن:

يُشار إلى فرسان المخزن بأسماء مختلفة منها : المخازنية والزمول (المفرد زمالة) والدواير (المفرد دايرة). يشكل فرسان المخزن القوة الأساسية للإدارة التركية في الأرياف، فهم يساهمون بالقسط الأكبر في دعمها وبقائها.

رجل المخزن، بالمعنى الحرفي للكلمة، هوأداة أوعون (الخزنة) أوالجباية، أي الرجل الذي يساهم في القوة العمومية التي تحصل الجباية، ولكنه جندي في الوقت نفسه. لقد توسعت الكلمة لتعني السلطة التركية برمتها[1]. تعرف القبائل التي توفر المخازنية باسم قبائل المخزن. تتمثل حقوق فراس المخزن في الاستفادة من أراضي الدولة (البايليك) وحصوله على حصان وبندقية، يعودان للدولة عند وفاته، إذا لم يكن له من يخلفه من أهله الأقربين، وهوالشيء الذي لا يحدث إلا نادرا، كما يستلم رجل المخزن، حين يعمل في الحملات، على أجرة تساوي أجرة اليولداش الإنكشاري كما يحصل على الغنائم. يُعفى بالكامل من أعمال السخرة والجباية الشخصية. مقابل هذه الامتيازات يقوم فارس المخزن، أوالمخازني، بتقديم خدمات متعددة ويلعب الدور الرئيسي في شؤون الحرب، فهوالذي يقوم بقمع تمرد قبائل الرعية، كما يقوم بمساعدة مصالح الجباية في عمليات الإحصاء، وفي عمليات التحصيل[2].

---

[1]- فيدرمان وأوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 300.

[2]- هايدو . طبوغرافية والمرجع السابق عدد 14 ص 493 و494.

كان فرسان المخزن يتواجدون مع قبائلهم في المناطق أوالنقاط الإستراتيجية حول الأبراج والحصون لدعم الحاميات التركية، كما هوالشأن بالنسبة لعمراوة بالقرب من برج سباو، وبالقرب من الجسور والممرات، مثل عريب بالقرب من ممر سور الغزلان وبوحاون بالقرب من مضيق وادي جر، ودايرة الزناتية التي تراقب ممر رأس العقبة بين قالمة وقسنطينة، وبالقرب من الأسواق ومطامير البايليك، مثل سوق العثمانية الذي تراقبه دايرة الصحراوية، ومخزن بوصلاح، وعند محطات القونلق الموجودة على الطرق الرئيسية، مثل مخزن بوحلوان، ومخزن أولاد السحاري، وعزارة وزمالة الحاج على الطرق الرابط بين الجزائر ووهران، أومخزن الغرازلة ودايرة بوصلاح على الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر وقسنطينة، وفي النقاط التي تمر بها المحلات الفصلية أوالمحلات التي تُسيّر لتأديب المتمردين، وفي النقاط المهددة من الهجمات الإسبانية والمغربية، مثل السهول الوهرانية التي استقرت فيها الدواير والزمالة[1].

إذا انطلقنا مما أورده لويس رين من إحصاءات حول الجماعات المحاربة سنة 1830، وعددها 89 جماعة، 19 منها في دار السلطان و9 في بايليك التيطري و36 في بايليك الغرب و25 في بايليك الشرق[2]، وإذا استثنينا جماعات الإنكشارية والصبايحية، فإننا نجد أن الجماعات المخزنية يبلغ عددها حوالي الستين جماعة.

القوم:

القوم مقاتلون فرسان بصفة عامة، توفرهم القبائل وخاصة القبائل الحليفة للأتراك مثل المقاتلين الذين يقودهم أولاد مختار، ومقاتلي المواية والتيطري في بايليك التيطري، والمقاتلين الذين يقودهم

1- فيدرمان ولوكليتان. المرجع السابق عدد 11 ص 357.

2- نفسه ص 359 و360

أولاد أمقران أثناء فترات السلم مع الأتراك ومقاتلي فرجيوة، والقبائل الرعية الخ. وهؤلاء القوم الذين يشاركون في المعارك إلى جانب الأتراك أوالقوات النظامية، لا يحصلون إلا على الغنائم.

البحرية:

البحرية هي القوة الأولى التي تشكلت حولها القوات البرية في الجزائر. تكونت نواتها الأولى من الذين جاء بهم الإخوة بربروس من بحارة وسفن من المشرق. بعد أن أقام الإخوة سلطتهم في الجزائر اهتموا كثيرا بتنمية وتطوير هذه النواة من الناحية المادية والناحية البشرية، إلى أن أصبحت الجزائر تملك أسطولا لا يستهان به في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي في القرن الأول من الوجود التركي في الجزائر، لكن تطور الأساطيل الأوروبية الناجم عن النهضة ثم الثورة الصناعية قلل من أهمية هذا الأسطول.

بخلاف السفن الكبيرة التي اعتمدتها البلدان الأوروبية في الرحلات التي كانت تنظمها، بعد الاكتشافات الجغرافية الكبرى، لأجل استعمار القارتين الأمريكية والأسترالية وإقامة المراكز التجارية على سواحل قارتي إفريقيا وآسيا،وكانت البحرية الجزائرية، شأنها شأن بحريات بلدان المغرب، تعتمد على أسطول له مميزاته الخاصة التي حددتها وظيفتاه المتمثلتان في القرصنة والدفاع عن السواحل. إذا كانت الوظيفة الأولى قد استمر الأسطول يؤديها إلى نهاية السلطة التركية في الجزائر، فإن الوظيفة الثانية لم يعد قادرا على تأديتها بشكل ناجع بسبب التطور الهائل الذي عرفته البحرية الحربية الأوربية.

لقد عدّد مولاي بلحميسي مميزات هذا الأسطول في النقاط التالية:

1. الاعتماد على السفن الصالحة للقرصنة والدفاع عن سواحل وذلك بالتخلي عن السفن الضخمة البطيئة التي لا تصلح للمناورة أثناء المعركة.

2. اعتماد أولوية السرعة.

3. التخلي عن المدافع الضخمة.

4. الاهتمام بالكفاءة الهجومية، التي يجب أن تكون أعلى من كفاءة العدو، سواء تعلق الأمر بالرجال أوبالسلاح.

السفن الصالحة لمثل هذا الأسطول هي الغليوطات[1]. والغليوطة هي مركب لا يتعدى عدد مصاطبه 25 ومدافعها حوالي 20 ولا يتجاوز عدد بحارتها الثلاثين.

مصادر الأسطول:

كانت مصادر هذا الأسطول، من السفن والعتاد البحري، متعددة، منها ما هومحلي ومنها ما يأتي من القرصنة والهبات، خاصة من الدولة العثمانية، والبلدان الأوربية بما تقدمه من إتاوات في شكل عتاد.

الكثير من قطع الأسطول كانت تُبنى في الجزائر. استعمل في بنائها أخشاب من منطقة شرشال إلى أن نفذت، في أواسط القرن السابع عشر، فتم تعويضها بأخشاب غابات بجاية. في سنة 1702 توصل الأتراك إلى اتفاق مع المقرانيين في مجانة، تعهد فيه الأخيرون بتوفير الأخشاب مقابل حصولهم على أراضي زراعية في المناطق الواقعة بين سطيف وواتي زناتي. أنشئت مصلحة خاصة بهذه الأخشاب عُرفت باسم (الكراست)، كان مقرها بجاية وضُمت إليها جيجل والقل[2]. كلمة الكراستة التركية تعني الألواح وغيرها من القطع الخشبية.

---

[1]- سعيدوني. الجزء الأول. المرجع السابق ص 107 و110.

[2]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 43 ص 122.

أجود الأخشاب هي أخشاب الزان التي تتوفر، بصفة خاصة، لدى بني فوغال غرب مدينة جيجل، لكن بني فوغال كانوا مستقلين عن السلطة التركية. لجأ الأتراك إلى المرابطين لإقامة علاقات ودية معهم للحصول على ما يلزم من الأخشاب،منذ 1750. طلب الأتراك عون المقرانيين من ذرية المرابط محمد المقراني، الذي كان قد تعاون معهم في بجاية، بعد الأزمة التي عرفتها إمارة أمقران بني عباس في مطلع القرن السابع عشر. لقد حتّموا على سي الحاج المكي بن الشيخ عبد القادر أمقران بن محمد المقراني الإقامة في جيجل. تمكن سي الحاج أحمد المكي، الذي أصبح مرابط جيجل، بدعم من الأتراك، من إقامة علاقات حسنة مع حبيلس بن عون قائد بني فوغال. وبذلك أمكن للأتراك الحصول على الأخشاب مقابل تقديم أراضي لبني فوغال في الدهمشة وطلحة وحموية وأولاد عنان في فرجيوة، وأراضي أخرى في ضواحي قالمة، حيث لازالت منطقة كاملة تحمل اسم بني فوغال إلى اليوم[1].

في السنوات الأخيرة من حياة السلطة التركية، تخلى الأتراك عن استغلال الغابات واحتكار التجارة، التي تتم في بجاية مع سكان بلاد القبائل، للدار اليهودية للتجارة في مدينة الجزائر، التي التزمت بدفع إتاوة كبيرة للدايات. لكن اليهود لم يتعاملوا مع سكان القبائل إلا بواسطة وكلاء[2]. في عهد الداي حسين، وقع خلاف كبير بين بني فوغال والوكالة اليهودية، فقد بقيت كمية معتبرة من الأخشاب، طلبتها الدولة، متراكمة على شاطئ تازة، لأن بني فوغال رفضوا تسليمها بسبب عدم دفع ثمنها من طرف وكيل اليهودي بكري، بالشكل الذي تعوّد عليه الجميع وبالسعر المناسب[3]. ولعل ذلك كان سببا من الأسباب التي

---

[1]- بلحميسي. المرجع السابق ص 49 و50.

[2]- نفسه.

[3]- فيرو. استغلال غابات الكراستة. المرجع السابق عدد 13 ص 38-44.

جعلت الداي المذكور يقرر استغلال غابات الزان في جبل تامغوت التابعة لبني جناد في بلاد القبائل الكبرى، فكان هذا القرار مدعاة لاصطدام بني جناد بالقوات التركية، كما رأينا سابقا.

لقد استعمل الأتراك في تهيئة القطع الكبيرة لسفنهم في باب الوادي، والقطع الصغيرة في باب عزون، مختلف الاختصاصيين من الأهالي ومن الأوربيين، سواء من الأسرى أومن الذين جاءوا إلى الجزائر لهذا الغرض. هناك قطع عديدة كانت تستورد مثل المسامير، المراسي، الأشرعة، الحبل وبعض أنواع الأخشاب الغير متوفرة في الجزائر. كما كانت الغنائم التي كان يحصل عليها القراصنة موردا آخر لما تحتاجه البحرية، وكذلك الإتاوات العينية التي تدفعها بلدان أوربا مقابل السلم. كانت السويد والدانمارك تقدمان خشب الشمال، وكانت هولندا تقدم الأخشاب والأشرعة وتجهيزات مختلفة، وكانت دول عديدة تقدم المدافع والبارود والذخيرة والحديد والصلب والكبريت وملح البارود والزفت الخ. هذا إضافة إلى الهبات التي يقدمها السلطان العثماني. كما كانت صناعة السفن تتغذى على ما يأتي به المهربون وما يجلبه اليهود الجزائريون المختصون في الإتيان بأسلحة من هولندا. وكان تجار ليفورنة يوفرون عتادا متنوعا. وكانت (دار البارود)، بالقرب من باب عزون، وهي تتوفر على فرن واحد تصنع مدافع[1].

كان الرياس يحصلون، من جهتهم، على السفن المختلفة في عرض البحر. منها ما كان يعاد إلى أصحابه مقابل الفدية أونتيجة تسويات سياسية، ومنها ما كان يُضم إلى الأسطول. في الفترة ما بين 1613 و1621، وقعت أكثر من ثمانمائة سفينة بين أيديهم وفي الفترة ما بين 1630 و1634 استولوا على 80 سفينة فرنسية، كان على متنها 1331

---

[1]- نفسه ص 45 و 46.

شخصا، أصبحوا من الأسرى والعبيد وفي سنة 1618 فقد استولى هؤلاء الرياسعلى حوالي 30 سفينة فرنسية، على متنها ثلاثمائة رجل. في الفترة ما بين 1765 و1799 استولوا على 376 سفينة، وفي الفترة ما بين 1817 و1827 استولوا على 26 سفينة. السفن المُستولى عليها ولا تقع تسوية أمرها مع أصحابها ولا تُضم إلى البحرية الجزائرية، تُباع من طرف اليهود في أوروبا أوتباع من طرف القناصل[1].

مثلما كان الرياس يستولون على سفن البلدان الأوروبية كانوا يفقدون سفنهم هم كذلك. في عام 1620 استولى بوليوبيرساك على أربع بوارج جزائرية، وفي السنة الموالية أغرق ثلاثا منها. في شهر أوت من سنة 1665 أغرق الدوق دوبوفور سفينتين واستولى على ثلاث[2] الخ. كان الأسطول الجزائري يفقد من قطعه في المعارك التي تنشب نتيجة حملات الأساطيل الأوروبية على السواحل الجزائرية وعلى مدينة الجزائر بالخصوص، كما كان يفقد من قطعه في المعارك التي كان يشارك فيها إلى جانب الأسطول العثماني، كما هوالشأن في معركة ليبانطو.

تطور الأسطول:

من الصعب تحديد حجم الأسطول الجزائري في العهد التركي، في غياب إحصائيات دقيقة تسمح بتتبع تطوره، والحركة السريعة التي عرفها نتيجة أعمال القرصنة والمعارك التي خاضها، والتي كانت تؤدي إلى استئصاله أحيانا.

كانت النواة الأولى لهذا الأسطول السفينتان اللتان جاء على متنهما عروج وإخوته وبحارته من المشرق إلى المغرب، في بداية القرن السادس عشر. في سنة 1509 أصبح تحت تصرف عروج حوالي ثماني

1- نفسه.

2- بلحميسي. المرجع السابق ص 49-53.

قطع بحرية. في سنة 1516 وظف حوالي 16 قطعة بحرية للانتقال من جيجل إلى مدينة الجزائر. وكانت تلك القطع تابعة له ولأصدقائه. تذكر بعض المصادر أن عدد قطع الأسطول الجزائري قد بلغت حوالي 60 قطعة سنة 1530، لكن خير الدين عند عودته من تونس، التي غزاها شارل كان سنة 1535 مستعملا حوالي 450 قطعة بحرية، لم يكن يملك سوى تسع قطع، فأمر ببناء ثماني قطع جديدة على جناح السرعة[1].

كانت حملة شارل كان على مدينة الجزائر، سنة 1541، ضربة كبيرة للأسطول التركي، الذي لم يظهر في مواجهتها، ورأينا كيف عمل حسن آغا على إعادة بناء الأسطول انطلاقا من السفن الإسبانية الخمس التي أعيد تعويمها، بعد أن غرقت في سواحل مدينة الجزائر، وكيف أرسل المال إلى ملك باديس يطلب بناء سفن جديدة. في سنة 1553، جهز صالح رايس 40 قطعة بحرية، سار بها في حملة على جزيرة ميورقة وتمكن من الاستيلاء على ست سفن برتغالية. استعمل حسن باشا بن خير الدين أسطولا من 40 قطعة في حملته ضد ملك فاس سنة 1557، كما استعمل 32 قطعة ضد الاسبان في وهران، وشارك في حصار مالطوسنة 1565 بحوالي 28 قطعة فقط، تاركا بقية الأسطول في ميناء الجزائر. كان علج علي يقود حوالي ستين قطعة بحرية في معركة ليبانطو[2] من 250 سفينة كان يتكون منها الأسطول العثماني، الذي واجه 300 سفينة من سفن الحلف المقدس. يذكر هايدوأن أسطول الأتراك كان يتكون من 35 غليوطة و25 فرقاطة سنة 1581.

لقد عرف الأسطول تطورا نوعيا في مطلع القرن السابع عشر نتيجة السفن المستديرة التي أدخلت إليه بفضل القرصان الفلندي

1- نفسه ص 54 و55.

2- نفسه.

سيمون دونسا، من جهة، وبفضل الهجرات الأندلسية وخاصة هجرات سنة 1609، من جهة أخرى. لقد أصبح الرياس قادرين على الولوج إلى المحيط الأطلسي لمراقبة طرق الهند وأمريكا، ولقد وصلوا إلى ماديرة وإسلندا وإنجلترا وغيرهما من بلدان أوروبا الغربية.

لقد أورد بلحميسي، اعتمادا على الأب دان، أن ميناء الجزائر كان به سنة 1630 ما لا يقل عن سبعين سفينة[1]. وهذا الرقم هو أعلى رقم عرفته البحرية الجزائرية على مدى ثلاثة قرون من وجودها. في سنة 1675، بعد معركة ليبانطو، لم تعد الجزائر تملك إلا ثلاث سفن وحوالي 30 بارجة حربية من أحجام مختلفة، أكبرها تحمل خمسين مدفعا وأصغرها تحمل عشرة مدافع[2]. في سنة 1724، كان هناك 24 بارجة للقرصنة، منها ما يحمل 50 مدفعا ومنها ما يحمل عشرة مدافع، إضافة إلى بعض الغليوطات المسلحة[3]. وحسب الدراسة التي أنجزها ألبير دوفولكس، تطور الأسطول هذا، من حيث عدد سفنه، كما يلي:

- 17 سفينة تحمل 100 مدفع و127 قاذفة حجارة في سنة 1737.
- 18 سفينة تحمل 177 مدفعا و251 قاذفة حجارة في سنة 1741.
- 12 سفينة تحمل 272 مدفعا و50 قاذفة حجارة في سنة 1750.
- 47 سفينة تحمل 58 مدفعا في سنة 1762.
- 13 سفينة تحمل 196 مدفعا في سنة 1770.
- 9 سفن تحمل 38 مدفعا في سنة 1775.
- 16 سفينة تحمل 335 مدفعا سنة 1800.
- 14 سفينة تحمل 320 مدفعا في سنة 1820[4].

---

[1]- دوفولكس. بحرية إيالة الجزائر. المرجع السابق ص 389.

[2]- نفسه ص 389 و390.

[3]- بلحميسي. المرجع السابق ص 63.

[4]- دوفولكس. بحرية إيالة الجزائر. المرجع السابق ص 391.

توضح هذه الأرقام التقهقر الذي عرفه الأسطول خلال القرن الثامن عشر، كما توضح تخلي السفن عن قلاذفات الأحجار التي لم تعد لها أية فائدة أمام تطور البحرية الأوربية، كما توضح الضعف من حيث المدفعية، فهي في المتوسط تتراوح بين ستة مدافع و23 مدفعا للقطعة الواحدة، وهذا العدد ضعيف إذا قورن بما كانت تحمله سفن الأساطيل الأوربية.

يفسر بلحميسي هذا التقهقر بالعوامل التالية:

- الخسائر المادية والبشرية المتزايدة الناجمة عن الغنائم المسيحية.
- الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر في سنوات 1775، 1783 و1784، التي ألحقت أضرارا بالغة بهذا الأسطول.
- الهجوم الإنجليزي – الهولندي على مدينة الجزائر سنة 1816، الذي خرب بالكامل تقريبا، السفن التي كانت راسية في ميناء مدينة الجزائر، الميناء الرئيسي لهذا الأسطول، ولم يسلم من هذا التخريب سوى قطعتان بحريتان كانتا في وهران.
- إلتزام الجزائر بتقديم دعم للأسطول العثماني في حروبه ضد روسيا والحلف المسيحي واليونانيين، فالكثير من السفن الجزائرية لم تعد من المشرق[1]. ولا بد هنا من الإشارة إلى نقطتين هامتين هما:
- إن السلم مع إسبانيا قد جعل القرصنة صعبة لأن الرياس لم يعودوا يهاجمون السواحل الإسبانية، من جهة، ومن جهة أخرى، سلحت نابل سفنها التجارية وكذلك فعلت مالطة، وأخذ البرتغال يراقب المضيق صيفا وشتاء، فلم يبق للرياس سوى سواحل إيطاليا، حيث أخذ الجنويون يتجندون ضدهم. تقهقر القرصنة أدى بالأتراك إلى التوجه إلى الزراعة[2].

---

[1]- نفسه ص 394.

[2]- نفسه ص 396 – 418.

- إن الأساطيل الأوروبية قد تطورت كثيرا خلال القرن الثامن عشر بفعل الثورة الصناعية. وقد توج هذا التطور بإنشاء السفينة البخارية سنة 1807. لهذا نقول إن البحرية الجزائرية (والبحرية العثمانية كذلك) كان محكوما عليها بالإعدام مادام المجتمع الجزائري نفسه لم يدخل هذه الثورة الصناعية.

يختلف الأسطول الجزائري عن الأساطيل الأوروبية من حيث أنه لا يخضع لتنظيم عسكري محكم، ويعتمد على التجربة، وبحارته لا يعرفون أي تدريب منظم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تعود ملكية مراكبه لجهات متعددة، الشيء الذي يفقده الوحدة والانسجام.

ملكية الأسطول:

يذكر بارادي أن الإيالة كان لها حوالي 11 سفينة سنة 1788، يملكها البايليك وكبار الإيالة والخواص[1]. لكن للداي سلطة مطلقة على أصحاب السفن، إذ يمكنه أن يُجبرهم على نقل حاميات المدن ومؤنها، وهم مجبرون على أن يمتثلوا لأوامره وأن يكونوا دائمي الاستعداد لخدمة السلطان العثماني. مقابل هذه الالتزامات تحمي السلطة السفن الخاصة تجاه القوى الأجنبية[2]. كانت ملكية السفن والمراكب تعود لمختلف الأشخاص من مختلف الطوائف، مثل الرياس، حيث نجد بتشين يملك عددا منها، كما كان يمتلك منها حضر مدينة الجزائر، بل حتى النساء واليهود كانوا يملكون قطعا من أسطول الجزائر هذا.

كانت السفن تحمل على متنها، بالإضافة إلى العبيد المسيحيين المكلفين بالتجديف، أشخاصا من مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية الأعراق، من الأتراك، من الأندلسيين ومن الأوربيين الأعلاج، لكن

---

[1]- بلحميسي. المرجع السابق ص 64.

[2]- بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 73.

يبدوأن العنصر المهيمن هوعنصر الأرناؤوط أوالألبان. لعل هذا ما أراد أن يثير إليه بارادي حين قال: "كل من هوملحق بخدمة البحرية يستلم أجرته من البحرية، فترسل النقود إلى الأميرال الذي يوزعها، إنه بابا علي الذي أدخل هذا الأسلوب، لأنه كان هناك الكثير من الدايات قتلوا من أهل البحرية كانوا كلهم أرناؤوط". ولهذا، ومنذ مقتل بابا محمد الطورطووالخزناجي لم يعد للأرناؤوط أي تكليف في البحرية[1]. لكن البحرية مفتوحة أمام الأهالي، خلاف الإنكشارية، وقد اشتهر من هؤلاء الأهالي البحارة الرايس حميدومن بلاد القبائل، وكنا قد تعرضنا له سابقا.

لم يكن الأسطول الجزائري قادرا على مواجهة الأساطيل الأوروبية الضخمة المجهزة بأحسن الوسائل والمدافع، لكنه كان يملك قدرة كبيرة على الحركة والسرعة فيفلت من قبضة هذه الأساطيل التي كانت تجوب المحيطات. لهذا كان الأوربيون يوجهون هجماتهم ضد مدينة الجزائر، التي كان ميناؤها الرئيسي للأسطول ولهذا كانت هذه المدينة تأوي أغلب الإنكشارية والبحارة، وكانت أكثر المدن تحصينا واستعدادا للمواجهة.

تحصينات مدينة الجزائر:

لما كانت الهجمات الموجهة ضد مدينة الجزائر هجمات بحرية فإن تحصينات المدينة كانت على السواحل، بعكس حال التحصينات التي أقامها الإسبان في وهران والتي كانت موجهة نحوالبر. أهم القلاع أوالأبراج في مدينة الجزائر ومحيطها هي:

1- برج الكيفان، الذي يُعتقد أنه بُني في عهد الداي محمد باشا أفندي، في 1722-1723.

---

[1]- نفسه عدد 39 ص 21.

2- برج تمنتوفوست، الـذي شُـيد في عهـد رمـضان آغـا في سـنة 1661 في المكان الذي أقلع منه شارل كـان هاربـا سـنة 1541. بعـد أن تعـرض لقـصف دوكـين في سـنتي 1682 -1683، أعـاد بنـاءه الـداي ميزومورطوسنة 1685.

3- برج الحراش، الذي شيده يحي آغا سنة 1827.

4- برج باب عزون (برج رايس تافورة)، الـذي بـني سـنة 1573 من طرف أحمد عراب، وأعاد بنـاءه مـصطفى باشـا، كمـا أدخلـت عليـه إصلاحات سنة 1804.

5- برج الإنجليز، الذي شيده علي آغا في 1669-1670 لحراسـة خليج باب الوادي.

6- البرج الجديد، بالقرب مـن القـصبة، الـذي بُـني في 1773-1774، في عهد محمد إبراهيم.

7- برج باب الوادي أوبرج علج علي، الذي شُيد في 1569.

8- برج الإمبراطور (برج كدية الصابون أوبرج مـولاي حـسن)، الذي شُرع في بنائه سنة 1545 وأُدخلت عليه إصلاحات سنة 1656.

9- برج النجمة، بالقرب من القصبة، الذي بُني سنة 1568.

10- برج (ما بين) الذي شيد في مدينة الجزائـر في عهـد الـداي حسين.

11- برج الأندلسيين وقد شُيد في القرن السادس عشر، بالقرب من باب البحر.

12- القصبة التي تم الانتهاء من بنائها في سنة 1592.

13- برج الفنار، الذي بني في البنيون سنة 1573، في عهـد أحمـد عراب[1].

---

[1]- بلحميسي. المرجع السابق ص 57.

الفصـل الأول

مقاومة الأمير عبد القادر

أمام السهولة التي احتل بها الاستعمار الفرنسي الجزائر، لسوء وضعف تنظيم جيش الداي حسين، الذي يعد أن خسر معركة واحدة بسطاوالي لجأ إلى التفاوض قصد الاستسلام والرحيل بعائلته التركية إلى نابولي ثم إلى تركيا، محملا بالذهب والممتلكات والجواري، الأمر الذي تم له، وكان الاتفاق مبرما ضمنيا من قبل.

هذه السهولة قابلها الكثير من الإحباط واليأس الذي ألم بالجزائريين الغيورين على سيادتهم وكرامة شعبهم ومن هؤلاء وطينة الأمير عبد القادر بن محي الدين الذي اشتهر بسمعته الحسنة، والذي ولد في عام 1807 بالقيطنة القريبة من مدينة معسكر، ثم تكون بها وانتقل إلى وهران أين أتم دراسته.

كان يرافق والده محي الدين وحضر إلى جانبه، فض عدة نزاعات بين القبائل نتيجة تعسف وتجاوز الأنظمة التركية الحاكمة وقتئذ في الجزائر.

ثم عايش الاحتلال الفرنسي للجزائر، ورأى من المجازر والتقتيل والظلم ما فاق كل خيال، حيث دنست المساجد والحرمات وصودرت الممتلكات لمعارضة أصحابها للاستعمار، وقتل ونكل بالأبرياء لمجرد الاشتباه بهم.

بعد أن أتم دراسته في معسكر وفي وهران زار المشرق العربي واستقر حينا من الزمن في القاهرة ودمشق وبغداد والسعودية ثم قام بأداء فريضة الحج رفقة والده عام 1825 م.

في البداية وللظروف الصعبة التي كان يعاني منها الشعب الجزائري وأمام هول وجرائم الاستعمار الفرنسي الصليبي في أرض الإسلام والمسلمين اتجهت الأنظار إلى محي الدين والد الأمير عبد القادر.

اختاره العلماء والأعيان لتحمل مسؤولية الجهاد لإنقاذ البلاد التي احتلها الاستعمار الفرنسي الصليبي الغادر وقتل أحرارها الذين عارضوه في احتلاله.

وبعد أن بدت أطماع الاستعمار الفرنسي في التوسع والاستيطان تظهر في الميدان، بدت الرغبة في الجهاد بين الجزائريين، الذين توجهوا جميعا إلى محي الدين غير أن سنه وقوته أصبحتا غير كافية لإنجاز مهمة الجهاد وما يصبو إليه الشعب الجزائري من انتصار على الطغيان والظلم والاستعمار، فأشار على العلماء والأعيان بشخص ابنه عبد القادر الذي يتجلى بعدة صفات حسنة تؤهله لأن يكون قائدا وأميرا وإمام، فهو شاب وشجاع وصاحب تقوى وصبر ورجل علوم عسكرية وأدب وثقافة، علاوة على أخلاقه وذكائه وعدله.

حضي اقتراح الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر بالقبول والرضا والإقناع.

وفي الموضوع يتحدث الدكتور "زكرياء صيام" في كتابه "ديوان الأمير عبد القادر" عن الظروف التي مهدت وسبقت تاريخ المبايعة فيقول :

"حين اشتدت الحاجة إلى رجل يقود الجهاد.. واجتمع الأشراف والعلماء والأعيان... فقدموا على السيد محي الدين والد الأمير عبد القادر وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة، فاعتذر على القبول لكبر سنه... وقدم لهم ابنه الأمير عبد القادر لما أنس فيه من مقومات القيادة والصلاح... وعلو المهمة".

ومما لا شك فيه أن ظروف الجزائر الصعبة حيث تعرض شعبها الأبي المسلم، العربي إلى الطغيان والاستبداد والانتقام من طرف جيوش الاحتلال الفرنسية التي جاءت من أوروبا تجر أعلام الهزيمة راغبة في تحويلها إلى نصر على حساب شعب صغير مسلم لا يتعدى 6 ملايين، مغلوب على أمره من قبل قراصنة أتراك استغلوه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا باسم الإسلام وخدعوه في نهاية المطاف.

في هذه الظروف الصعبة، ظروف التقتيل والمجازر التي خلفتها وحشية وبطش جيوش الاحتلال الفرنسي في الجزائر نال اقتراح الشيخ محي الدين بإسناد مهمة الجهاد ضد العدو لابنه الشاب الشجاع عبد القادر هذه الحادثة التاريخية وصفها محمود بن حوا المجاهري بما يلي:

"لما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط استولى العدو على مدينة الجزائر ومدينة وهران وطمحت نفسه العالية إلى الاستيلاء على السهول والجبال والفدافد والتلال، وصار الناس في هرج ومرج وحيص بيص، قام من وفقهم الله الهداية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعوه على الكتاب والسنة، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر، والكمال الطاهر ابن مولانا السيد محي الدين، فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم"[1].

إن إمارة عبد القادر بن محي الدين كانت شرعية ومعقولة، اجتمع عليها العلماء والأعيان وشيوخ القبائل وكافة أفراد الشعب الجزائري.

[1] - راجع : محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية ، دار نشر قسنطينة ، 1985 ، ص : 34 .

بدوابهم للدواوير على صفة الحضر المدسوسين بالدواوير البايعين للعطرية ومعهم مناطق من الجلود الفلالية إذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى وإذا وجدوا فرصة في الصغير أوالكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلا لوهران إذا اشتد عليهم الأمر وسّدت عليهم الطرق البرية يحملون فيها للاسبانيين ساير الخضر ونحوها"[1].

أصبحت كرشتل مهجورة منذ أن سحب الباي مصطفى بوالشلاغم سكانها، بعد أن رفع حصار 1733 الذي ضربه على وهران إثر استعادة الاسبان لها، لأنه اعتبر سكانها رعايا متعاطفين معهم. فنزح شيخ كرشتل البالغ من العمر سبعين سنة إلى وهران مع سكان آخرين[2].

في المنطقة الواقعة بين جامع بوحجر في الزيدور وقدم تاسالة كانت تقيم جماعة فرسان أولاد الزاير، يجاورهم شمالا أولاد خالفة. كانت أراضيهم أخصب من أراضي أولاد خالفة الواقعة في الزيدور على بعد 10 إلى 17 فرسخا إلى الغرب من وهران[3].

كان أولاد موسى بن عبد الله يقطنون تمزوغة، في سفح الجبل، يحدهم أولاد إبراهيم جنوبا وأولاد علي شرقا. كانت أراضيهم فقيرة تصلح للشعير أكثر من القمح[4]. كان أولاد علي يقيمون في الأراضي المحيطة بتمزوغة، من سيراط إلى السيق، يجاورون حميان شمالا وأولاد سليمان جنوبا، أراضيهم في تسالة خصبة، وفي وادي فيغة (سيراط) مروية وقد استولى عليها الباي بعد الانسحاب الأول للأسبان. لقد ظل

---

[1]- القورصوو ليبلزا. المرجع السابق ص 42.

[2]- نفسه.

[3]- المشرفي. المرجع السابق ص 199 و200.

[4]- القورصوو ليبلزا. المرجع السابق ص 42.

البايليك غاضبا من هذه الجماعة إلى غاية سنة 1740 حيث منحها أراضي بين عين البيضاء والزيدور[1]. جماعة أولاد علي "فرقة كبيرة يناهزون السبعين دوارا ولهم إذعان عظيم للاسبانيين ومحبة لليهود إلا أنهم ليسوا كإخوانهم أولاد عبد الله لأن أولاد عبد الله لهم بأس شديد دون أنفة وأولاد علي لهم بأس وأنفة وكانوا أهل إعانة شديدة للإسبانيين حتى غزوا بهم المرة بعد الأخرى على المسلمين بالكرط وغيره وكان فيهم جبار عنيد وظالم شديد فارس شجاع مطيع للكفر وللإسلام مناع يقل له رابح صولة... وكان أولاد علي ما يفوق المئتي فارس من الأعيان ومن غيرهم"[2].

جماعة الهبرة التي تتكون من فلاحين كانوا يملكون أراضي ضفتي الوادي الذي يحمل نفس الاسم، ويجاورون أولاد علي شرقا والجاهر شمالا وبني شقران شرقا وجنوبا. بعد الانسحاب الاسباني الأول استولى خليفة الباي على أراضيهم المروية. كان الجاهر يقطنون الجانب الآخر من وادي الهبرة وهم جماعة من الفلاحين يبعدون عن مستغانم بفرسخ واحد، يجاورون، في الجانب الشرقي من الوادي، جماعة بني غدووبني شقران[3]. يذكر المشرفي أن "هبرة والبرجية والجاهر وغيرهم من القبائل... لم يدخلوا تحت طاعة النصارى الإسبانيين أصلا وكان لهبرة حروب عظيمة مع الإسبانيين وسويد إلى أن تلاشوا"[4]. ويورد مترجم كتاب المشرفي أن هبرة فرع من فروع سويد مثل فليتة وشبابة والجاهر وأن سويد قد أبادت هبرة فأصبح عدد أفرادها قليلا فتوزعوا على مختلف القبائل، ولم يعد في إقليم الهبرة إلا دوار واحد يحمل اسم الهبرة وأن السبب في محاربة سويد

---

[1]- نفسه ص 43.

[2]- نفسه.

[3]- نفسه ص 44.

[4]- المشرفي. المرجع السابق ص 214.

ومن خلالها التزم الأمير بالإمارة والجهاد ضد الاستعمار الفرنسي المحتل الظالم، مقابل ما ردده الشعب المبايع له:

"حياتنا وأملاكنا وكل ما عندنا للأمير عبد القادر، لن نطيع قانون غير قانون سلطاتنا عبد القادر".

وكانت إجابة الأمير عبد القادر عن ذلك، بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن الكريم ولن يكون مرشدي غير القرآن الكريم، والقرآن وحده. فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات. "ومن ثمة فإن الراجح فقها وشرعا أن دولة الأمير عبد القادر انبثقت عن إرادة شعبية وبيعة شرعية استندت إلى طريقة الشورى وبواسطة أهل الحل والعقد في المجتمع الجزائري، وما تم في بيعة الأمير عبد القادر بالإمارة كان يجمع بين الشورى وبين الديموقراطية الحديثة الحقه.

ولقد تفطن الأمير عبد القادر بذكائه وتجربته وإخلاصه لوطنه ولدينه في جهاد ضد الاستعمار الفرنسي الصليبي أن أهم عامل من عوامل فلاحه في جهاده ضد العدو هو وحده الشعب الجزائري ودعم الإخوة في الداخل والأشقاء العرب والمسلمين في الخارج.

إن تواضع الأمير عبد القادر وعلمه وثقافته جنبه لقب السلطان واكتفى بلقب الأمير تفاديا لحزازيات السلاطين العرب والمسلمين.

وقد بين الأمير في أكثر من مناسبة لأتباعه الذين بايعوه بالإمارة قائلا لهم: "إذا كنت قد رضيت بالإمارة... فإنما ليكون لي حق السير في الطليعة والسير بكم إلى المعارك في سبيل الله"[1].

لقد قبل الأمير عبد القادر الإمارة في وقت الشدة والضيق، قصد رفع الظلم عن الجزائريين، ودفعا للفساد وإرهاب الاستعمار الفرنسي.

---

[1]- راجع : مضمون نصوص وثيقة البيعة ، المجلد 7 متحف المجاهد ، ص : 157 ، من كتاب محمد بن عبد القادر .

وبين أن الإمارة تعني الطاعة والولاء والالتزام بأحكام القرآن والسنة واجتهاد الراشدين الأوائل... والمساواة والعدل.

لقد أدرك الأمير عبد القادر وهو يتولى الإمارة والتي تعني الجهاد في سبيل الجزائر والإسلام أن مهمته ليست سهلة وأنه سيواجه الاستعمار الفرنسي المدجج بالسلاح والمدعوم بحلفائه الأوروبيين الصليبيين الحاقدين على المسلمين والعرب معا.

وأن حقد فرنسا ضد الإسلام والمسلمين لن ينطفىء بتقتيل الأحرار في الجزائر والدوس على المساجد والحرمات دون مراعاة أدنى حقوق الإنسان الأوروبي وليس الجزائري.

إن إجرام السلطة الفرنسية ومجازر جيوش احتلالها في حق الشعب الجزائري، لن تجد حدودا، ما دامت هذه الجهات فقدت ضميرها الإنساني، وفقدت الخوف من الله، وليس هناك رقيب عليها.

إن الاستعمار الفرنسي خدع الرأي العام الفرنسي والأوروبي وخدع الكنيسة المسيحية بادعائه أنه لم يستهدف احتلال الجزائر كدولة وشعب ذات سيادة ولكن فقط تأديب الإدارة التركية عن الإهانة بعد حادثة المروحة التي لحقت بفرنسا الدولة الكبيرة، لكنها المهزومة في أوربا من قبل جيوش بروسيا والمحاصرة من قبل بريطانيا.

إن الإدعاء والزعم إن حملتها العسكرية، هي حملة مسيحية وتبشيرية في أرض الإسلام لا يبعد عليها، هدف الانتقام من الإسلام والمسلمين ولا يبعد عليها العنصرية ضد العرب في الجزائر، وهذه جرائم ضد الإنسانية التي لا يسكن عليها الشعب الجزائري، الذي عرف عبر التاريخ بدفاعه واستماتته من أجل الإسلام والسيادة الوطنية والكرامة وهو ما اختاره الأمير عبد القادر في صراعه مع العدو الفرنسي المدجج بالسلاح وبالعنصرية الظالمة.

بدأ نشاطه العسكري باستخدام المباغتة في الهجوم على جيوش الاحتلال الفرنسي ومن خلال أسلوب حرب العصابات بوحدات صغيرة وفي مواقع جد صعبة جغرافيا وتكتيكيا لإرباك قواته وإرهاب ضباطه وجنوده.

مع استهدافه في أكثر من موقع العدو، الأمر الذي منع العدو من استغلال تفوقه في العدد والعدة.

وسبب انخفاضا معنويا في أفراد قواته، علاوة على ما غنمه الأمير وإتباعه من أسلحة وذخيرة وتجهيزات حربية ضرورية في معركته ضد الاستعمار الفرنسي.

هزائم متوالية للعدو في معارك حنق النطاح الأولى والثانية وبرج العين في المنطقة الوهرانية خلال عام 1832 م.

نعم لقد كان على الأمير وهو يؤسس لقيام دولة وطنية بتحديد أولويات العمل للمقاومة التي حصرها في:

1- توحيد الجزائريين حول مبدأ الجهاد لنصرة الإسلام والوطن.

2- تطهير الجبهة الجزائرية من الخونة والمتخاذلين.

3- مواجهة الاستعمار الفرنسي الصليبي والظالم.

التضييق على الفرنسيين في الجزائر لحملهم على الاعتراف بسيادة الجزائر كدولة والأمير قائدها.

تحقيق رسالة الإسلام في الجزائر، عدلا وتسامحا وتنمية بين جميع الجزائريين وجميع الذمم.

رفع المظالم على الشعب الجزائري كالمصادرة الاستعمارية لأراضيه وممتلكاته والضرائب على أرزاقه وتهجير أحراره.

تكوين دولة وطنية وإسلامية، لها جيشها وعلمها وعملتها وسيادتها.

التدعيم الخارجي لها من الأشقاء والأصدقاء.

لقد خطط الأمير عبد القادر وقيادة أركانه السياسية والعسكرية على ضرورة تعميم المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في جميع المناطق الجزائرية قصد تحريرها.

وشمل نضاله القومي، استهداف أعوان الاستعمار الخونة الذين يمدونه بالمعلومات ضد أبناء وطنهم للثوار المجاهدين.

ولأن الأمير رأى أن تأديب الخونة بين الجزائريين المنسلخين عن عقيدتهم وهويتهم سيؤدي إلى حرمان الاستعمار الفرنسي من استخدام أجهزته المخابراتية وبالتالي وحداته العسكرية المعتدية.

إن الأمير يفضل حرب العصابات والكمائن بدل مواجهة العدوالذي يملك فن الحرب المواجهة التي لم يتفوق فيها عليه إلا جيوش بروسيا الجرمانية في أوروبا.

لقد رغب الأمير في قتل العدو وفعل ولكن دون المواجهة المنظمة، حفاظا على قواته وأسلحته وذخيرته الغير المعوضة بسهولة وحفاظا على وحدة وتعاون القبائل تحت قيادة ورعايته وبذلك ربح المزيد من الوقت لتنظيم دولته وجيشه وعصرنتهما.

وعلى الرغم من التدعيم الكبير في عدد المجاهدين الجزائريين والمسلمين الذين التحقوا بجيشه حتى من خارج الجزائر من الدول العربية الشقيقة مثل قبائل الأرياف بالمغرب وتونس ومن الدول العربية والإسلامية لكنه تألم كثيرا للنقص الكبير في تدعيم دولته بالسلاح والذخيرة للانتصار في ثورته على العدو الفرنسي الظالم لقد حرم بفتوى إسلامية على كافة الجزائريين التعاون مع الاستعمار ومنع كل أشكال التعامل معه، وهدفه تضييق الخناق عليه في المدن الساحلية، لعله يعود من حيث أتى.

لقد حدد الأمير عبد القادر مهمة جهاده، أن هدفه الأساسي هو الإصلاح والعدل، وفعل الخير، ما دام حيا ولأن ثقة الأمير كانت في الله، ومنه وحده كان يرجو الجزاء والنجاح[1].

استطاع الأمير عبد القادر بفضل جيش شبه نظامي والذي بلغ قرابة 60000 رجل أن يوجه ضربات قاتلة ومرهبة لجيوش الاحتلال ولأعوانه الخونة، الأمر الذي مكنه من نشر الأمن والثقة في النفس في ربوع دولته الوطنية. مما حمل الاستعمار الفرنسي على إبرام معاهدة ديميشل "Dixmichels" والتي جاء في مضمونها التزام الطرفين على وقف القتال والاعتراف بسيادة دولة الأمير وسلطته على إقليم منطقة الغرب الجزائري باستثناء مدن وهران وأرزيو ومستغانم، كما تضمنت حرية التجارة بين الجانبين.

ونظرا لحاجة الأمير عبد القادر إلى مزيد من الوقت لتأسيس دولته وتكوين جيشه، خاصة بعد أن اكتشف عدم كفاءة جيشه لمواجهة الجيش الفرنسي المنظم والمسلح بأعتى أسلحة أوروبا.

وبعد أن نجح في تأديب الكثير من الخونة ومنعهم من التعاون مع العدو. استطاع توحيد القبائل خاصة في الغرب الجزائري ولو أنه تألم كثيرا لسلوك الباي أحمد حاكم قسنطينة الذي رفض التعاون معه ضد الاستعمار، بل والذي حاول إعاقة عمله الثوري ضد الاستعمار الفرنسي بالاتصال بالسلطات العثمانية وطلب ولائه شماتة في الأمير عبد القادر الذي اعتبره عربيا والأولى بالسلطان التركي أن يساعد الأتراك في الجزائر أي الباي أحمد.

---

[1] - راجع : شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة. أبو القاسم سعد الله ، ص : 60.

تألم أيضا لعدم الاستجابة الواسعة للجهاد من قبل شيوخ القبائل بمنطقة القبائل، وبالشرق الجزائري وبالجنوب وكان يعلم أن الاستعمار سيفترسهم في يوم الواحد بعد الأخر.

ومهما يكن فإن الأمير عبد القادر كان أول من كون جيشا وطنيا منظما وموحدا.

اهتم الأمير عبد القادر بكل مجالات الدولة الوطنية العصرية، بالإدارة بالثقافة، بالتكوين العقائدي والسياسي والعسكري، وبالتنمية الاقتصادية والاجتماعية للشعب الجزائري، ويكتفي الأمير فخرا أنه كان الأول من بين المقاومين الثوريين الجزائريين الذي طالب بوحدة الجزائريين وبوحدة التراب الوطني[1].

إن الأمير عبد القادر تجاوز غيره من الثوار في الجزائر الذين توقفت جهودهم عند حدود القبيلة والمنظمة إلى بناء دولة وتكوين مؤسسات قوية تليق بها.

استفاد الأمير عبد القادر من معاهدة ديميشال التي وقعها مع ملك فرنسا والتي شكلت اعترافا صريحا لدولته واعتراف السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام به كقائد وبدولته الوطنية الجزائرية مؤكدا ذلك.

ولما تزايد نفوذ الأمير واتسع حجم المقاومة بين الجزائريين فكر قادة الاحتلال المغامرين وكان على رأسهم الجنرال تريزل بنقض بنود المعاهدة، من خلال تحريض وتشجيع بعض القبائل التي شكلت طابورا خامسا كون نواة حزب فرنسا في الجزائر على التمرد ضد الأمير ودولته، وتوفير الحماية لهم، مما حتم على الأمير رغم حاجته إلى مزيد من فترة السلم للاستعداد للحرب لكنه اضطر إلى العودة إلى الجهاد ضد الخونة والمرتدين من القبائل وكان في طليعتهم الخائن موسى بن الحسين

[1]- راجع : شارل هنري تشرشل ، المرجع السابق ، ص : 62 .

المعروف بأبي حمار الذي استولى على مدينة المدية التابعة لدولة الأمير مدعيا أنه المهدي المنتظر، وأن الرصاص لا يؤثر فيه، غير أن قوات الأمير هاجمته وقضت عليه وعلى عصاباته الخائنة خلال عام 1835 م.

الأمر الذي أثر في الجنرال تريزل قائد الاحتلال في الغرب الجزائري معتقدا أن كثرة الخيانات والتمرد التي نسجها بمكره وسوء نيته بين بعض شيوخ القبائل وزعمائها أنهكت الأمير عبد القادر وأثرت في مجهوده الحربي بينما الأمير عبد القادر ظل يراقب تحركات جيش الاحتلال واتجاهه لاصطياد المجرم تريزل وأتباعه إلى أن بلغ الموقع المعروف بالحميان ومستنقعات المقطع، بالقرب من مدينة سيق 17 جوان 1835 والتي سماها الفرنسيون في كتاباتهم بـ : "مأساة المقطع" لما ألحقته بهزيمة ثقيلة لجيوشهم، وبهدلت بمجرمهم الجنرال تريزل وزادت شهرة للأمير ونفوذا.

وتعود خلفيات معركة وادي المقطع بين جيوش الاستعمار الفرنسي وجيش دولة الأمير عبد القادر إلى تدخل بعض الجهات الفرنسية والأوروبية الضاغطة على السلطة الفرنسية في باريس التي لم ترضيها نتائج معاهدة ديميشل المنعقدة بين ملك فرنسا والأمير عبد القادر قائد دولة الجزائر الوطنية بتاريخ : 21 فبراير 1834 م والتي كرست سيادة دولة الأمير واعترفت بها رسميا.

هذه الأوساط الضاغطة كانت عنصرية وترى في قيام دولة الأمير عبد القادر خطرا على الغزو الفرنسي في الجزائر، ولأن نظرتها كانت تدعيم التوسع الاستعماري الأوروبي للحصول على فضاء دولي لدعم النهضة الصناعية الأوروبية، ولتصريف البضائع والسلع المصنعة وللحصول على الأسواق والمواد الخام واليد العاملة الرفيعة في دول الجنوب، والمستهدف كان إفريقيا.

إذن هذه النظرة كانت رأسمالية إمبريالية توسعية إلى هيمنة وتوسع الاستعمار الأوروبي، ليس فحسب الفرنسي ولكن تحرض وتشجع بقية دول أوروبا الأخرى مثل بريطانيا وهولندا وأسبانيا والبرتغال وايطاليا على الحذو شبيها بفرنسا وهو ما تم فيها بعد.

إذن احتلال الجزائر كان مبرمجا ضمن خطة استعمارية أوروبية باعتبارها بوابة غنية تفتح الشهية لمزيد من الاحتلال والاستحواذ على أقاليم إفريقية أخرى.

هذه النظرة الأوروبية الضاغطة سلبا على فرنسا كانت ترى في احتلالها للجزائر فتحا مبينا وهدية ربانية لأوروبا المسيحية، بينما كان الجزائريون العرب يرون ذلك عنصرية وانتقام ضدهم لما قاموا به أجدادهم العرب في الأندلس وأوروبا من بناء وحضارة وتمدين لا زالت أثاره شامخة إلى اليوم.

نعم لقد عبر الجنرال المجرم الفرنسي تريزل عن هزيمته الثقيلة أمام جيش الأمير عبد القادر في رسالة وجهها إلى الوالي العام تضمنت ما يلي :

"لقد أخفت هذه المعركة المهلكة، وأخفت آمالا كانت تبدو معقولة، ولكنه كان من الضروري الحصول على النصر لكي يتحقق، ليس من شك في أني بالغت في تقدير قوتي، كما بالغت في عدم تقدير قوة العرب، ومهما يكن من شيء فإني أعاني من ثقل المسؤولية التي أقدمت على تحملها، وأنا على استعداد لأن أتقبل اللوم دون النطق بكلمة، وكذلك كل إجراء صارم ترى حكومة الملك أنه من الضروري اتخاذه في حقي[1].

---

[1]- راجع : اسماعيل العربي ، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، المرجع السابق ، ص : 99

اعتراف الجنرال الفرنسي دليل كافي لتحديد قوة جيش الأمير وبراعته.

ومهما يكن فإن هزيمة الجيش الفرنسي في معركة وادي المقطع أفنت قرابة 500 جندي فرنسي وأكثر من 1000 جريح.

هزيمة هزت الرأي العام الفرنسي وحركت المعارضة بشدة في فرنسا وكادت أن تسقط حكومة باريس التي تدخلت لتخفيف الصدمة ورد الاعتبار لسلطة فرنسا ومهابة جيوشها في مواجهة ما تعتبرهم بالخارجين عن القانون، والحقيقة هم المظلومين والمعذبين في الأرض : حكومة باريس عزلت الحاكم العام وحاكم وهران وعينت بدلهما الجنرال كلوزيل "clouzil" وبيجو " Bigeoud".

الجنرال كلوزيل المجرم المعروف بوحشيته وكراهيته للمسلمين ابن بائع البيض في فرنسا، عين من قبل سفاكي للدماء في فرنسا الاستعمارية قصد الانتقام للمرتزقة الذين قتلوا في معركة وادي المقطع، أقسم اليمين الثلاثة المسيحية بالثأر لكل المسيحيين الذين ماتوا في الجزائر دفاعا عن فرنسا وحتى لا أقول عن شرف فرنسا لأن فرنسا فقدت شرفها وعذريتها أمام جيوش بروسيا الجرمانية التي اغتصبتها وهتكت عرضها في أكثر من مرة ثم بعدها جيوش النمسا وجيوش روسيا.

إذن لم يعد لها شرف بل صارت فرنسا المهتوكة العرض في أوروبا لكنها السيدة في الجزائر التي خدعت من قبل الإدارة التركية.

الجنرال كلوزيل ابن بائع البيض يهاجم الأمير عبد القادر في معسكر عاصمة دولة الأمير خلال ديسمبر عام 1835 للانتقام منه والقضاء عليه.

يدخلها ثم يخرج منها، لكن دون أن يعثر على الأمير عبد القادر، الذي انسحب إلى مكان آخر عاصمة أخرى صارت أعدمت لظروف الثورة غرب تيارت.

ثم تابع غزواته لملاحقة الأمير ودخل تلمسان في جانفي 1836 وبمساعدة بعض الخونة من حزب فرنسا احتلها، وداس مساجدها وديارها ومس شرف أهلها لأنه حقير ولم يكن إلا ابن بائع بيض في فرنسا المسيحية الصليبية، فكيف له أن يصون أعراض المسلمين.

خلال عمليات كلوزيل الحربية التي كانت تهاجم جيوش الأمير عبد القادر كانت قوات أخرى معتبرة يقودها سفاح آخر هو الجنرال بيجو والذي لا يقل حقارة ونذالة يساعد كلوزيل في عمليات التمشيط للقوات المتبقية للأمير في أماكن القتال بمساعدة الخونة أو أعوان حزب فرنسا في الجزائر والذين لا يشفع فيهم أحد يوم الحساب.

وبسبب تعاون القوتين للجنرالين كلوزيل وبيجو، تم تطويق قوات الأمير عبد القادر في وادي سكاك غربي تلمسان وتم مطاردتها خلال جويلية 1936 م، لكن صمود ومقاومة جيش الأمير عبد القادر ظلت حاضرة في كل النواحي التي أقام فيها الأمير دولته الوطنية مما أعاق الفرنسيين في أحكام الاحتلال بالغرب الجزائري ولجؤوا إلى الحيلة كعادتهم فقرروا مهادنة الأمير عبد القادر بإبرام معاهدة التافنة في 30 مايو 1837. المعاهدة التي اعترفت للأمير بالسيادة على مناطقه وتبادل القناصل بين الطرفين.

بينما كان هدف الفرنسيين مهمة سلم مع الأمير ليتسنى لهم القضاء على مقاومة أحمد باي الذي قاوم الاستعمار في جهة الشرق إلى حين من الزمن.

عبقرية الأمير عبد القادر للخلافة علميا وعسكريا وتنظيميا سمحت له ببناء دولة وتنظيمها في ظروف جد صعبة وفي مناخ عرف الكثير من العوامل السلبية مثل نقص مصادر التسليح والتموين اللوجستيكي وحالات الخيانة من طرف الأخوة والأشقاء والشماتين ومكايد الاستعمار الماكر الذي كثيرا ما كان يستعين بالأعوان والخونة من

شيوخ القبائل المسلمين، الأمر الذي رتب بعض حالات الردة والتمرد داخل دولة الأمير في صورة فتنة داخلية تم إطفائها بفضل فطنة وتجربة الأمير عبد القادر.

ورغم قوة وتقنية جيوش الاحتلال الفرنسية وتجربتها الحربية الكبيرة في أوروبا ورغم مكر الاستعمار الفرنسي وفقر المجتمع الجزائري فإن الأمير عبد القادر استطاع توسيع حدود دولته فشملت أغلب مناطق الغرب الجزائري وشملت الوسط الجزائري باستثناء الجزائر العاصمة بل والشرق الجزائري حتى الجنوب القسنطيني بما في ذلك الأوراس والزيبان وامتد جنوبا إلى نواحي وادي ميزاب ووادي سوف حتى الحدود الجنوبية للتوارق.

قامت دولة الأمير الوطنية في ظروف ثورة شعبية عارمة بسبب ظلم الاستعمار الفرنسي وطغيانه واعتمدت على مبادئ واضحة منها:

- اعتماد راية وطنية وشعار رسمي للدولة، وعملة وطنية.
- تشكيل مجلس شوري.
- تقسيم إداري إلى ثماني ولايات في إقليم الدولة.
- إقامة جهاز قضائي إسلامي.
- اعتماد ميزانية للدولة تقوم على الضرائب والزكاة.
- إقامة صناعة عسكرية للدولة لتحقيق الاكتفاء الذاتي.
- تنمية وطنية، اقتصادية وفلاحية وصناعية.

تدعيم السياسة الخارجية للدولة الجزائرية مع أعضاء المجتمع الدولي.[1]

---

[1]- راجع : إسماعيل العربي ، المقاومة الجزائرية ، تحت لواء الأمير عبد القادر ، ص : 100 .

غير أن الاستعمار الفرنسي خوفا على مصالحه بل ووجوده في الجزائر بسبب زيادة نفوذ دولة الأمير عبد القادر وتدهور معنويات الجيوش الفرنسية نقض معاهدة التافنا.

صحيح أن الأمير عبد القادر كان في حاجة إلى سلم لتحقيق تنظيم جيد لمؤسسات الدولة، ولضمان التمويل لها. ولأن فترة سلام وهدوء كان الأمير في حاجة إليها لتدعيم مركزه السياسي والعسكري في الداخل.

وإذا كانت معاهدة التافنا وفرت للأمير السلام فقد وسعت من دولته إقليميا واقتصاديا.

كما أن معاهدة التافنا وفرت للاستعمار مكاسب، كان أهمها وصول امدادات جديدة من الجيوش والعتاد العسكري وإعادة تنظيم الكثير من الوحدات العسكرية وتدريبها على حرب العصابات والكمائن لمواجهة جيش الأمير.

وبعد أن خرق الفرنسيون معاهدة التافنا، وقام الجنرال المجرم بيجو بمطاردة جيش الأمير والتنكيل بالقبائل الموالية له، واتبع سياسة الأرض المحروقة لإرهاب أتباع وأنصار الأمير، مما جعلهم يرتكبون جرائم فضيعة في حق الجزائريين، جرائم ضد الإنسانية لا تتقادم بفعل الزمن.

وأمام جرائم الاستعمار الفرنسي وحماقاته، اجتمع مجلس حرب الأمير بحضور كبار مستشاريه وقادة جيشه وقرروا بالإجماع الرد على الاعتداء الفرنسي تحت قيادة الأمير الذي أصدر البيان التالي:

"إن الفرنسيين المعتدين على البلاد الإسلامية بعدما عاهدناهم وسالمناهم، نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن المعلوم أن التهاون في مثل هذا الأمر، والإغضاء عنه يزيدهم طغيانا واعتداءا علينا، فلذلك اجتمعنا في مجلس عال بحضور سيدنا المعظم ومولانا المفخم ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين – نصره الله – لأجل المذاكرة في هذا الأمر المهم.

والخطب الملم، فوفقنا الحق تعالى - جل جلاله - للجواب، وألهمنا جادة الصواب، واتفقت كلمتنا على إعلان الجهاد، والقيام بواجهة على أكمل استعداد وقد بايعنا حضرة أميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية وعقدنا على الصدق في ذلك النية، حررنا هذا الصك ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه، ومن الله نستمد العناية، وهو ولي الهداية." [1]

بعد هذا الإعلان الرسمي من دولة الأمير عبد القادر، تم استئناف المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، الذي كشر عن أنيابه وأكد رغبته في التوسع وإتمام احتلاله لكامل مناطق الجزائر.

اتسع حجم المقاومة وكثر التقتيل والدمار بين الجانبين ولجأ الأمير عبد القادر إلى استعمل حرب العصابات والكمائن المتتالية إلى أن وقعت معركة كبيرة بسيدي إبراهيم، أبلى المجاهدون فيها بلاء حسنا، انتهت بانتصار الأمير عسكريا وسياسيا، وقتل وجرح فيها الكثير من قوات العدو.

غير أن دولة الأمير الفتية وجدت نفسها معزولة عن المجتمع الدولي بسبب الطوق الأوروبي الصليبي ضد الإسلام والمسلمين، ووجدت نفسها في مواجهة جيش كبير من المرتزقة معبأ ومسلح لا طاقة لها به.

وكثرت الخيانات والنقص الفادح في الأرزاق والعيش والسلاح، مما أدى إلى استسلام شقيقي الأمير عبد القادر مصطفى وسعيد، والخليفة بن سالم. بينما قتل خليفة الأمير البوحميدي مسموما بالمغرب.

إن قوات الاحتلال تكالبت على دولة الأمير عبد القادر، وصممت على وضع نهاية لها، فبعد أن استعادت أغلب التخوم التي

---

[1]- راجع : إسماعيل العربي ، المقاومة الجزائرية ، تحت لواء الأمير عبد القادر ، المرجع السابق ، ص 19.

كانت دولة الأمير تقوم عليها هاجمت القوات الفرنسية جيش الأمير الذي انسحب إلى الونشريس وأنشأ عاصمة "الزمالة" المتنقلة عام 1841 م ثم هاجمته في 16 مايو 1843 بتاغيت، جنوب بوغار ودمرت أهم ممتلكاته واستشهد الكثير من المجاهدين في هذه المعارك من بينهم البطل ابن علال.

وبعد أن قاوم الأمير وأتباعه جيوش الاحتلال خلال أكثر من 17 سنة وتحملوا الكثير من التضحيات والاستشهاد تقهقر الأمير وأتباعه المتناقصين إلى المغرب وقصدوا منطقة الريف الغيورة على الإسلام والعروبة، ورغم التأييد الكبير الذي لقيه من الشعب إلا أن السلطان المغربي لم يعجبه هذا اللجوء، وقد زاده الخوف من البطش وانتقام فرنسا التي هددته بالعقاب.

وبالفعل كانت معركة ايزلي خلال أوت 1844 بين الجيش الفرنسي والمغربي، انهزم فيها هذا الأخير واحتل الجيش الفرنسي مدينة وجدة، أملت فرنسا معاهدة طنجة المجحفة على سلطان المغرب، مما حمل هذا الأخير إلى طرد الأمير عبد القادر من المغرب لخوفه من انتقام فرنسا.

وما كان عليه إلا العودة إلى الجزائر وبداية مقاومة الظهرة أي في منطقة الظهرة بعد أن انظم إليه الثائر بومعزة، الأمر الذي سمح للأمير بإحراز عدة انتصارات عسكرية محدودة على جيش كافنياك خاصة في معركة سيدي إبراهيم غرب الغزوات في أواخر سبتمبر 1845 م.

ورغم أن ميزان القوة لم يكن لصالح الأمير عبد القادر إلا أن الاستعمار الفرنسي دفع بقوات كبيرة ومجهزة عسكريا تمكنت من تطويق الثائر بومعزة وأتباعه وألقت القبض عليه في مارس 1847 م.

حينما لم يبق للأمير إلا التفاوض مع الجنرال لمورسيار قائد جيوش الاحتلال في المغرب الجزائري.

فتم التوصل بين الطرفين مبدئيا إلى وقف إطلاق النار والسماح له ولأتباعه بالهجرة إلى المشرق.

وقبل الموافقة على الاتفاق جمع الأمير مساعديه وقال لهم:

"لا أرى إلا التسليم لقضاء الله والرضا به، ولقد أجهدت نفسي في الدفاع عن الدين والبلاد وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد وذلك من حين اهتز غصن شبابي، وافتر عن شبلة الهند نابي، واقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة، اقتحم المهالك وأملا بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك، استحقر العدو على كثرته، وأستسهل استصابته، وأتوغل غير خائف أوديته وشعابه، وأرتب له في طريقة الرصائد، وأنصب له فيها المكائد والمصائد، وتارة أنقض عليه انقضاض الجارح، وأخرى أنصب عليه انصباب الطير على المسارح، وكثيرا ما كنت أبيته فافنيه، وأصبحه فأبرد غليلي منه، أشفيه، ولا زلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية، وأشمر على أقوى ساعد وبنان، وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان إلى أن فقدت المعاضد والمساعد وفنى الطارف والتالد، ودبت إلى بني ديني الأفاعي واشتملت على المساعي، والآن بلغ السبيل الزبى والحزام الطبيين، فسبحان من لا يكيده كائد، ولا يبيد ملكه، وكل شيء بائد ".

وبتاريخ 27 ديسمبر 1847 وبحضور الدوق دومال الحاكم العام الجديد في الغزوات وقعت وثيقة التسليم بعد 17 عام من المقاومة والمعاناة ضد أكبر دولة أوروبية مسيحية وصليبية حاقدة على الإسلام والمسلمين وعنصرية ومجرمة ضد كل من هو مسلم وعربي، والذكرى درس وعبرة للعاقلين.

وكعادة الغربيين في التنكر لما اتفقوا عليه فقد حملوا الأمير عبد القادر أسير إلى فرنسا حتى عام 1852 ثم إلى دمشق التي توفي بها.

ورغم أن مقاومة الأمير عبد القادر انتهت إلا أن مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار لم تنته.

الفصل الثاني

مقاومة الحاج أحمد باي

منذ اعتداء الاستعمار الفرنسي الصليبي على المسلمين في الجزائر بدءا من سيدي فرج، غرب الجزائر العاصمة ومواطني الشرق الجزائري يتوافدون فرادى وجماعات على إدارة الداي حسين في الجزائر طالبين الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الظالم.

أكثر من عشر آلاف متطوع، ساندوا وانضموا إلى المقاومة في الجزائر من بينهم الرجال والنساء وحتى الأطفال والشيوخ غيرة على دينهم الذي هددته فرنسا بالتدنيس وحماية لحرمات أهلهم من جرائم الاستعمار الفظيعة.

لقد قدم الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر ليس كما زعم لتأديب إدارة الأتراك في الجزائر على إهانتهم لقنصلهم دوفال ولكن بغرض تسوية مسألة الديون اتجاه الجزائر إلى غير رجعة وفتح أسواق جديدة لسلع فرنسا علاوة على نهب ثروات وممتلكات الجزائريين وتحويلها إلى فرنسا، خدمة لاقتصادها وتدعيما لمصالحها.

ظهر العدوان الفرنسي على حقيقته عندما احتلت جيوشه مدينة عنابة خلال عام 1832 وبجاية عام 1833،

ومقاومة الجزائريين المسلمين عمت على كامل الإقليم في الغرب بقيادة الأمير عبد القادر وفي الوسط وفي الجنوب الجزائري ظهر مجاهدون لم يستسلموا باستسلام الداي حسين الجبان وأتباعه، بل تجمعوا في تنظيمات ثورية ظلت لمدة طويلة تكدر أمن واستقرار العدو.

وفي الشرق الجزائري تنظمت وتهيكلت المقاومة الجزائرية بقيادة احمد باي الذي عرفته الجزائر قبل عام 1830 بايا إداريا ماهرا، خدم كثيرا

إدارة الداي حسين في الجزائر، وبعد استعمار الجزائر وزحف جيوشه لإتمام توسعه واحتلاله لأهم المدن الساحلية والسهول الخصبة صار هذا الباي التركي مقاوما للاستعمار شهما، ومتخليا عن ثرواته الطائلة، مدافعا عن المبادئ ومتحليا بالصبر والتضحية من أجل الوطن الجزائري وخيراته التي ظلت تجذب الطامعين إليه.

الحاج أحمد باي الذي رفض التعاون مع الأمير عبد القادر لكون هذا الأخير كان من أصل عربي وليس تركيا وحاول اغتنام فرصة انشغال جيوشهم في العمليات الحربية ضد الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري الذي أقلق أمن وهدوء الفرنسيين المعتدين في هذه المنطقة العزيزة على كل الجزائريين.

الحاج أحمد باي الذي كتب عنه الدكتور العربي الزبيري ما يلي:

"يعتبر الحاج أحمد باي قسنطينة الأخير من ألمع وجوه المقاومة في الجزائر ومن أكبر قادتنا الذين دوخوا فرنسا، والذين يجب أن تفتخر بهم، لقد اعترف له كثير من الجنرالات بالدهاء العسكري وحاول المارشال فالي أن يتفق معه، اقتناعا منه بأن الرجل أهلا للقيادة ولا يمكن أن يستسلم بسهولة[1].

أحمد باي الذي فضل المقاومة ضد الاستعمار والمغامرة بثروته الكبيرة من أجل الاحتفاظ بالسلطة في قسنطينة مهد بايات الأتراك على مغادرتها صاغرا، أو مساندا للأمير عبد القادر العربي الأصل والذي يعتبر الإدارة التركية في الجزائر ظلم وتعسف في حقهم، بل الأتراك هم السبب في الاحتلال الفرنسي لها.

إنه في الحقيقة عندما اتخذ قراره بالمقاومة ضد الاستعمار والبقاء في قسنطينة إنما فكر في منصبه كباي من بايات الأتراك الذين استحوذوا على السلطة وهمشوا الجزائريين أبناء البلد الأصليين.

1- راجع : محمد العربي الزبيري ، مذكرات أحمد باي، ص : 5

طبعا هو لا يشبه بايات الأتراك الآخرين الذين فضلوا مغادرة الجزائر محملين بالثروة والممتلكات، هو فضّل البقاء في قسنطينة ليدافع عن عائلته وشعبه وممتلكاته وعلى استعداد أن يضحي من أجلها.

لقد رأى بعينه مأساة سيدي فرج خلال جوان 1830 م ورأى بعينه بطش وفضائع جرائم فرنسا وشاهد بنفسه وهو يرافق الداي حسين وجيشه في الدفاع عن الجزائر وشاهد بعينه هزيمة هذا الداي في معركة سطاوالي ثم استسلامه السهل الجبان، وكم أثر في نفسه وأحزنه الإحباط الذي ألم بالمجاهدين الجزائريين وهم يشاهدون خيانة الداي حسين وعائلته وطبقته التركية الحاكمة يستسلمون جميعا دون مقاومة جدية للعدو، إنه بالفعل منظر مخز وغير لائق بالداي حسين.

لقد ثقل عليه وهو ينتمي إلى الأتراك في الجزائر أن يرى إخوانه من الدايات والبايات والباشغات يتسابقون على الاستسلام وهو على رأس جيش من المجاهدين المسلمين الذين لم يجدوا لقيادتهم غيره في قسنطينة من المسلمين الجزائريين، أن يحقق النصر على جيوش الظلم الفرنسية.

أحمد باي الذي لم توافق الدولة الفرنسية على احتفاظه بمنصبه كباي قسنطينة، كما أنها رفضت كافة الحقوق والامتيازات التي طلب بها الباي لتسليم مدينة قسنطينة.

إن أحمد الباي في قسنطينة لم يعد مجرد باي، فقد اعتبر نفسه أكثر من ذلك أي دايا بعد استسلام الداي حسين الجبان في الجزائر، بل ذهب به الغرور وحب الذات في الاستحواذ على أرزاق الجزائريين إلى درجة السلطان سلطان الجزائر، وقد طلب بالفعل من السلطان العثماني أن يساند في ذلك بدل الأمير عبد القادر مؤسس أول دولة وطنية في الجزائر وهو ما يترك العاقل المحلل أن يجزم بحقيقة الرجل.

لهبرة يعود إلى أن هذه الأخيرة هاجمت الأندلسيين الفارين إلى أرزيو، في النصف الأول من القرن السابع عشر[1].

جماعة فرسان أولاد ميمون كانوا يزرعون الإقليم الذي يقع فيه وادي القصب على بعد 15 فرسخا من وهران ويحده جبل تسالة شرقا وذلك الوادي غربا والزيدور شمالا والسلسلة الجبلية تنيرة جنوبا. الأراضي في هذا إقليم مروية. كان فرسان أولاد إبراهيم يزرعون، وظلوا كذلك إلى غاية طرد الإسبان نهائيا، أراضي تقع بين وادي مقرة (9 فراسخ من وهران) إلى غاية سيدي إبراهيم (13 فرسخا من وهران) وهي أراضي خصبة جدا، تجاور أولاد ميمون في الناحية الغربية، وسلسلة تنيرة في الشمال، وأولاد موسى بن عبد الله في الناحية الشمالية، وأولاد سليمان في الناحية الشرقية، وبني يعقوب، الذين يشتغلون بتربية الماشية، في الناحية الجنوبية[2]. كانت لبني يعقوب الأراضي التي تبدأ منها الصحراء في الجنوب، يحدها شرقا وادي بني سراج وأراضي بني سليمان، وشمالا أراضي أولاد إبراهيم، وغربا جماعة جعفرة، الذين كانوا خارج سلطة الاسبان. كان فرسان أولاد سليمان يزرعون الأراضي الواقعة بين المرابط سيدي عبد القادر كشتوين ووادي مطبوح، يجاورون في جهة الغرب أولاد إبراهيم وبني يعقوب وفي الجهة الشمالية تحدهم منحدرات تمزوغة ويحدهم شرقا وجنوبا وادي بني سراج. جماعة فلاحي بني شقران يقطنون أراضي جبلية تبدأ على 15 فرسخا شرق وهران، ينتجون كميات لا بأس بها من التين المجفف، يبيعونها في كل البلاد المغربية[3]. أخيرا، تقع أراضي بني غدو على بعد حوالي 20 فرسخا من وهران

---

[1]- الفورصوو إيبالزا. المرجع السابق ص 45.

[2]- المشرفي. المرجع السابق ص 217.

[3]- بودان. المرجع السابق ص 253 و 254.

وتبعد عن الشلف بفرسخين، تجاورها جنوبا جماعة فليتة القريبة من وادي مينا وهي خارج سلطة الأسبان، وبلاد بني شقران غربا[1].

هذه الجماعات، وأغلبها من قبيلة بني عامر الكبيرة، ترتبط بالاسبان بمعاهدات أواتفاقيات، تُجدّد كل سنة، باستثناء شافع وحميان. تُعرف هذه المعاهدات. بتصريحات الأمان. مقابل تصريح الآمان تقدم القبائل والدواوير الرهائن من أبناء الشيوخ. يبقى هؤلاء لدى الاسبان في وهران إلى غاية دفع الضريبة باسم الرومية، وهي تحدد كما يلي: في حوالي شهر جوان من كل سنة يستدعي الحاكم الشخصيات الكبيرة من رؤساء وغيرهم، ويقدر هؤلاء مع مردودية المحاصيل في مختلف المناطق. وبناء على هذا التقدير يحدد الحاكم سعر البيع لكيلة من القمح وكيلة من الشعير. في تجمع بقصر القصبة، يحضره كل النبلاء والشيوخ ورؤساء جماعات الفلاحين ووجهاء (الزفينة)، وهي ضواحي وهران، من شافع وحميان والهبرة، وبعد أن تُقدم للحضور وجبة غذاء، يقدم الحاكم سعر الضريبة الرومية للسنة المعنية وسعر بيع القمح والشعير. ثم يستقبل في مكتبه كل شيخ من الشيوخ، ويقدم له كمية من النقود. عند الانصراف يستلم كل واحد منهم كمية التبغ البرازيلي الذي يقبل عليه هؤلاء الشيوخ كثيرا[2].

لقد تلقى هذا النظام ضربة قاسية عند انسحاب الاسبان من وهران والمرسى الكبير سنة 1708..لم يتمكن هؤلاء الاسبان من إعادة نفوذهم السابق كاملا، عند احتلالهم وهران والمرسى مجددا سنة 1732. أصبح الأتراك يهيمنون على الأقاليم التي كانت تابعة للإسبان، باستثناء الأراضي الواقعة في جهة السيق، التي كان يزرعها أفراد حميان وسكان

---

[1]- القورصوو ليبالزا، المرجع السابق ص 45.

[2]- نفسه ص 46.

إن الباي أحمد صار مغرورا بعد استسلام الداي حسين، فبدل التعاون مع الأمير عبد القادر وشيوخ القبائل في المقاومة المشتركة ضد الاستعمار صار يفكر في أبعاد الأمير عبد القادر من المقاومة أو على الأقل التشكيك في شرعية مبايعته من طرف القبائل في الغرب الجزائري لإزاحته كزعيم عربي لا علاقة له بالأتراك.

ورغم أن الأمير عبد القادر طلب منه مساندة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي وأن يحافظ على جمع الشمل لكل الفضائل المقاتلة للجزائريين في مواجهة الاستعمار الصليبي الفرنسي.

إلا أن أحمد باي الذي ينحدر من أب تركي وأم جزائرية والذي يعرف بحبه للسلطة وللمال وللجاه ولاعتقاده بتفوق الأصل التركي حضاريا بين الشعوب الإسلامية كان لا يروق له أن يشاهد العربي في السلطة أو على رأس سلطة ولو كان ذلك عن طريق الشورى من خلال المبايعة بالإمارة.

صحيح أن شهامة احمد باي، باي قسنطينة وأنفته كمسلم تركي ورجل شرقي جعله يرفض التعاون مع المستعمر الفرنسي، خاصة وإن هذا الأخير أنذره بالطرد من قسنطينة بكل الطرق لأنه أولا لا يمثل في الجزائر وفي قسنطينة بالذات إلا الإدارة التركية التي استسلمت في أول معركة لها بسطاوالي ضد فرنسا خلال جوان 1830 م.

إن الباي أحمد خلافا لمعظم بايات الداي حسين في الجزائر كان متعلقا كثيرا بمدينة قسنطينة لوجود عائلته وثروته بها، لكن مع ذلك أصبح يحلم أن يكون سلطان الجزائر مكان الداي حسين المستسلم للاستعمار الفرنسي، لذلك قرر مواصلة مقاومة المحتل الفرنسي، دفاعا عن أهله وعائلته وحماية لثروته الطائلة التي جمعها على أكتاف العرب بقسنطينة ولا يمكن أن يفقدها بين عشية وضحاها، ولعل عيبنا فينا لا يشبه لثراء حكامنا وهم في السلطة إما خوفا منهم أو خيانة للضمير الوطني. وما أشبه البارحة باليوم.

لقد بدأ أحمد باي المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي عندما هاجمه حاكم عنابة وبعد أن تأكدت جيوش الاحتلال من رغبته في السلطان ورفضه الاستسلام، وتطاوله على طلب دعم الدولة العثمانية.

ولعل ما يؤخذ على أحمد باي التركي كقائد للمقاومة في قسنطينة أنه رفض التعاون مع دولة الأمير عبد القادر بل وسعى مرارا أمام السلطان العثماني إلى الاعتراف به واليا على الجزائر مكان الداي حسين المستسلم مع الدعم العسكري والاقتصادي لعله يزيح من طريقه الأمير عبد القادر بل حاول مهادنة العدو قصد إتاحة الفرصة له للقضاء على دولة الأمير في الغرب الجزائري.

ومن ثمة لا يمكن تبرير الموقف السلبي لأحمد باي من المقاومة الجزائرية للأمير عبد القادر، في أحرج ظروفه، وكان الأولى بأحمد الباي وهو يدافع عن وجوده وعن كرامته وعن عقيدته أن يقف إلى جانب أخيه المسلم العربي الأمير عبد القادر في كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي.

ومن ثمة لا يجوز مهما كان عطفنا ووطنيتنا أن نجزم أن أحمد باي بقي صامدا ... مقاوما ... حتى الاستشهاد.

فمقاومة المجاهد لم تكن إلا دفاعا عن الثورة، وكان هناك انسحاب، ثم مطاردة حتى الاستسلام، ولم يكن هناك استشهاد إطلاقا.

وحتى استأذن المحترم الدكتور أبو القاسم سعد الله لم يوفق في الحديث عن هذا الباي عندما كتب عنه قائلا : " قد اعترف له أعداؤه ومعاصروه بالحنكة السياسية، والمواقف البطولية، وغيرته الدينية، وكرهه الشديد للأجانب، وبنجاحه في كسب قلوب رعاياه، ومهارته في تنظيم الجند، ووضع الخطط العسكرية وهذه جميعا خصال تميز الحاكم القدير"[1].

---

[1]- راجع : أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ص : 273.

ومما لا شك فيه أن الحنكة السياسية المقصودة في شخص أحمد باي تعني تكبره عن المقاومين العرب في الجزائر، هل نسي أنه تركي وكان بايا ولم يكن من فئة الشعب القسنطيني الفقير والمستغل سياسيا من قبل إدارة البايات الأتراك، شعب لا حول ولا قوة له في مواجهة الواقع المر والظالم خلال الفترة التركية.

أما عن غيرته الدينية فماذا قدم للإسلام وهو حاكم قسنطينة ؟ وماذا قدم للجزائر عندما طلب منه التعاون الثوري في المقاومة من أجل الجزائر؟

صحيح مباشرة بعد سقوط العاصمة رجع إلى قسنطينة للدفاع عن عائلته وممتلكاته الكثيرة والتي استولى عليها بفضل الإدارة التركية الفاسدة، التي كانت سببا في الاستعمار.

صحيح كان يكره الأجانب ولكن ألم يكن هو الآخر أجنبي عن الجزائر، وقادته الأتراك المستسلمين بعد أول معركة في سطاوالي ضد الاستعمار الفرنسي خلال جوان 1830 م الذي قال عنهم الدكتور بحق وأصاب أنهم لم يتجزؤوا إلا بقدر استغلال الجزائر.

أحمد باي التركي منع كل التحاق وكل مساعدة نحو ثورة الأمير عبد القادر، الوطني العربي، المسلم الجزائري، يهدف إضعافها وبالتالي مساعدة فرنسا للقضاء عليها، وإلا كيف نفهم مراسلته للسلطان العثماني حتى درجة التوسل يطلب الاعتراف به سلطانا على الجزائر مكان الداي حسين الجبان المستسلم.

أما إن كسب قلوب رعاياه، فإني أشك كثيرا في هذا الشأن، لقد لامه أغلب المجاهدين على خذلانه لثورة الأمير عبد القادر وخذلانه لثورة القبائل، لأن هدفه لم يكن إلا شخصيا ومصلحيا، فلم يكن مهتما بمصير الجزائر بقدر ما كان مهتما بمصيره ومصير عائلته وممتلكاته.

أما عن مهارته العسكرية، فلم يبرز شيئا منها إذ أن خطته العسكرية الأولى التي توفق بها بسبب جهل الفرنسيين بمنافذ قسنطينة عام 1836 في الدفاع عن المدينة وطرد جيوش الاحتلال بعيدا عنها، أعادها ثانية عام 1837 وكانت الكارثة، إذا تنبه الفرنسيون إلى سذاجته وغباوته واقتحموا المداخيل الرئيسية للمدينة ونجحوا واحتلوها بسهولة.

الأمر الذي بين أن أحمد باي كان سياسي أكثر منه عسكري.

لقد حاول أحمد باي قيادة المقاومة الجزائرية انطلاقا من قسنطينة واستغل ثروته الواسعة في جذب القبائل، ورغم تناحرها فقد أغرى الكثير من شيوخها بأمواله وهدايه.

فقام في البداية بتكوين مجلس شوري، ورسم إستراتيجية، وحاول تنظيم جيش لكن بعيدا عن كل المجاهدين الأقوياء في الجزائر، الأمر الذي قال عنه الجنرال كلوزيل قائد جيش الاحتلال بأن احتلال قسنطينة "لا يعدو أن يكون مجرد نزهة"[1].

ولعل يوسف المملوك القادم من الصحراء والخصم الجدي لأحمد باي الشديد المراس نصح أحمد باي بإقامة دفاعات متنقلة لحماية قسنطينة لكثرة منافذها، لكن هذا الأخير لم يعرف أهمية تذكر لما تجاهل الداي حسين عام 1830 م أثناء معركة سطاوالي التي خسرها وبعدها مباشرة استسلم.

وكان أول اختبار صعب لأحمد باي خلال عام 1836 م عندما داهمته جيوش الاحتلال الماكرة، التي عقدت قيادتها معاهدة هدنة مع الأمير عبد القادر وتفرغت للقضاء على مقاومة أحمد باي وجيشه في الشرق الجزائري، لكن من المؤكد فإن علم وخبرة هذا المقاوم ذو الأصول

---

[1]- راجع : شارل أندري جوليان و تاريخ الجزائر المعاصر ، ج 1 ، ص : 133

التركية وهو يدافع عن عائلته وممتلكاته بين القبائل العربية التي ترى فيه استمرار للإدارة التركية بكل سلبياتها في حكم الجزائريين التواقين إلى الحرية وتقرير المصير حيث يتولون شؤونهم بأنفسهم، لقد كان ذلك حلما جزائريا أبديا.

لقد فهم أحمد باي أن الاستعمار ذكي وماكر يطبق مبدأ "فرق تسد".

وأن مصير شعب قسنطينة البطل في يد الاحتلال لأن جيش فرنسا قوي ومتفوق عدة وعددا وأن عدم تعاونه مع الأمير عبد القادر خطأ استراتيجي جسيم بل عدم تعاونه مع الأمير عبد القادر خيانة عظمى لن يغفر الشعب الجزائري نتائجها له، مهما كانت شجاعته ومهما كانت تضحياته.

لقد جهز الماريشال كلوزيل جيشا متنوعا من المشاة والفرسان والمدفعية تجاوز عدده 20 ألف عسكري من أفضل مرتزقة فرنسا وأوروبا وخطب فيهم: "أيها الجنود.. ندخل اليوم منتصرين إلى قسنطينة، إنه يوم تاريخي".

لكن احتقار الخصم وعدم الجدية غالبا ما يسبب الهزيمة والإحباط بأفراد جيش الاحتلال لسوء التقدير والغرور في النفس الأمر الذي أثر كثيرا في معنويات جنود وضباط العدو باعتراف المجرم الماريشال كلوزيل لكن الحسم في النهاية يعود لشجاعة وبطولة المقاومين العرب الجزائريين الذين دافعوا على أهاليهم وشرفهم وحماية مقدساتهم وقيمهم من الاستعمار الفرنسي المعروف بدناءته وبطشه وفظاعة جرائمه.

إن سوابق الاستعمار الفرنسي أصبحت معروفة في الجزائر مجرميه لا يفرقون بين الرجل والنساء ولا بين الشيوخ والأطفال يدوسون المقدسات والمحرمات ولا يعرفون ما يسمى بحقوق الإنسان إلا عندما

يتعلق الأمر بالأوروبيين، أما الجزائريين فإنهم مجرد خارجين عن القانون بل هم إرهابيون لا يفهمون حضارة فرنسا إنها مأساة الإنسانية الحقة، عندما يغيب الضمير وتتحكم المصالح في شؤون الأمم، بدل المبادئ والقيم السياسية.

هزيمة الفرنسيين على أسوار قسنطينة كانت ملحمة عبرت على أصالة وشهامة المقاومين الجزائريين في الدفاع عن وطنهم، لكن هذه الهزيمة هزت السلطات السياسية والعسكرية في فرنسا التي أصدرت تعليماتها بضرورة احتلال قسنطينة مهما كانت الخسارة ومهما بلغ إخفاق قواتها، لأن أثار الهزيمة الأولى لجيوشها كانت قاسية وتركت صدى واسعا بين قيادات أركان جيوشها وأوساط الحربية خاصة المعارضة منها.

لكن تفوق المجاهدين بعد الهزيمة الاستعمارية وصل المجاهدون من كل المناطق الجزائرية للدفاع عن قسنطينة من باتنة ومن سطيف ومن عنابة ومن الأغواط بل وآخرون وصلوا من الغرب الجزائري ليشاركوا لأخواتهم في العقيدة وفي الجهاد في سبيل الله ضد فرنسا الصليبية، ولو أن النقص كان فادحا ومحسوسا بين المجاهدين في السلاح والذخيرة والمؤن، بينما دفعت فرنسا بقوات جديدة وكبيرة من الغرب الجزائري وأخرى وصلت من فرنسا قصد إتمام مهمة التوسع الاستعماري الفرنسي في الشرق وفي الجنوب الجزائري.

هذه القوات التي كانت مدعومة بخبراء نفسانيين وعلماء في النفس البشرية وفي السوسيولوجية لتحقيق أهداف الاستعمار الاستيطاني الذي أضحى بعد عام 1832 م يعمل على الاستقرار والاستيطان والاستغلال بواسطة الأوروبيين ولم يفكر فحسب كما أشيع عنه بتأديب الإدارة التركية فحسب.

والمتفق عليه أن مجموع العلماء والخبراء في عدة مجالات علمية شاركت الحملة الفرنسية إجرامها في اعتداء 1830 على الجزائر تجاوز

عددها 5000عالم وخبير. جميعهم خدموا الاستعمار الفرنسي واللذين شاركوا الحملة الفرنسية على قسنطينة عام 1836 تجاوز عددهم 500 عالم وخبير كل في مجال اختصاصه كل يخدم بلده وأمته ولا تهمه حقوق الإنسان إلا بالقدر الذي يعود عليه وعلى دولته بالفائدة.

إنما العبرة لعلمائنا ولخبرائنا الذين لا تهمهم مصالح شعوبهم إلا بقدر ما يصيبون من فوائد.

إن مقاومة المسلمين الجزائريين في نوفمبر 1836 م بقسنطينة لجيوش الاحتلال، كانت رائعة، ومثالية ومستميتة ومنظمة، رجال ونساء، شيوخ وأطفل جميعهم شاركوا في دحر العدو المعتدي، استعملوا السلاح والذخيرة والأسلحة البيضاء والحجارة والماء الساخن ضد جيش العدو الصليبي الظالم، وكانت النتيجة بطولة تاريخية مشرفة لمجاهدين وسكان قسنطينة وتضحيات جسام، ثم نصر كبير أدهش العدو وقائده المجرم المارشال كلوزيل.

ولو لا معاهدة التافنا التي أبرمها العدو الماكر الفرنسي مع الأمير عبد القادر وأدت إلى توقيف القتل بين الطرفين وامتد سرياتها حتى أواخر 1837 م لما استطاعت فرنسا الماكرة والخبيثة توجيه قوتها في أكتوبر 1837 بقيادة المجرم الجنرال فالي إلى قسنطينة قصد احتلالها وقهر أحمد باي والمقاومة الجزائرية وتخييب آمال المستعمر في الاحتلال وفي التوسع على حساب المستضعفين في الأرض.

لكن نيران مدفعية العدو في هجوم أكتوبر 1837 دمرت أغلب أسوار المدينة، مما سمح بفتح ثغرات فيها، كما أن جيوشه الكبيرة التي استعملها في حملته اقتحمت المدينة، وباشرت بطشها في المدينة في شوارعها وأحيائها وبيوتها، وكانت المقاومة شعبية شجاعة لكن النقص في السلاح وفي الذخيرة رتب تفوق العدو وسيطرته في الأخير على المدينة.

عشرة أيام كاملة من المقاومة والاستشهاد أبدى فيها الجزائريون بطولاتهم وتضحيات خارقة للعادة أبدى فيها احمد باي الكثير من الخبرة والحنكة القتالية العالية، لكن قوة العدو أجبرته على الانسحاب.

لقد كانت معركة قسنطينة حاسمة بل ومصيرية، وقد شبهها الكثير من المؤرخين بمعركة الجزائر لأنها كانت مفتاح الشرق الجزائري ورغم أن المقاومة بقيادة الحاج أحمد الباي عبأت كل إمكانياتها لأن الهزيمة بالنسبة للجزائريين معناه كارثة وسقوط المدينة.

ولأن العدو تفادى كل الأخطاء التكتيكية الأولى أي التي ارتكبها في حملته الأولى عام 1836 م، ولأن تنظيم جيشه كان محكما خاصة وأن المعلومات التي وصلت إلى العدو من الخونة ساعدته كثيرا في التعرف على مواقع الضعف في الدفاعات الجزائرية، وزادهم خطأ أحمد باي في اعتماده للخطة الأولى التي حققت له النصر في عام 1836 م وتناسى أن العدو سيتفادى أخطاءه الأولى ضربات قاسية تحملها العدو في هجومه خلال عام 1837 م، أكثر من 5000 عسكري فرنسي بين قتيل وجريح ومن بينهم قائد الحملة الجنرال دازيمون، وكاد المجاهدون أن يحققوا النصر ولولا توغل قوات الجيش الفرنسي داخل المدينة وبطشها بالمواطنين العزل لإرهابهم.

وقد رد أحمد باي قائد المقاومة الجزائرية بعد طلب جنرال الجيش الفرنسي منه الاستسلام بما يلي :

"من الأمة المحافظة على شرفها وبلدها إلى العسكر الفرنسي المعتدي على حقوق غيره، قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها، نعم، إن مركزنا أمسى في خطر عظيم، ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العرب الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل واحد منهم واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا"[1].

---

[1]- راجع : محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية ، المرجع السابق ، ص : 57.

لقد أبدى الجزائريون مقاومة كبيرة لجيش الاحتلال، وأظهروا إيمانه بالله وبالوطن رغم قلة إمكانياتهم المادية استعملوا كل ما لديهم من أسلحة وذخيرة وسكاكين وعصى بل وقاتلوا بالأيدي وبالحجارة وبالماء الساخن وسجلوا ملحمة بطولية.

لكن قوة الاستعمار كانت كبيرة وبطشه كان فضيعا، مما اضطر معه أفراد المقاومة تحت قيادة أحمد باي إلى الانسحاب من مدينة قسنطينة لكن مع التفكير في محو الهزيمة.

وكان رأي القائد أحمد باي قيام المقاومة بقطع جميع اتصالات العدو بقواعد دعمه من الخلف وبالتالي القضاء على وحداته في مدينة قسنطينة مما سمح بإمكانية استعادتها وتحقيق النصر، بينما عارضه بوعزيز بن قانة المدعوم بقبائله العديدة الذي أشار إلى أن فرحات بن سعيد يهدد الزيبان واقترح الإسراع نحو الصحراء.

وحينها لم يبقى للمجاهد أحمد باي وأتباعه إلا الانسحاب نحو الزيبان أي في اتجاه الجنوب، يريد أخواله موافقا على رأي خصمه بوعزيز بن قانة حفاظا على عائلته وخاصة أبنائه وبعض ممتلكاته المنقولة.

إن وجهته هذه كما وضح في مذكراته كانت حكمة منه حفاظا على أبنائه وأمواله التي كان يخاف عليهم ولو أنه يعترف أن أتباعه مؤيدين لرأي بوعزيز كان مصابه العظم[1].

ومما لا شك فيه أن فرض بوعزيز نظرته على قائده أحمد باي توضح جيدا انعدام القاعدة الشعبية لأحمد باي المحسوب دائما على الإدارة التركية في الجزائر والذي رفض صراحة كما أشرت التعاون مع الأمير عبد القادر لأنه عربي ومسلم وجزائري.

---

[1]- راجع : مذكرات أحمد باي ، مرجع سابق ، ص : 77 .

بينما فضل مقاومة الاستعمار الفرنسي، وحاول إزاحة الأمير عبد القادر من المواجهة، كل ذلك حبا لذاته وحفاظا على أمواله.

لا حبا في الجزائر ولا حبا للجزائريين، وقد أقام سلطانا في خياله فحسب في الجزائر بناء على الوعود الكاذبة للسلطان العثماني، وعندما تعب من تلك الوعود، عاتب السلطان العثماني برسالة قاسية وواضحة.

انسحب أحمد باي وأتباعه إلى الجنوب وظل ينتقل من 1837 إلى 1846 بين جبال النمامشة ووادي ريغ لكنه قاتل ولم يستسلم رغم مضايقته من قبل جند الاحتلال الفرنسي وأتباع الأمير عبد القادر بولاية تيطري تحت قيادة محمد البركاني.

صحيح أن أحمد باي رفض التعاون مع الاحتلال الفرنسي، وحمل شعار الجهاد في ظروف صعبة من أجل الإسلام والوطن.

لكنه أيضا رفض الولاء والطاعة لدولة الأمير عبد القادر التي سعت مرارا إلى ضمه واتباعه، ولم يغامر بطلب الرحيل من الجزائر كما فعل سلفه خوفا من ضياعه لأمواله الكبيرة، وظل يرعاها أكثر من رعاية أبنائه، مما يوضح بالتأكيد أن جهاده لم يكن إلا حماية لأمواله.

إن أحمد باي كان واثقا أن استسلامه للعدو، سيمنعه من الرحيل إلى الخارج وسيضيع عنه أمواله لذلك ظل يقاوم هذا الاستعمار تحت شعار الجهاد من أجل الإسلام والوطن، وأمواله متنقلة معه.

إن الجزائر في نظر أحمد باي مجرد ولاية تابعة للسلطان العثماني، اعتقاد راسخ في دماغه رغم استسلام الأتراك وجبنهم أو بالأحرى خيانتهم اتجاه الله والوطن.

فحتى مراحله الأخيرة في المقاومة والتدحرج نحو الفيافي الخالية ظل يردد مفهوم الولاية بدل دولة الجزائر.

والواقع أن مقاومة أحمد باي التي امتدت خلال 18 عاما ضد الاستعمار الفرنسي كان واجب محتوم عليه لارتباطه الأزلي بما يسميه بولاية الجزائر بدل دولة الجزائر المستقلة والتي لم تكن في رأيه إلا مجرد ولاية تركية.

صحيح كما قيل الكثير عنه، سعى كثير من زعماء المقاومة إلى استغلال تلوغيته ولكونه بايا تركيا أكثر منه جزائريا ولعدم اعتماده على قبيلة أو قبائل، مما أفقده الكثير من المصداقية والفاعلية بين المقاومين الجزائريين. ولم يبايعه أحد على الجهاد إنما استحوذ على ذلك بفضل سلطته المالية ولكونه كان بايا تركيا حاكما لقسنطينة ولمدة طويلة، والشعب لم يخوله ثقته بل انتزعها منه.

وقد لوحظ تغير في تعامله مع بوعزيز بن قانة الذي فرض رأيه بفضل جزائريته وعصبيته. الأمر الذي أقلقه كثيرا عليه كلوغيته.

وفي اعتقادي أن مسؤولية الشعب الجزائري قائمة وستظل كذلك عندما يساند شخصا دون الشخص المطلوب رغم طول الزمان والمكان لأن التاريخ لا يرحم.

استسلم أحمد باي بتاريخ 5 جوان 1848 م للفرنسيين كارها، بعد أن صار كهلا ومسنا ومريضا، الذين قاموا بنقله إلى الجزائر العاصمة، ووضع تحت الحراسة والمراقبة في سكن خاص ومتعوه بمرتب شهري لعيشه. لكنه منع من الهجرة إلى الخارج التي طلبها عدة مرات، توفي عام 1850 ودفن في مقبرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي.

خلال شهر جوان 1830 بدأ احتلال الجزائر عن طريق أضعف موقع في الدفاعات الجزائرية حسب المعلومات والمشروع الحربي للهجوم الذي أنجزه الضابط الخبير بوتان "Boutin" الذي سبق وأن كلف من قبل نابليون.

وكانت أكبر مواجهة بين الجانبين جيش الداي حسين وجيش الاحتلال الفرنسي في معركة سطاوالي يومي 15 و16 من شهر جوان 1830 انتهت بهزيمة جيش الإدارة التركية في الجزائر واستسلام ومغادرة الداي حسين وأتباعه من الأتراك محملين بالذهب والممتلكات والجواري إلى مدينة نابولي بإيطاليا، وكان الأمر مقضيا والاتفاق كان سابقا محضرا.

بعدها ودون مقاومة تذكر، دخلت جيوش فرنسا العاصمة حيث عاثت في البلاد والعباد فسادا، سلامة الأشخاص لم تراع والمقدسات دنست والحرمات أديست والممتلكات نهبت في صورة غنائم حرب وحولت إلى فرنسا.

وكم من القطط والكلاب السمان حققت ثراءها في زمن الحرب أو زمن النهب، ما دام القانون غاب وحل محله قانون الغاب والغنائم.

اعتداءات الفرنسيين والأوروبيين على الأهالي الجزائريين صارت يوميا، السلطة الفرنسية لا تحافظ على النظام العام والسكينة العامة في المدن التي احتلتها عندما يتعلق الأمر بالجزائريين.

إنهم عصاة ويجب تأديبهم من قبل الأوروبيين المتحضرين، وعند دفاع الجزائريين عن أنفسهم ضد الأوروبيين فيجب تدخل هذه السلطة لتأمر باعتقالهم وربما تعدمهم لأنهم وحوش ومتخلفين، لا يتقبلون الأوروبيين المتحضرين الذين يستحوذون على أراضي وممتلكات الأهالي الجزائريين قصد خدمة اقتصاد فرنسا ومع بداية الاحتلال وأثناء تدفق جيش الاحتلال نحو الجزائر تعرض لهجوم هؤلاء الخارجين عن القانون في البليدة في مناطق المدية وشرشال والشلف وفي وهران.

إنها أحداث خطيرة أظهرت للفرنسيين سوء تقديرهم لأن احتلال الجزائر لا يعني التحكم في كامل أيالة الجزائر.

خطأ الاستعمار منذ البداية كان جسيما ولم يكن لا معقولا ولا إنسانيا، الرائد ريليار "Riliere" الذي كان مسؤولا عن جيش الاحتلال في مدينة البليدة خلال شهر نوفمبر 1830 يضرب أعناق كل سكان بلده لم تكن تبعد عن البليدة إلا بحوالي أربع كيلومترات.

والنقيب كولار " Coular" المسؤول هو الأخر عن النظام والأمن في مدينة شرشال يهدد سكانها بالجلد.

وكانت أكبر مواجهة بين الجانبين، جيش الداي حسين وجيش الاحتلال الفرنسي في معركة سطاوالي إلى يومي 15 و16 من شهر جوان 1830 انتهت بهزيمة جيش الإدارة التركية في الجزائر واستسلام ومغادرة الداي حسين وأتباعه من الأتراك محملين بالذهب والممتلكات والجواري إلى مدينة نابولي بإيطاليا، وكان الأمر مقضيا والاتفاق كان سابقا محضرا.

بعدها ودون مقاومة تذكر، دخلت جيوش فرنسا العاصمة حيث عاثت في البلاد والعباد فسادا، سلامة الأشخاص لم تراع والمقدسات دنست والحرمات أديست والممتلكات نهبت في صورة غنائم حرب وحولت إلى فرنسا.

وكم من القطط والكلاب السمان حققت ثراءها في زمن الحرب أو زمن النهب، ما دام القانون غاب وحل محله قانون الغلب والغنائم.

اعتداءات الفرنسيين والأوروبيين على الأهالي الجزائريين صارت يوميا، السلطة الفرنسية لا تحافظ على النظام العام والسكينة العامة في المدن التي احتلتها عندما يتعلق الأمر بالجزائريين.

إنهم عصاة ويجب تأديبهم من قبل الأوروبيين المتحضرين، وعند دفاع الجزائريين عن أنفسهم ضد الأوروبيين فيجب تدخل هذه السلطة لتأمر باعتقالهم وربما تعدمهم لأنهم وحوش ومتخلفين، لا يتقبلون الأوروبيين المتحضرين الذين يستحوذون على أراضي وممتلكات الأهالي

الجزائريين قصد خدمة اقتصاد فرنسا ومع بداية الاحتلال وأثناء تدفق جيش الاحتلال نحو الجزائر تعرض لهجوم هؤلاء الخارجين عن القانون في البليدة في مناطق المدية وشرشال والشلف وفي وهران.

إنها أحداث خطيرة للفرنسيين سوء تقديرهم لأن احتلال الجزائر لا يعني التحكم في كامل أيالة الجزائر. خطأ الاستعمار منذ البداية كان جسيما ولم يكن لا معقولا ولا إنسانيا، الرائد ريليار "Riliere" الذي كان مسؤولا عن جيش الاحتلال في مدينة البليدة خلال شهر نوفمبر 1830 يضرب أعناق كل سكان بلدة لم تكن تبعد عن البليدة إلا بحوالي أربع كيلومترات.

والنقيب كولار "Coular" المسؤول هو الآخر عن النظام والأمن في مدينة شرشال يهدد سكانها بالجلد والتعذيب إن لم يحترموا الدولة والجيش الفرنسي، ويسجن كل من عارض الوجود الفرنسي في الجزائر. والعقيد ماتي "MATI" قائد جيش الاحتلال في الشلف خلال نفس الفترة عذب عدة نساء جزائريات بالاغتصاب وأمر أفراد جيشه بالانتقام من المجاهدين والمعارضين. وقام البعض بتنفيذ أوامر أفراد عسكريين فرنسيين، وعلم بالحادث الخطير حسب قوله لكنه عفا عنهم ولم يعاقب أحدا منهم.

صحيح أن الجنرال كلوزيل أحد كبار المجرمين الفرنسيين وبخ هؤلاء القادة واستنكر هذه السلوكات السلبية لقوات الاحتلال إلا أن جرائم الاستعمار بدأت يوم الاحتلال نفسه.

ولأن هذا الجنرال المجرم سبق له وأن قال: "يجب أن تدخل الحضارة إلى الجزائر بوسائل غير حضارية"[1].

---

[1]- راجع : مداخلتنا ، في المركز الثقافي الإسلامي بالجزائر ، جرائم الاستعمار الفرنسي خلال الاحتلال ، محفوظة بالمركز ، منذ 1980 م ، ص : 12.

أي اتباع سياسة الأرض المحروقة، وأسلوب النهب والمصادرة للأراضي الخصبة والممتلكات دون وجه حق، لخدمة الاقتصاد الفرنسي.

إن احتلال فرنسا قدم إلى الجزائر بأفكار مسبقة، سلبية وعنصرية، الأمر الذي يعد مدهشا حقا لأن ذلك يناقض تعاليم المسيحية بل ومبادئها[1].

لكن رغم ذلك فإن ثروات الجزائر وممتلكاتها كبيرة وخصوبة أراضيها هامة، ويجب أن يضحي الاستعمار الفرنسي بكثير من قواته الفرنسية والأوروبية من أجل تحقيق الاستيطان لأنه هو الهدف، هدف المسيحية والأمة الفرنسية والأوروبية.

إن سياسة إبادة الجزائريين بتهمة العصيان أو مقاومة الاستعمار الفرنسي في احتلاله لا يمكن أن تبرر الجرائم الفظيعة المرتكبة في حق الأبرياء. وحتى حق الشعب الجزائري في الدفاع عن نفسه، عن شرفه، عن سيادته، عن مقدساته وحرماته تجيز مثل هذه المقاومة وذلك العصيان الضروريان للتعبير عن عدم الرضا وعدم الطاعة لدخيل أجنبي يختلف في كل شيء عن السكان المحليين.نعم لقد تبين للاستعمار الفرنسي خلال تواجده في الجزائر أن أعمال التقتيل والدمار للأهالي الجزائريين وسياسة الأرض المحروقة وإتلاف المحاصيل ومصادرة أراضي المسلمين الجزائريين وتسليط الفقر والمجاعة والجهل والأمية لا يزيد البلاد إلا سوءا، ثم إن استسلام الأمير عبد القادر وأتباعه بتاريخ 23 ديسمبر 1847 للمجرم لاموريسارو دوق دومال، وكذلك استسلام أحمد باي وأتباعه والقضاء على الثورة في القبائل بالقبض على البطلة لالة فاطمة نسومر لا يوقف المقاومة الجزائرية، لأن العنف والظلم لا يولدان إلا العنف والمقاومة تصبح مشروعة للدفاع عن الحق في الحياة والحق في العيش.

---

[1]- راجع : شارل أندري جوليان ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ج1 ، ص : 15 .

إن حرب الاحتلال الفرنسي في الجزائر كانت ظالمة ومجففة، استهدفت مقدسات المسلمين وممتلكاتهم وشرف وأعراض العائلات الجزائرية وكانت حاقدة، صليبية وتنصيرية، حاربت الجزائريين بالتجهيل بدل التعليم،وبالتغليط بدل قول الحق، وإعطاء الحق للجميع، دون تمييز ولا عنصرية، دون تهجير ولا استيطان.

أهلكت في الجزائر ما بين 1830 و1870 أكثر من 5 ملايين نسمة من الجزائريين، بسبب المجازر والتقتيل الظالم لهم من قوات الاحتلال الفرنسية، علاوة على اضطرار مليون جزائري إلى الهجرة[1] بسبب سياسة الأرض المحروقة والتجويع وتسليط الأمراض والأوبئة على السكان المحليين قصد الإضرار بهم.

إنها الحرب القذرة كما يسميها الجزائريون، نتائجها مأساوية، مجازر وتقتيل وتعذيب بين الجزائريين قتال شرس، برك من الدماء، جثث تدفن وأخرى ترمى في الأبار والحفر، نعم يجب ردم كل الموتى الوقت لا يسمح بدفنهم طبقا للطقوس الدينية، هكذا كان المجرم الجنرال كلوزيل يأمر جنود احتلاله.

موقع المعركة بين العدو الفرنسي والمجاهدين، الأغواط، المدينة صارت خاوية بعد المعركة، الجميع هجرها حتى الكلاب ولم يسرع إليها إلا الغربان والعقبان التي تجمعت نتيجة الموتى والتعفن بينهم.

المجاهدون يحصون صفوفهم ويحاولون التخفيف من هول المعركة، أما القوات الفرنسية فإنها مشغولة بجمع الغنائم الكبيرة من السجاجيد والذهب والفضة والأثاث والأمتعة المهمة والغالية، يجب إفراغ المنازل منها لأن ذلك من أهداف الحملة العسكرية الفرنسية في الجزائر.

---

[1] - راجع : مصطفى الأشرف ، الجزائر الأمة و المجتمع ، ماسبيرو ، باريس ، 1965 ، ص : 25 .

حتى الممتلكات الأخرى عقارية أو منقولة يجب مصادرتها أو حجزها ووضعها تحت تصرف الجيش الفرنسي لأن الخارجين عن القانون خسروا المعركة، ويجب أن يحرموا من كل شيء له ثمن في السوق، إنها أحكام قانون الحضارة الفرنسية والأوروبية.

إن الهجوم النهائي للجيش الفرنسي على الأهالي العصلة كان بتاريخ 4 ديسمبر 1852، تمت فيه التصفية لأغلب العصلة وإبادة كل الإرهابيين الجزائريين، حتى السكان المدنيين بل والأطفال والنساء والشيوخ العجزة إرهابيين جزائريين.

إن القوات الفرنسية قاتلت الجزائريين بوحشية وأيضا صادرت أراضيهم الخصبة وممتلكاتهم المهمة، لكنها أيضا حرمتهم من مصادر أرزاقهم كقطع نخيل البساتين وإفراغ المطامير من مخزونها من القمح والشعير ولأن قطع الأشجار المثمرة للمجاهدين العرب تمنعهم من تجارة المقايضة وبالتالي تعرضهم للمرض وللجوع وللفقر ثم الموت[1].

كما أن قوات الجيش الفرنسي بعد كل معركة تخوضها ضد الجزائريين تصادر المواشي والدواب، سواء أصحابها شاركوا فيها ضده أم لم يشاركوا لأنهم جزائريين ولأنهم لم يحافظوا على النظام والأمن.

خلال عامي 1846، 1847 ألزم الأهالي الجزائريين جميعا على دفع ضريبة حرب لصالح الخزينة الاستعمارية في الواقع على حرب تشن ضدهم حيث جمع جيش الاحتلال بالقوة أكثر من 15000 عجل وقرابة 10000 بقرة و2000 حصان وأكثر من 40000 رأس من الغنم، و1000 رأس من الإبل، علاوة على مصادرة وحجز كل المركبات التي يمكنها أن تنقل المجاهدين والمعارضين للوجود الفرنسي في الجزائر.

1- راجع : أوجان فرومنتان ، صائفة في الصحراء ، باريس ، مكتبة بلون الطبعة الثامنة و الثلاثون ، 1924 ، ص : 285

إن أغلب الدواب، دواب الركوب والحمل والحرث تم حجزها لخدمة أهداف القوات الفرنسية ولحرمان الجزائريين من مصادر رزقهم.

إن الجزائريين الذين كانوا يملكون أكثر من 5 ملايين رأس من الأغنام وأكثر من مليونين بقرة وعجل وقرابة 100 ألف من الإبل لم يعد لديهم نصف هذا العدد لأسباب الاحتلال الفرنسي.

إن الاحتلال الفرنسي كان حربا صليبية موجهة ضد الجزائريين العرب قصد إبادتهم وإفراغ البلاد منهم وإحلال الأوروبيين مكانهم[1].

لقد انتشرت الأمراض والأوبئة بسبب سياسة الاستعمار الفرنسي الذي خطط لإبادة الجزائريين، فالأب بيرزي "PERZI" يذكر أنه خلال شهرين فحسب توفي أكثر من 250 ألف جزائري نتيجة الأمراض خاصة منها الكوليرا والتيفوس والطاعون وغياب الأغذية.

فلم يكن عند الأهالي الجزائريين لا الغذاء ولا الماء ولا الملبس ولا الفراش، صاروا خلال أكثر من عشر سنوات يأكلون الكلاب والقطط والفئران بل وأخطر من ذلك بعضهم أكل جثث موتاهم.

وقد دوّن أحد ضباط الجيش الفرنسي أن أهالي الجزائريين فقدوا الربع من سكانهم خلال هذه العشرية [2] وزيادة على ويلات الجيش الفرنسي وجرائمه، ساهمت الكوارث الطبيعية بين 1860 و1870 في تدمير الجزائريين وممتلكاتهم وكادوا أن ينقرضوا بسبب الجفاف والمجاعة والأوبئة وهجوم الجراد على محصولاتهم من الحبوب الذي لم يترك لا الأخضر ولا اليابس، مما اضطر معه الباشاغا المقراني إلى قبول سلفيات من البنوك لشراء البذور اللازمة للفلاحة بهدف مساعدة الجزائريين على البقاء ومقاومة الكوارث الطبيعية والاستعمارية.

---

[1]- راجع : صاري الجيلالي ، انتفاضة 1871 - 1872 ، الشركة الوطنية للنشر و الإشهار ، الجزائر ..

[2]- راجع : د يحي بوعزيز " م س ذ " ، ص : 67 .

وخلال الفترة الحرجة في حياة الجزائريين والبؤس الشديد بينهم، كان تدخل الكنيسة المسيحية برجالها المستغلين لفقر الجزائريين في إطار الخطة الاستعمارية الاستيطانية بتحويل المساجد الإسلامية إلى كنائس مسيحية، والعمل على تنصير الجزائريين.

وقد سعى أكثر من رجل دين وضباط ساميين في الجيش الفرنسي إلى جس نبض المسلمين في الأغواط وفي قسنطينة وفي منطقة القبائل وبالغرب الجزائري وكان الجواب شاملا وعاما "إننا مسلمون ولن نتخلى عن ديننا مهما كانت المساومات". وإذا أرغمنا فإننا سنهاجر أو نموت دون ذلك.

ورغم أن المطران الجديد المسيحي في الجزائر الأب لا فيجري "LAFIDJRI" شجع سلطة الاحتلال على تنصير الجزائريين واستغلال فقرهم وجهلهم ومرضهم، لافيجري الذي تلقى كامل التفويض من الإمبراطور نابليون الثالث، كان يرى ضرورة تنصير الأهالي الجزائريين المعدومين وكذلك الأطفال الصغار ليصبحوا مسيحيين وبالتالي إنقاذهم من الموت المحقق، وقد كونت لهذا الغرض عدة مراكز استقبال مسيحية تحت إشراف الآباء البيض بالتنسيق مع سلطة وجيش الاحتلال الفرنسي لتحقيق الاستيطان، إذ جمعت أكثر من 10000 يتيم وحاولت تنصيرهم[1].

لكن إن فشلت السلطات الفرنسية في تنصير المسلمين في أغلب مناطق الجزائر فإنها حققت بعض التقدم في منطقة القبائل، ولقد كان الباشاغا بن علي الشريف صريحا مع المارشال ماك ماهون "MAKH MAHON" عندما اعترف له أنه سيموت مسلما ولن يبدل دينه، أما أبناؤه وأحفاده فهم أحرار.

---

[1] - راجع : د يحي بو عزيز ، دور عائلتي المقراني و الحداد في انتفاضة 1871 ، رسالة دكتورة ، 1975 .

والملاحظ أن محاولات التنصير لم تفلح في الجزائر، لحصانة العقيدة الإسلامية ولربط الجزائري بطبعة بين العقيدة والهوية بل والقومية.

فالجزائري لا يتصور عربيا على غير عقيدة الإسلام، الأمر الذي يختلف في الشرق العربي.

ومما لا شك فيه أن من الأسباب الرئيسية لثورة الشيخ المقراني تعود إلى الظلم الفرنسي في الجزائر، منها سياسة الأرض المحروقة وسعيه الاستيطان وأيضا مصادرته للأراضي الخصبة والممتلكات الجزائرية دون وجه حق.

لقد أخطأ الاستعمار الفرنسي التلميذ الغبي كما قال الجنرال جيلب عند اعتقاده أنه يستطيع أن يستوطن في الجزائر، ويصادر أراضيها لصالح المعمرين والأوروبيين، وبدأ تجربته بنقل سكان الألزاس واللوريين ولخطأ كثيرا عندما اعتقد أنه سيفلح في تنصير المسلمين الجزائريين، بالتركيز على تنصير الأطفال وإبادة أو نفي المعارضين لسياسته.

لقد اختارت فرنسا تحقيقا لمشروعها في الاستيطان تهجير الجزائريين من أراضيهم ومصادرة أرزاقهم وعند عصيانهم أو مقاومتهم يصبحون خارجين عن القانون، حينها ترحلهم إلى كاليدونيا الجديدة أو كورسيكا أو إلى منطقة كيبك الكندية.

لقد رأت فرنسا أن جلب رؤوس الأموال الكبيرة من دوائر لها علاقة بالاستعمار وإجبار الجزائريين على التخلي عن أراضيهم لصالح الاستثمار الفرنسي الأوروبي وتسكين العائلات الأوروبية عن طريق السلطة الفرنسية أو الجمعيات المسيحية أو اللجان الكنيسية التي كانت تتولى بيع الأراضي للمعمرين أو الأوروبيين الأسلوب الأفضل، غير أن معارضة آل المقراني وكافة الأحرار لمشروعها ضايقها كثيرا.

كرشتل والأراضي الواقعة بين سسك ووهران، والتي كان يشغلها أفراد شافع ودواوير غمرة [1]. ظلت الوضعية كذلك إلى غاية الانسحاب الثاني والنهائي سنة 1792.

القوات العسكرية:

اعتمد عروج وإخوته، في نشاطاتهما الأولى في الجزائر، على المتطوعين، سواء من القراصنة الذين جاؤوا من الشرق أومن الأهالي الذين تعاملوا معهم في بجاية، جيجل، الجزائر، المدية وغيرها. أقام عروج سلطته في مدينة الجزائر اعتمادا على هؤلاء المتطوعين، خاصة أولئك الذين جندهم ملك كوكو. لقد أثبتت تجربة المتطوعين محدوديتها في مواجهة قوى عديدة أثارها نشاط عروج وأنصاره، مثل الاسبان، الزيانيين، الحفصيين، الثعالبة وغيرهم. لقد أدرك خير الدين أن المشروع الذي يريد تجسيده في الجزائر لن يتحقق اعتمادا على المتطوعين، فاتجه إلى الدولة العثمانية، التي زودته بعدد من جنودها النظاميين أوما كان يعرف بالإنكشارية، كما سمحت له بتجنيد مثل هؤلاء الإنكشاريين في أقاليمها خاصة الأناضول. لقد ظلت السلطة التركية في الجزائر تجند هؤلاء الإنكشاريين في أقاليم الدولة العثمانية إلى غاية سقوطها. كانت الإنكشارية العمود الفقري للجيش التركي في الجزائر، إلى جانب الصبايحية والزواوة والقوم والبحرية.

الإنكشارية:

كانت الإنكشارية (الإنجشارية كما كانت تسمى في بلادنا) في الجزائر شبيهة بالإنكشارية العثمانية، التي تعني "يني شيري" بمعنى الجيش الجديد إنها جيش نظامي بري. أنشأها السلطان العثماني مراد

---

[1]- نفسه ص 48.

الأول في أواخر القرن الرابع عشر. كانت حكرا على الأطفال المسيحيين الذين كان العثمانيون يستولون عليهم في المقاطعات الأوربية التي سيطروا عليها. كانوا يمنحونهم تربية دينية إسلامية إلى أن يصلوا سن البلوغ فيدمجونهم في الجيش البري أوالمشاة.

تكونت النواة الأولى للإنكشارية في الجزائر من الجنود الذين أرسلتهم الدولة العثمانية إلى خير الدين، يقدر البعض عددهم بألفي رجل، إلى جانب المتطوعين والمجندين الذين سمحت لهم الدولة العثمانية بالانتقال إلى الجزائر، مقابل أن تصبح الأخيرة ولاية عثمانية. لهذا فإن العناصر التي شكلت الإنكشارية في الجزائر تختلف عن العناصر التي شكلت الإنكشارية العثمانية. ففي حين تتشكل الإنكشارية العثمانية من العناصر غير التركية أساسا، تتشكل الإنكشارية الجزائرية من العناصر التركية أساسا. كان التجنيد يتم في الأراضي العثمانية إما بواسطة مبعوثين من الجزائر وإما بواسطة الدولة العثمانية نفسها وإما بفضل المبادرة الفردية. حول الأسلوب الأخير يقول حمدان خوجة: "بمجرد ما يحصل أحدهم (أحد الإنكشاريين) على بعض المال يسافر إلى تركيا مسقط رأسه، فيأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر في مظهر الرخاء والترف أمام بني وطنه وليعجبهم، إذ ربما هو لأحد العمال أوالمزارعين وعندما يعود إلى الجزائر حيث عائلته، يصطحب معه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر، تحت ضمانته يُقبَلون في صفوف الميليشا ثم يتولى هوتدريبهم على الجندية، وتعليمهم واجباتهم الجديدة"[1]. لقد عمل الإنكشاريون على الحفاظ على (نقاوة) طائفتهم التركية فرضوا بانضمام العناصر الأهلية إليهم. لهذا ظل بقاء ونموالإنكشارية مرهونا بالتجنيد من الأراضي العثمانية، خاصة وأن الأتراك رفضوا الاعتراف

---

[1]- فاليجو. المرجع السابق ص 357 – 359.

وذكر بيير لافون ما يلي: "وفد رجال أوروبيين من بالما، واليكونت وباليرما، ومالطا وكورسيكا كانوا بؤساء هرولوا لاستصلاح أراضي الجزائريين".

ثم دفع ذكاء السلطة الفرنسية إلى المناورة، وتطبيق مبدأ "فرق تسد" فاتجهت إلى اليهود الذين كانوا يعيشون في وئام تام مع المسلمين ويتمتعون بكل حقوقهم وحرياتهم. اليهود الذين احتفلوا بدخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر، وعرضوا خدماتهم على الاستعمار الفرنسي، لأنه في رأيهم العارف بحرفيتهم ومهارتهم. وكان أول مشروع لدمج اليهود في فرنسا عام 1843، طبعا يهود الجزائر وفي 14 جويلية 1865 م منحت المواطنة الفرنسية ليهود الجزائر مع الحفاظ على الحالة الشخصية[1].

ورغم محاولات المحامي أدولف كريميو التكفل بهذه القضية لإدماج اليهود جماعيا في المواطنة الفرنسية، إلا أن معارضة المارشال "ماك ماهون" الذي رأى عدم إحراج الجزائريين وأن يترك الموضوع لطلب كل يهودي باختياره.

وبعد أن أصبح هذا المحامي وزيرا للعدل الفرنسي بلغ هدفه ومنحت الجنسية الفرنسية لكل يهود الجزائر من قبل السلطة.

فكانت العنصرية الفرنسية اتجاه العرب المسلمين ومنحت الامتياز لليهود.

إن الظلم والإجرام الذي زرعه الاستعمار الفرنسي في الجزائر ضد الجزائريين كان سببا في ظهور مقاومة المجاهد المقراني.

والذي سأتناوله في هذا الفصل.

---

[1]- راجع : الإشراف مصطفى ، المرجع السابق ، ص : 233 راجع : فورست لويس ، تجنيس الجزائر و انتفاضة 1871 ، دراسة تاريخية ، باريس 1896 ، ص : 55

الفصل الثالث

مقاومة حمدان بن عثمان خوجة

وهو كروغلي أحد أثرياء مدينة الجزائر ينتسب إلى أسرة جزائرية عريقة، كان أبوه فقيها شغل مهنة التدريس ثم أمينا عاما لمدينة الجزائر، أما ابنه حمدان خوجة فقد امتهن التدريس حيث كان أستاذ القانون، ثم تعاطى التجارة مع عمه الحاج محمد ونظرا لمركزه العائلي والثقافي تولى مناصب عليا في عهد الداي حيث كان مستشاره قبل الاحتلال. وكان رجل مثقف يجيد اللغة العربية والتركية ويحسن الفرنسية والإنجليزية، ألف ثلاثة كتب من بينهم كتابه المعروف "المرآة"، سافر إلى العديد من الدول الإسلامية والأوروبية واطلع خلالها على ما كان يجري في العالم وخاصة أوروبا من تطورات اقتصادية وسياسية وثقافية، وهو على خلاف شخصية أحمد بوضربة لم يكن ميالا للفرنسيين. وعند احتلال مدينة الجزائر كان بإمكانه الرحيل مع الداي الحسين لكنه رفض حبا للوطن ودفاعا عن الإسلام، وهذا ما ذكره في رسالته الموجهة لصديقه محمود بتاريخ 1 جوان 1834 حيث قل: "كان بإمكاني السكوت مثلما فعل الأغلبية، لكن حبي للإسلام دفعني للعمل وتحمل أخطر المصاعب لأبلغك". ودعي حمدان خوجة في بداية الاستعمار إلى التآخي والتعاون مع فرنسا وكلفته السلطات الفرنسية بالتفاوض باسمها مع كل من الحاج أحمد باي قسنطينة وبومزراق باي التيطري قصد قبول اقتراحات فرنسا، كما عينه غداة الاحتلال الجنرال دي بورمون عضوا في المجلس البلدي،

واحتفظ بنفس المنصب في عهد كلوزيل. إلا أن هذه الأعمال لم تنقص من وطنيته بل كان في نفس الوقت يدافع عن حقوق شعبه، وعندما تيقن من همجية الاستعمار الفرنسي تدارك الأخطاء وغير أفكاره لمحاربته سياسيا، فكان يعلم منذ بداية الاحتلال أن فرنسا لا تريد

الخير لهذا البلد الجزائري، وهذا ما تنبأ به وذكره في كتابه "المرآة" حيث قال: "أن فرنسا لا تجني أي فائدة من الجزائر، ولا تنشر الحضارة في هذا البلد إلا بتطبيق المبدأين السارية المفعول التي تؤمن بهم وهم: أولا استئصال هذا الشعب، وثانيا إرغام السكان على بيع ممتلكاتهم والرحيل خارج هذه الأرض". وهذا ما وقع حقيقة بعد قرن واثني وثلاثون سنة من الاحتلال، فجلبت له مواقفه الوطنية المدافعة عن المفتين الحنفيين المسجونين من طرف الجنرال كلوزيل والتنديد بنهب ممتلكات المواطنين وخاصة مناهضته للاعتداء على حرمة المساجد وتبديلها بكنائس عداء اليهود والمعمرين الأوروبيين والسلطات الفرنسية، فألصقوا بشخصيته أكاذيب واتهموه بالرشوة والاختلاس وسوء الأخلاق، فأجبره الدوق روفيغو على الرحيل إلى فرنسا سنة 1833 م. وهناك اجتمع مع نخبة من الجزائريين المثقفين، ونظم المقاومة السياسية وتولى الدفاع عن القضية الجزائرية بتنوير الرأي العام الفرنسي والعالمي حول ما يجري بالجزائر من ظلم وإرهاب، وفي هذا الصدد بعث عدة رسائل للسلطة العثمانية وإنجلترا مناشدا إياهم بالتدخل لجلاء الجيش الفرنسي من الجزائر، لأنه كان متيقن بأن فرنسا لن تتخلى عن الجزائر، وهذا ما ذكره في إحدى مراسلته إلى صديقه محمود بتاريخ 1 جوان 1834م قال فيها: "الفرنسيون لن يغادروا الجزائر إلا إذا جاءت إلى نجدتنا قوة عثمانية، ووعود الفرنسيين لن تتحقق، إن هجمتهم الوحشية تزداد يوم بعد يوم". وفي هذه الفترة وقع نقاش حاد في البرلمان الفرنسي بين التيار المناصر للاستعمار والتيار المناهض له، فاستغل حمدان خوجة هذا النزاع لخدمة المصلحة الجزائرية محاولا التأثير على الرأي العام الفرنسي لصالح استقلال الجزائر مستعملا قنوات الصحف الباريسية، إلى جانب هذا أرسل حمدان خوجة مذكرات وعرائض إلى الحكومة الفرنسية يناشدها بالتدخل في الجزائر مذكرا إياها ببنود معاهدة الاستسلام، فبعث لهذا الغرض رسالة إلى وزير الحرب

الفرنسي الماريشال سولت Soult تتضمن 18 نقطة يعبر فيها عن شكاوي سكان الجزائر، ويدعو فيها إلى تعيين لجنة تحقيق محايدة ونزيهة للنظر في الظلم الذي يتعرض له الشعب الجزائري، ومطالبا بالجلاء الفوري للجيش الفرنسي. وقد أثمرت هذه الجهود في تكوين لجنة إفريقية للتحقيق في الجزائر تم تشكيلها بأمر من ملك فرنسا لويس فيليب يوم 7 جويلية 1833 م وترأسها الجنرال بوني مهمتها دراسة الوضع الشامل في الجزائر وتحديد أسس العمل في المستقبل، وواصلت إلى الجزائر في 2 سبتمبر في السنة ذاتها واستمعت لممثلي السلطات العسكرية والمدنية، ووفد عن اليهود، وأعيان الجزائر ومن بينهم حمدان خوجة الذي سلم لهم مذكرة طويلة ومن جملة ما ذكر فيها: "أن تبحث اللجنة الإفريقية على الأصول التي تستقي منها معلوماتها للتأكد بدقة ما يجري في الجزائر من اضطهاد لسكانها والتفحص في الخبر لنقله بصدق وعدم الحكم على المظاهر، وأعلمهم بمجزرة قبيلة العوفية التي أبيدت بأكملها رجالا وأطفالا وشيوخا ونساء، وما يحدث من نهب ورعب وتعسف في حق الجزائريين، كما أرشدهم باتخاذ تدابير وإجراءات عادلة تسمح لهم بالتحقق والحكم بنزاهة وموضوعية، وفي الأخير عرض عليهم بتعيين أمير مسلم جزائري ذات سمعة وقدرة توكله فرنسا مصير هذا الشعب ليحكمه وفقا للمبادئ الليبرالية المناسبة لقوانين وعادات الشعب الجزائري". وقامت اللجنة بجولة في مدينة الجزائر وعنابة ووهران وأرزيو وبجاية، ثم عادت إلى مدينة الجزائر أين عقدت جلستها الأخيرة يوم 25 أكتوبر 1833 م. ومن جملة الاقتراحات التي قدمتها للحكومة الفرنسية الاحتفاظ بالجزائر تحت اسم ممتلكات فرنسا في إفريقيا، وتطبيق النظام الفرنسي خلفا للتركي، تشجيع الاستيطان الأوروبي، تشكيل مجلس بلدي مختلط، وتعيين حاكم عام على الجزائر يتولى السلطات المدنية والعسكرية، خلق ميزانية خاصة بالجزائر. كما أقرت الوضعية السيئة للجزائريين، وهذه فقرة من تقريرها الطويل: "لقد حطمنا ممتلكات

المؤسسات الدينية وجردنا السكان الذين وعدناهم بالأمان وأخذنا الممتلكات الخاصة بلا تعويضات وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان وحكمنا رجالا يتمتعون بسمعة القديسين في بلادهم لأنهم كانوا شجعانا لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين". وباختصار كما قال أحد أعضاء اللجنة "لقد تجاوزنا في البربرية هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم". ودارت في البرلمان الفرنسي نقاش بين المعارضين والمؤيدين للاحتلال انتصر فيه أصحاب فكرة المحافظة على الجزائر. إلا أنه في حقيقة الأمر شكلت هذه اللجنة لتبرير الاحتلال، ولم تطبق الحكومة الفرنسية من مقترحاتها إلا ما يخدم مصلحها. وهذا ما أدى إلى خيبة أمل حمدان خوجة لأن هذه اللجنة لم تحقق ما كان يرجوه، لكنه واصل معركته السياسية بالقلم واللسان ضد الاحتلال بتنشيط مؤتمرات صحفية للتعريف بالقضية الجزائرية. وألف لهذا الغرض كتاب بالعربية ترجمة إلى اللغة الفرنسية وصدر بباريس في شهر أكتوبر 1833 اطلعت عليه لجنة التحقيق عنوانه "المرآة" تطرق فيه إلى جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة الجزائر، ولتنوير السلطات والرأي العام الفرنسي بما يجري في الجزائر كتب عن المعانات اليومية للشعب الجزائري جراء الأعمال القمعية والوحشية التي كان يقوم بها المعمرون الأوروبيون وجنرالات فرنسا في الجزائر مذكرا إياهم بالوعود التي ضربتها فرنسا على نفسها في معاهدة الاستسلام. وردا عن أعماله الوطنية قام الجنرال كلوزيل بحبس أبناء حمدان في مدينة الجزائر وحجز مراسلاته. وفي عام 1836م رحل حمدان خوجة إلى اسطمبول بعد أن حجزت كل ممتلكاته المقدرة حسب السلطات الاستعمارية بـ 40 مليون فرنك، ورغم ذلك بقى هناك وفيا للجزائر يدافع عن قضية أحمد باي والأمير عبد القادر لدى السلطات العثمانية إلى أن وافته المنية بالقسطنطينية عام 1842. وفي هذا الصدد حرر رسالة إلى السلطان

العثماني محمود جاء فيها ما يلي: "إن المسلمين الذين ماتوا، ودفنوا في أرض الجزائر، سيسألونكم يوم القيامة، لماذا تركتموهم لوحدهم ؟".

وهذه بعض المقتطفات من رسالته الطويلة التي حررها حمدان خوجة بتاريخ 1 جوان 1834 إلى صديقه محمود ويطلب منه بتبليغها إلى السلطان العثماني محمود خان الثاني. وجاء فيها ما يلي:

"أنا، كتبت ووضعت النقاط على الحروف. عليكم أنتم الآن أن تعملوا، إن سكوتكم عار. خذوا في الحسبان دماء المسلمين التي تسيل يوميا. أبلغوا سلطاننا بالقضية، حاولوا جلب انتباهه، عطفه، بالنسبة إلي أنا بأفكاري، والسكان بسلاحهم، حاربنا الكفار، عليكم أنتم الآن بالتحرك".

وهذه بعض المقتطفات من رسالته الطويلة التي بعثها إلى صديقه محمود المقيم بالأستانة (تركيا) يحثه فيها عن حالة الجزائريين، وموقف ملك فرنسا من قضية الجزائر، والأعمال الإجرامية للفرنسيين، ويطلب منه بتبليغها إلى السلطان العثماني محمود خان الثاني. وجاء فيها ما يلي:

"وقد أخذ مجلس الديوان (ديوان الممالك) كتابي بعين الاعتبار أثناء تطرقه إلى المسألة الجزائرية واستشهد بأقوالي الواردة فيه بشأن القضية وقد ذكرت هذه الأقوال مفصلة في جريدة مونتور. إن موقف الملك وخواصه من القضية الجزائرية يتمثل في الكيفية التي سبقت حسب الجريدة المذكورة آنفا غير أن الأمر يرجع في الأخير إلى أيدي العوام - النواب - الذين يمتلكون العلم أو السنجاق ذو الألوان الثلاثة لأن تصرفات الملك مقيدة بإرادة العوام فلا يمكن أن تظهر وتتجلى إلا في إطار تنفيذ رأيه وتحقيق إرادته، ومع ذلك فإن العوام لا يعرفون شيئا عن الجزائر وماهيتها إلا المعلومات التي يلتقطونها من أفواه أولائك الذين أتوا إلى الجزائر من أبناء جنسهم ثم عادوا إلى فرنسا، وهؤلاء هم أولائك الأسافل والأراذل الذين ذاقوا طعم الظلم والقتل والنهب

بواسطة غصب أموال المسلمين تحت ستار الكراء المؤبد والإيجار ثم نقلوها إلى باريس ليبيعوها بأثمان باهظة أو باعوها في باريس وهي في الجزائر". "هؤلاء (الفرنسيين) كلهم أراذل وأبرز دليل على أنهم من الأسافل والأراذل هو تركهم لبلادهم التي هي كالدرة من حيث الجمال والعمران وتشبثهم بالاستيطان في الجزائر التي أصبحت تشبه الأطلال من جراء الفضائح التي ارتكبوها هنالك، فلو لم يكونوا من أسافل الناس وأقلهم درجة لما اقدموا على ذلك ولكنهم يفعلون ذلك لأنهم فعلا كما وصفوا. والذي يتراءى لي أن هؤلاء الأسافل لما عادوا من الجزائر بدءوا يتكلمون عنها ويشيعون بين أبناء جلدتهم عن جودة أرضها وخصبة تربتها وأنها أجود حتى من الأراضي الهندية لأنها صالحة لزراعة القهوة والفلفل والقرمز وغيرها من الخرافات التي لا أصل لها". "إن المرتدين في بلادنا قلة جدا ولا يصل عددهم أكثر من مائة نفرا، أما الباقون من المسلمين فقد نفي وشرد الأغنياء منهم ولم يبقى إلا الضعفاء والمساكين الذين أرغموا على العيش بالذل والهوان والتكفف على الناس". "أخي الكريم إنني رجل وحداني، أولادي وعيالي تحت أيادي الكفار ورحمتهم بالجزائر. وأنا هنا في بلادهم إنني أكافح وأناضل من أجل وطني الجزائر بكل ما أوتيت من قوة ووهبت من مقدرة على الكفاح والنضال عن طريق قلمي ولساني دون أي تقصير أو تهاون ولو أن الكفار علموا بمضمون تحريراتي وتأليفاتي ومراسلاتي مع سائر الأجناس والأعمال التي أقوم بها شخصيا عندما تمتنع الكتابة وتخطر أهمية الموضوع وسريته، نعم ولو اطلعوا على حقيقة هذه الأعمال التي أقوم بها من أجل بلادي الجزائر لا أكلوا لحمي وعذبوني بأشد أنواع العذاب في العالم ولكن الحمد لله فقد سترني ربي ونجاني من القوم الظللين". "أخي الكريم كما تعلمون أيضا فإن سني قد تجاوزت الستين وإنني مستور والحمد لله بستره ولا أطمع لا في مل ولا في منصب".

الفصل الرابع

جهاد الزيبان والأغواط والأوراس

استولى الفرنسيون على الزيبان سنة 1948م بعد استسلام الأمير عبد القادر، وعرف سكانها خلال تلك الفترة الحكم الاستبدادي للسلطات الفرنسية اتجاه المواطنين، ففرضوا على الفلاحين زيادة جائرة في الضريبة على النخيل. وكانت فرنسا في هذه الفترة منشغلة بقمع الثورات داخل الوطن وانقلاب الجمهوريين بعرش ملك فرنسا لويس فيليب، فاستغل الشيخ بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة هذه الظروف للاستعداد للثورة (1848 – 1849)، وكان في السابق يشغل منصب نائب للأمير عبد القادر بمنطقة الزاب الظهري، وكانت كلمته مسموعة في أوساط السكان. وبسبب هذه النشاطات حاول سيروك نائب المكتب العربي ببسكرة القبض على بوزيان في واحته، فتصدى له أنصاره وأطلقوا الرصاص على الضابط الفرنسي ومن كان معه ففر عائدا إلى مقره. ونتيجة لما حدث سير له رئيس المكتب العربي الضابط دوبسكي (Dupesquet) قوة عسكرية، وعندما وصل إلى قرية الزعاطشة طلب سكانها بتسليم الشيخ بوزيان فرفضوا، ولما أحس الضابط الفرنسي باستعدادهم للمقاومة فضل الانسحاب من حيث أتى. وامتدت من بعدها نار الثورة إلى كل منطقة الزيبان وأولاد نايل والحضنة وبوسعادة والأوراس، ودعم حركته الثورية كل من الشيخ سي عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية في الأوراس، والشيخ حامد بلحاج ببوسعادة وبن الجودي شيخ أولاد زيان مما دفع بالقوات الفرنسية المتمركزة بمدينة باتنة بقيادة كاربيسيا للتحرك، والتقى الطرفان يوم 16 جويلية 1849م انتهت

بهزيمة الجيش الفرنسي ومقتل العديد من جنوده. وأمام انتصارات ثوار الزعاطشة وحلفائهم من المناطق الأخرى سير لهم الجنرال الفرنسي هربيوس (Herbillos) قوة عسكرية تتكون من حوالي خمسة آلاف جندي وضابط انطلقت من قسنطينة يوم 25 سبتمبر 1849م، وفي باتنة انضمت إليها قوات أخرى، وفي يوم 17 أكتوبر وبمساعدة قوات شيخ العرب الخائن ابن غانة الموالي لفرنسا بدأ الحصار على مركز الثورة قرية الزعاطشة فرفض سكانها الاستسلام، وأمام إصرارهم على القتال قامت المدفعية الفرنسية يوم 26 نوفمبر 1849م بضرب الأسوار المحيطة بقرية الزعاطشة لإحداث ثغرات فيها ومن خلالها يتمكن التغلغل داخل الواحة. لكن مقاومة الثوار التي ألحقت القتلى في صفوفهم أرغمت فرنسا على تغيير خطتها بتكثيف الضربات بالمدفعية انتهت في الأخير باستيلاء الجيش الفرنسي على قرية الزعاطشة بعد معركة دامية قتل فيها سكانها منزل بمنزل وسقط على إثرها أكثر من 800 شهيد من بينهم الشيخ بوزيان وابنه ونائبه الحاج موسى، فنكل الفرنسيين بجثثهم وقطعوا رؤوسهم وحملوها إلى بسكرة ليعرضوها في الساحة على الناس، وكعادتها إزاء كل الثورات التي اندلعت على أرض الوطن قامت السلطات الفرنسية بتدمير قصور الواحات ومصادرة أملاك سكانها. ولكن نار الثورة بقيت مشتعلة في الأوراس حيث سير إليهم العقيد Canrobert قوة عسكرية في شهر ديسمبر مكنته من إخماد البعض منها وبقيت قرى نارا صامدة في وجهه لكن شجاعتها لم توقف زحف قواته التي دمرت قراهم. وفي عام 1852م ظهر ثائر آخر بالصحراء وهو الشريف محمد بن عبد الله، فعند عودته من البقاع المقدسة شرع مباشرة في الاستعداد لكفاح المحتل الفرنسي في كل من الأغواط وتوقرت وورقلة فبايعه سكانها وانضموا إلى ثورته، وخاض

عدة معارك ضد القوات الفرنسية في كل من جنوب بسكرة يوم 22 ماي 1852م وفي عين الرق يوم 1 أكتوبر 1852م، وألحق بهم أضرارا كبيرة في العتاد والأرواح ثم استولى على مدينة الأغواط، لكن الفرنسيين بمساعدة العميل سي حمزة ولد سيدي الشيخ تمكنوا من استرجاعها في شهر ديسمبر 1852 بعد حصار ومعركة شرسة إستشهد على إثرها الكثير من جنود الشريف محمد بن عبد الله. أرغم من بعد على الانسحاب إلى زاوية رويسات بالقرب من ورقلة، وهناك تحالف مع بن سلمة الذي كان متمركز بتقورت وشنوا هجومات عديدة على القوات الفرنسية، لكن عملاء فرنسا من الجزائريين أمثال سي حمزة أغا منطقة الأغواط وسي الزبير باشاغا ورقلة حالوا دون تحقيق هدفه، فاستولت فرنسا على تقورت سنة 1854م بعد معركة دامية. ورغم محاولته المتكررة لاسترجاع الأغواط وورقلة، إلا أنه لم يفلح أمام القوة الفرنسية المدججة بالسلاح المتطور، وانتهى مصير الشريف بن عبد الله على يد حمزة ولد سيدي الشيخ الذي اعتقله سنة 1861م وسلمه للسلطات الفرنسية، وقامت هذه الأخيرة بوضعه في سجن عسكري بفرنسا. وفي سنة 1858 انطلقت ثورة أخرى من جبل الأوراس قاده أحد مجاهدي ثورة الزعاطشة وهو سي الصادق بن الحاج زعيم أولاد أيوب وشيخ الإخوان الرحمانيين، واستطاع هذا المجاهد أن يوسع ثورته إلى منطقة الزيبان، وقام بعدة هجومات على المراكز الفرنسية، إلا أن ثورته في الأخير عرفت نفس المصير الذي عرفه الشريف محمد بن عبد الله، حيث ألقت القوات الفرنسية والمتعاونين معها من الخونة القبض عليه يوم 20 جانفي 1859 م. لكن الثورة لم تتوقف فاندلعت من جديد سنة 1879 م بالأوراس تحت قيادة شيخ زاوية الرحمانية الإمام محمد أمزيان بن عبد الرحمن، حيث رفع راية الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي

وقام رفقة المجاهدين بمهاجمة مراكز الجيش الفرنسي ودخل معهم في معارك، إلا أن القوات الفرنسية كانت أقوى منه عدة وعددا، ولما اشتد الضغط عليه انسحب إلى تونس، وفي الطريق عثر الجيش الفرنسي على قواته هلكى من شدة الجوع والعطش، أما الشيخ محمد أمزيان فقد سلمته السلطات التونسية رفقة رفاقه المتبقين إلى الجيش الفرنسي حيث حكمت عليه محكمة قسنطينة سنة 1880 بالإعدام.

الفصل الخامس

جهاد القبائل 1846 ـ 1857م

بقيت بلاد القبائل مستقلة حتى سنة 1846 وصمدت أمام العدو الفرنسي إلى غاية 1857، ويرجع الفضل في ذلك إلى الجبال الوعرة التي ساعدت سكانها على مقاومة المحتل الذي وجد صعوبة لاختراقها. ومن أوائل المجاهدين في هذه المنطقة هو الشريف مولاي محمد الملقب بوعود (1845-1847) حارب من قبل في صفوف جيش بومعزة، ولما قضى الاستعمار على ثورة هذا الأخير حمل لواء الجهاد بالونشريس، وكان من أهم أعوانه سي الجودي، فشارك عدة معارك ضد العدو والتحق من بعد ببلاد القبائل بجرجرة أين أعلن الجهاد تحت راية الإسلام وانضم إلى صفوفه الشريف مولاي إبراهيم، لكن دعوته لم تجد أذان صاغية، فاضطر إلى مغادرة بلاد القبائل الكبرى في مارس 1846 م متوجها إلى جيجل والقل فاستجابت القبائل لدعوته الجهادية فحملوا السلاح وأشعلوها نارا على العدو المحتل واستمر مولاي محمد في نشاطه الثوري إلى غاية شهر أوت 1847. لكن سكان القبائل لم يركنوا للاستسلام وقبول الأمر الواقع، فثارت كل من قبيلة بني يعلى وبني مليكش في وجه الاستعمار عندما حاول هذا الأخير المساس بحرمة أراضيهم، وكانت قبيلة بني يعلى السبّاقة لذلك فرفضت الآغا الذي فرض عليهم من الاستعمار الفرنسي، وقاموا ابتداءا من سنة 1847 م بمهاجمة الفرقة العسكرية الفرنسية التي كانت تمر على قريتهم، فقام عندئذ الفرنسيين بقيادة Canrobert برد فعل عنيف على عمليتهم، لجاء بعد ذلك الثوار إلى قبيلة بني مليكش الثورية والتي تصدت للعدو

بشجاعة ولم تنحني أمام بطشه منذ أن وضع المستعمر الفرنسي أقدامه على أراضيها، فلحتضنت سنة 1849 ثورة مولاي إبراهيم الذي دعى سكان بلاد القبائل للالتحاق بثورته من بينهم قبائل بني يني وبني واسيف، وفي عام 1850 امتدت ثورته إلى قرى بجاية، ولكن قوة العدو الفرنسي عدة وعددا تمكنت منه ودفعت قبيلة بني مليكش ثمنا غاليا في الأرواح والممتلكات جراء مساندتها له. لكن الثورة لم تنطفئ فأشعلها من جديد وفي نفس السنة المجاهد الشريف بوبغلة واسمه الحقيقي محمد الأمجد بن عبد المالك ولقب باسم بوبغلة نسبة لبغلته التي كانت تضرب بأرجلها كلما اقترب العدو الفرنسي من الثوار، فحاول من جديد تحريك القبائل التي جاهدت مع مولاي إبراهيم، وبعث برسائل إليهم يحثهم فيها على الجهاد وحمل السلاح، ولهذا الغرض حاولت فرنسا إلقاء القبض عليه فلم تتمكن، فلجاء حينئذ بوبغلة بقلعة بني عباس، وهناك بدأ بتحريض القبائل فاتصل بقبيلة بني مليكش التي استقبلته بحفاوة يوم 24 فيفري 1851 وانضمت إلى ثورته، فجعل من قراها قلاع للمقاومة واتخذها كمنطلق لنشاطه الثوري. فعين أربعة قادة من سكانها وهاجم مراكز العدو واستولى على زاوية الباشاغا بني علي الشريف الموالي لفرنسا وانتزع منه ممتلكات، وكرد فعل على أعماله الثورية دمر الجيش الفرنسي القرى المساندة له. ولتمديد ثورته إلى كل مناطق القبائل اتصل بوبغلة ببعض الزعماء المناهضين للاستعمار من بينها قرى جبل البابور، واستطاع أن يهزم رفقة أنصاره العدو الفرنسي في بجاية فانضم أتباع الطريقة الرحمانية إلى صفوفه. ولما شعرت السلطات الفرنسية بخطورة ثورته سيرت إليه قوة ضخمة تمكنت من أتباعه وألحقت بهم خسائر فلاحة. وعلى إثر الهجمات المتعددة عليه من قبل العدو انسحب إلى جبل جرجرة فلختفى عن أعين الفرنسيين مدة

من الزمن ليستأنف من جديد جهاده في قرى بني مليكش، وفي هذه الفترة تصدى للقبائل المعارضة لثورته والمتواطئة مع الاستعمار، ورغم استسلام أحسن أعوانه إلا أنه واصل الجهاد حتى سقط شهيدا يوم 26 ديسمبر 1854م بواد الساحل. لكن الجهاد استمر من بعده وهذه المرة على يد امرأة مجاهدة لالا فاطمة نسومر التي كانت تخوض غمار الحرب إلى جانب بوبغلة فأعطت درسا تاريخيا للجنرال راندون والحاكم العام للجزائر ماكماهون. وولدت المجاهدة لالا فاطمة نسومر سنة 1830 م بعين الحمام في عائلة مرابطية، وكان أبوها سيدي محمد بن عيسى مقدم زاوية الوالي الشيخ سيدي أحمد أمزيان شيخ الطريقة الرحمانية، فمن جبل جرجرة أعلنت الجهاد باسم الإسلام فجاوزها سكانها من كل المناطق، وألحقت بالجيش الفرنسي عدة هزائم من أشهرها معركة ايشريضن وتاشكريت سنة 1854م أرغمت خلالها الجنرال راندون على الانسحاب بعد أن ألحقت بقواته العديد من الخسائر في العتاد والأرواح. ولما تفطن الجنرال إلى مدى قوة هذه المرأة طلب منها هدنة لاسترجاع أنفاسه والاستعداد لها من جديد ولكن هذه المرة بقوة أكثر عددا وعدة حيث وصلته قوات إضافية من الجزائر، فنقض راندون الهدنة سنة 1857م وبادر بالهجوم عليها فاستولى في طريقه إليها على قرية الأربعاء نايث ايراثن بعد معركة دامية، ولما وصل إلى سومر تصدت له لالا فاطمة ودارت بينهما معركة كبيرة استشهد خلالها الكثير من جنودها لكن لالا فاطمة لم تستسلم بل بقيت صامدة في وجهه رغم ما لحقتها من خسارة، وللقضاء عليها نهائيا لجاء الجنرال راندون إلى الحيلة والمكيدة فبعث لها بوفد يطلب منها الدخول في مفاوضات لغرض الانسحاب فقبلتها لالا فاطمة نسومر وبعثت بوفد إليه برأسه أخوها، وفي تلك الأثناء بعث الجنرال قوة عسكرية إلى مركز إقامة لالا فاطمة

بالصفة التركية لأبنائهم من النسل الجزائريات (الكراغلة). هذه الوضعية لا تسمح لأتراك الجزائر بالانفصال التام عن الدولة العثمانية، وقد استعملت هذه الأخيرة الوضعية تلك ورقة ضغط على الجزائر. هذا وكان في إمكان العبيد غير الأتراك أن يصبحوا انكشاريين.

كان الخلاف قائما بين الإنكشارية والبحارة. كان البحارة يرفضون عناصر الإنكشارية على سفنهم وكانت الإنكشارية ترفض البحارة في صفوفها، إلى أن قرر محمد باشا بن صالح رايس سنة 1568 أن جنود الإنكشارية يمكنهم المشاركة في القرصنة كجنود، وبأن القراصنة والأعلاج يمكنهم الانضمام إلى الإنكشارية والحصول على الأجرة، بل حتى اليهود، الذين تخلوا عن دينهم وأصبحوا مسلمين (سلامي كما كانوا يلقبون)، يمكنهم الانخراط في الإنكشارية، غير أن جعفر باشا منع انخراط هؤلاء السلامي في سنة 1580 نتيجة احتجاجات هذه الأخيرة، والحجة المعتمدة في هذا المنع هي أن اليهود لا يعتنقون الإسلام إلا ليصبحوا انكشاريين، ومن ثمة حماية أنفسهم وحماية إخوانهم من أي اضطهاد[1]. على الرغم من أن الإنكشاريين كانوا يسمحون لأبنائهم بالانخراط في الانكشارية إلا أنهم كانوا ينظرون إلى أبنائهم الكراغلة بعين الشك والريبة، خاصة بعد أن تمردوا عليهم سنة 1629. لقد حرموهم من المسؤوليات السامية. هكذا ظلت الإنكشارية تتكون أساسا من المجندين في الأراضي العثمانية، ومن الأعلاج. على الرغم من الضربات التي تلقتها في العديد من المرات إلا أنها ظلت القوة العسكرية الأساسية في الجزائر.

لقد تعرض هايدولنظام الرتب في الجيش الإنكشاري، في القرن السادس عشر، وقد ظل هذا النظام قائما خلال كل العهد التركي. يمتد

---

[1]- القورصوووليبالزا. المرجع السابق ص 48.

سلم الرتب من اليولداش إلى آغا الإنكشارية. اليولداش عدد أفرادها يتروواح بين 10 و15 أوأكثر. يمكن للأوضة باشي أن يرتقي إلى درجة أورتبة الأوسطراق. يشكل حوالي 16 ضابطا من رتبة الأوسطراق نوعا من هيئة الأركان، لا يمكن للآغا أن يتخذ أي قرار دون استشارتهم. من بينهم يتم اختيار 4 ضباط يسمى كل منهم البادوشة، اثنان منهم يعاونان الأغا واثنان يعاونان الباشا. كما يتم اختيار 4 ضباط يلقبون بالصولاجية يرافقون الباشا في كل مكان ويتناولون الطعام على مائدته، ويمكن للصولاجي أن يأخذ طعام أسرته من دار السلطان، إن كان متزوجا. ومن الضباط الذين لهم دور في الانكشارية نجد البولكباشي الذي يقود العديد من الرجال، فالحملة التي تتكون من ثلاثمائة إنكشاري مثلا نجد فيها حوالي 20 أوأكثر من الضباط بهذه الرتبة. هناك ضابط واحد برتبة موربولكباشي، وهودائما إلى جانب الباشا مع الصولاجية، يتناول طعامه مع الباشا مثلهم ويأخذ طعام أسرته من دار السلطان. يوجد حوالي 20 ضابط برتبة ياباشي، يرافقون الباشا إلى المسجد يوم الجمعة، وأقدمهم هومفوض الإنكشارية قبل السلطة، وهوالذي يسوي مشاكلها مع الباشا، وهوالمكلف بتجهيز المحلات التي تشكل للغزوأولتحصيل الضرائب. هناك ضابط واحد فقط يسمى الباش بولكباشي، وهوالمرشح لوظيفة مساعد الأغا أونائبه الذي يعرف باسم الكاهية، وهوينوب عن الأغا في حالة المرض أوالتعليق، ويخلفه في حالة العزل أوالوفاة[1].

في قمة هرم الإنكشارية نجد الأغا، آغا الإنكشارية، وهوالقائد العام للإنكشارية من الناحية الإدارية والنظامية، له سلطة مطلقة عليها، فهوالذي يوقف الإنكشاري أويعاقبه أويوقف أجرته، وفي هذا الشأن فإن الباشا نفسه لا يصدر عقوبة ضد الإنكشاري إلا بواسطة الأغا. ويمكن

[1]- حمدان. المرجع السابق ص 119.

نسومر بمساعدة أحد الخونة فحاصروا البيت الذي كانت تقيم به والقوا القبض عليها سنة 1857 ووضعوها في سجن بني سليمان (المدية)، وبقيت هنلك إلى أن وافتها المنية إثر مرض أصابها في بطنها سنة 1863. وفي عهد الاستقلال نقلت رفاتها إلى مدينة الجزائر لتدفن بمقبرة العالية في مربع الشهداء، وكرد فعل على أعمالها البطولية أمر الجنرال بتدمير القرى المساندة لثورتها ومصادرة أراضيهم وفرض عليهم ضريبة حربية ثقيلة.

الفصل السادس

جهاد أولاد سيدي الشيخ 1864 – 1880م

في عام 1864 اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ فرع الشراقة بالجنوب الوهراني، وكانت دوافعها كالعادة الأوضاع المتدهورة والظلم الاستعماري. وزاد الطين بلة عند اعتداء جنود الصبايحية التابعين للمكتب العربي بالبيض على سي فضيل كاتب سي سليمان بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ يوم 29 جانفي 1864م، وسبب هذا الحادث يرجع إلى تدخل أحد الصبايحية اثر تحريك بيدق بطريقة غير صحيحة عندما كان يشارك أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ وسي الفضيل في لعبة الحف وهي تشبه لعبة الشطرنج، فوقعت مشاجرة بين هذا الصبايحي والسي الفضيل تدخل على إثرها كل الصبايحية الذين كانوا معه، واقتدوا سي الفضيل إلى مركز المكتب العربي أين أشبعه ضربا. ولما علم سي سليمان بما حدث لكاتبه عزت عليه نفسه واعتبر هذا العمل إهانة له فاستقل من منصب الباشاغا، وسلك طريق مخالف لأبيه سي حمزة ولد أبي بكر الذي كان متعاون مع فرنسا، حيث كان يشغل منصب خليفة على الجنوب الجزائري من البيض غربا إلى واحات ورقلة شرقا. فعقد سي سليمان بن حمزة مجلسا حربيا مع أفراد عائلته أعلنوا خلاله الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، وكلفوا سي الفضيل بكتابة رسائل إلى الزوايا والقبائل والعروش يحثهم فيها على الجهاد والالتحاق بالثورة في أسرع وقت، وانضم إلى حركته العديد من العروش من بينهم عمه سي الأعلى قائد على آغوية ورقلة بالصحراء الشرقية والذي لعب دورا فعالا في ثورة أولاد سيدي الشيخ. وكان أول لقاء بالعدو يوم 8 أبريل

1864م في معركة عوينة بوبكر شرق البيض أين قام المجاهدون بهجوم مفاجئ على مخيم الجيش الفرنسي كبّدوا خلاله العدو خسائر فادحة في الأرواح حيث لم ينجو منها حتى قائدهم العقيد بوبريتر (Beauprêtre) الذي قتل على يد سي سليمان بن حمزة قائد الثورة، ولكن هذا الأخير قتل أيضا بدوره في نفس اللحظة من طرف حراس العقيد الفرنسي. فخلف سي سليمان أخوه سي محمد بن حمزة وامتدت الثورة إلى عدة مناطق من أرض الوطن قادها كل من سي الأعلى بالصحراء الشرقية في ورقلة وسي الأزرق بلحاج بالونشريس والنعيمي ولد جديد ببوغار، هذا بالإضافة إلى انضمام سيدي الشيخ بن الطيب زعيم أولاد سيدي الشيخ فرع الغرابة، وقاموا بمهاجمة المراكز الفرنسية. وأمام هذا الوضع الخطير جندت فرنسا كل قواها للتصدي لهم، فعينت لهذا الصدد أربع جنرالات فأرسلت الجنرال يوسف إلى جبل عمور، ودولين إلى جنوب وهران، وليبهير إلى جنوب مدينة تيارت، والجنرال روز إلى فليتة لملاحقة سي الأزرق بلحاج، لكن رغم هذا الدعم الكبير لم يستطيعوا فعل شيء أمام صمود المجاهدين، بل بالعكس زادت رقعة المعركة اتساعا في كل من مشرية والأغواط وسعيدة، وانضم إليهم الزعيم ناصر بن شهرة في ورقلة وقاموا الثوار بمهاجمة الكتائب الفرنسية وتدمير مزارع المعمرين والمؤسسات الاقتصادية الفرنسية، وكرد فعل قام الجيش الفرنسي بتدمير القرى ومصادرة ممتلكات القبائل الثورية. وفي يوم 22 فيفري 1865م استشهد الزعيم الثاني للثورة في معركة سيدي الشيخ متأثرا بجروحه وذلك خلال مواجهة قواته للعدو الفرنسي بقيادة الجنرال دولين، فخلفه في قيادة الثورة أخوه سي أحمد ولد حمزة ولكن القائد الحقيقي كان عمه سي الأعلى وهذا نظرا لصغر سي أحمد، وخاض الاثنان عدة معارك ضد الاستعمار من بينها معركة حاسي بن العتاب

وغار القيفور عام 1866م تكبد خلالها الطرفان خسائر في الأرواح والعتاد وفي شهر أكتوبر 1868م توفي الزعيم الثالث للثورة سي أحمد بمرض الكوليرا. فتحمل المسؤولية أخوه سي قدور ولد حمزة إلى جانب عمه سي الأعلى، فقاموا بمهاجمة القبائل المعارضة والمتواطئة مع الاستعمار الفرنسي، وفي يوم 17 أبريل 1871م دارت معركة عنيفة بين قوات سي قدور ولد حمزة وجيش الضابط الفرنسي دي ميلوزا في منطقة سعيدة تضرر فيها الجانبان. ورغم المحاولات الفرنسية المتكررة للدخول في مفاوضات مع أولاد سيدي الشيخ لتوقيف القتال، إلا أنها لم تنجح وبقي الوضع هكذا حتى تقلص نشاط الثورة شيء فشيء ليفسح المجال من جديد لثائر آخر من أولاد سيدي الشيخ أكثر صمود وشجاعة وهو الشيخ بوعمامة الذي كرس حياته مجاهدا ضد الكفر والطغيان ابتغاء مرضاة الله.

الفصل السابع

مقاومة المقراني

الاستعمار الفرنسي وفق خطة صليبية ماكرة صادر أراضي الجزائريين ومواشيهم، وهي مصدر أرزاقهم وهدفه تهجيرهم وإبادتهم بوسائله الجهنمية وغير الإنسانية منها التقتيل والتجويع والتفقير وتعريضهم للجفاف والأوبئة والأمراض والتهجير إلى الأرياف بعد الاستحواذ على أراضيهم الخصبة، بنفي بعضهم إلى كاليدونيا الجديدة، والمستعمرة الفرنسية، قصد تنصيرهم وسلخهم عن أصلهم وعقيدتهم، كل هذه الأفعال تكون جرائم ضد الإنسانية.

وتشمل استجابة تلقائية لمحاربة الظلم والمنكر اللذان يزرعهما الاستعمار الفرنسي عن قصد وعن إصرار من خلال دعوات رجال الدين وزعماء القبائل بل ومن قبل مواطنين جزائريين غيورين على وطنهم وعلى عقيدتهم في إطار الجهاد ضد المستعمر الكافر.

هذه الأسباب هي التي دفعت الجزائريين إلى الثورة عام 1871 م بزعامة الباشاغا المقراني والشيخ الحداد إن معظم المؤرخين بما فيهم جزائريين وأجانب ينسبون عائلة المقراني إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ[1].

ذلك ما أشار إليه رين "RIN" في كتاباته، وأيضا مولود قايد الذي أورد ما يلي:

[1]- راجع : مولد قائد، المقراني، دار الأندلس، الجزائر، 1993، ص: 14.

"لعائلة المقراني شجرة نسب تصل تفرعاتها بفاطمة بنت الرسول ﷺ".

غير أن بعض المصادر تنسبها إلى أمراء قلعة بني حماد بجبل كايانا ويحد دون عائلتين هما أولاد عبد السلام وأولاد قندوز تنتمي إليها عائلة المقراني المحسوبة على الأجواد.

بينما آخرون ينسبون الجد الأكبر لعائلة المقراني إلى أصل مغربي شريف استقر في منطقة البيبان.

ومنهم من ينسبه إلى الحفصيين الذين استقروا بقسنطينة وحكموها بعد ذلك. وكان منهم الأمير عبد العزيز الذي أقام إمارة بين عباس في حدود سنة 1510 م.

لكن الرأي الراجح أن عائلة المقراني ذات أصول شريفة منبعها بلاد القبائل، استقر بها منذ الفتوحات الإسلامية الأولى لنوميديا[1].

تفاوت عائلة المقراني بالتوحيد التركي في الجزائر، إذ استفاد أحد أعضائها من الدعم المادي والمعنوي في إطار الجهاد الإسلامي ضد الاحتلال الاسباني لبعض المدن الساحلية الجزائرية وكانت من بينها وهران الذي حاول الأمير حسان أحد أبناء خير الدين تحريرها من قبضة الاسبان الحاقدين على المسلمين خلال فترة 1563 فاغتنمت عائلة المقراني الفرصة وأقامت علاقات مباشرة مع الأتراك الذين دعموها ماديا، أي اقتصاديا وعسكريا، وصارت ذات نفوذ كبير على مناطق الوسط حتى تاريخ الاحتلال الفرنسي.

---

[1]- راجع: مداخلتنا، في المركز الثقافي الإسلامي بالجزائر، جرائم الاستعمار الفرنسي خلال الاحتلال، محفوظة بالمركز، منذ 1980، ص: 4.

وابتداء من سنة 1830 برز في عائلة المقراني، الحاج محمد بن عبد السلام المقراني صهر أحمد باي قسنطينة، وأحمد المقراني الذي عينه هذا الأخير على رأس مجانة، ثم عاتبه وحاول تنحيته.

ونظرا لسوء العلاقة بين أحمد باي قسنطينة الذي اعتقل الحاج محمد بن عبد السلام المقراني وسجنه بالكنية وقلم يطلق سراحه إلا بسبب الهجوم الفرنسي في 13 أكتوبر 1837، الذي سمح له بالفرار.

وبعد التوقيع على معاهدة التافنة بين دولة الأمير عبد القادر ودولة فرنسا المعتدية في الجزائر، التي اعترفت بسيادة دولة الأمير عبد القادر على أجزاء هامة من الإقليم الجزائري، التي امتدت أطرافها حتى حدود إمارة أحمد باي بقسنطينة شرقا والأوراس جنوبا.

تولى الأمير عبد القادر نحو الشرق فعين الحاج محمد بن عبد السلام المقراني على رأس ولاية سطيف المحادية لقسنطينة.

ولعل خلافه مع أحمد باي قسنطينة سياسيا وعسكريا جعله يعمل على الحاق الضرر بحاكم قسنطينة الذي رفض التعاون معه ضد الاستعمار الفرنسي لأسباب معروفة.

إن قرار تعيين الحاج محمد بن عبد السلام المقراني على سطيف، استاء منه كثيرا أحمد المقراني، خصمه الدائم الذي اغتنم فرصة سقوط أحمد باي في قسنطينة تحت الاحتلال الفرنسي عام 1837.

بعد أن أبلى سكان المدينة بطولة وشجاعة غير عادية في مقاومتهم للاستعمار الفرنسي، فقدم ولاءه للجنرال فالبوا خلال شهر جويلية 1838 الذي عينه استجابة لطلبه كخليفة على المنطقة، ومتعه بصلاحيات واسعة وقام الجنرال فالي "VALI" بتنصيبه في قصر الباي بقسنطينة يوم 24 أكتوبر 1838[1].

---

[1]- راجع: مولود قايد، المرجع السابق، ص: 45.

الأمر الذي حرض الحاج محمد بن عبد السلام والي الأمير عبد القادر على سطيف إلى الاستسلام للفرنسيين سنة 1845 خوفا من بطش الاحتلال.

ونظرا لأهداف الاستعمار الفرنسي وأساليب تعامله مع الأعوان والخونة والمتخاذلين والانتهازيين لتحقيق توسعه الاستيطاني وتنصير الشعب الجزائري لإلحاقه نهائيا بفرنسا الأم فإنه كثيرا ما قلص من صلاحيات هؤلاء الخاضعين لكرمه من أمثال أحمد المقراني الذي لم يكن يهمه إلا السلطة والثروة والجاه، واحتلال مكانة أحمد الباي المطرود من قسنطينة نحو الجنوب الجزائري.

أما حب الوطن والعقيدة والجهاد فلم تكن بالنسبة إليه إلا مفاهيم بالية تجاوزتها الأحداث والظروف.

لقد ظل أحمد المقراني يؤدي خدماته للاستعمار رغم تقليص صلاحياته لصالح القائد العسكري الفرنسي بمنطقة برج بوعريريج، صلاحياته التي أصبحت لا تتعدى العمليات الشرطوية، بل إخلاصه لفرنسا دفع إلى الحد اللامعقول معاداة الثوار الزعاطشة في المقاومة الشهيرة لهم عام 1849 م.

الواقعة التي أقرها الجنرال الفرنسي هربيليون في كتاباته ولم يكن عمله ذلك إلا اعتراف منه لكرم فرنسا عليه وعلى عائلته.

لكن الله يمهل ولا يهمل فخدماته للاستعمار الفرنسي ضد أبناء جلدته لم تعمر كثيرا فقد ألم به مرض مفلجئ وتوفي في 4 أبريل 1853م، وبعد وفاته تولى ابنه منصب الباشاغا مكانة ولو أن القائد العسكري الجديد ببرج بوعريريج الذي عين عام 1857 م قلص من صلاحياته أكثر. فإنه ظل يؤدي في خدماته للاستعمار بل وشارك في ردع ثورة بوخنتاش المجاهد الجزائري بمنطقة الحضنة.

ثم كانت ثورة منطقة فرجيوة التي لم تهدأ بإلقاء القبض على بوعكاز بتهمة إشعالها، لتقوم مكانها ثورة أخرى هي ثورة أولاد سيد الشيخ بالجنوب الغربي الجزائري والتي امتدت إلى منطقة الحضنة بسبب الظلم ومصادرة الأرزاق من قبل الاستعمار.

لكن الشكوك تزايدت حول دور المقراني الخليفة في هذه الأحداث.

وقد ذهب بعض الخونة الجزائريين وبعض المعمرين إلى درجة اتهام المقراني بالمشاركة فيها ضد فرنسا طالبين السلطة الفرنسية بسجنه.

لقد كان من سوء حظ الباشاغا المقراني بعد عام 1857 أن تبخرت أحلامه بمجيء الحاكم العسكري الفرنسي إلى برج بوعريريج الذي ذكر في عدة كتب أنه كان صليبي وسفاك مجرم بطبعه يكره العرب والمسلمين ولا يريد لهم الخير، بل كان يهدف إلى إذلالهم ومصادرة أراضيهم وأرزاقهم لتوطين الأوروبيين في الجزائر.

وعمليا خلال حكمه كقائد عسكري في برج بوعريريج أظهر حقدا وقساوة ضد كل العرب والمسلمين بما فيهم الباشاغا المقراني[1].

موجات الجراد والجفاف والمجاعة والأمراض والأوبئة ومصادرة الأرزاق والظلم الفرنسي جميعها حلت بالجزائريين خلال العشرية الأخيرة من خدمة المقراني للاستعمار الفرنسي ما بين 1860 و1870 م، النتيجة خسر الفلاحون الجزائريون أملاكهم إما صودرت أو حجزت لعدم قدرتهم على سداد الديون اتجاه المضاربين اليهود والأوروبيين.

---

[1]- راجع: العربي منور، للمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر، جرائم الاستعمار الفرنسي خلال الاحتلال، المرجع السابق ص: 10.

خاصة وأن الحاكم العسكري الفرنسي المذكور استولى على أكثر من 100 ألف هكتار منها 5 آلاف هكتار لعائلة المقراني لتوطين الأوروبيين القادمين من أوروبا قصد الاحتلال وإبادة الأهالي في الجزائر.

وحتى نداء الحاكم العام الفرنسي "ماك ماهون" بمد يد المساعدة للفلاحين الجزائريين أصبحت مجرد وعود تجاوزتها أحداث فرنسا.

بعد أن تشكلت حكومة جديدة في سبتمبر 1870 بباريس وتولت مباشرة شؤون مستعمرتها الجزائر لتدعيم اقتصاد فرنسا عنى الكثير من الصعوبات خلال فترة الأزمة مع الجارة بروسيا.

لقد اعترف إميل تويلي: أن المقراني استجاب لدعوة "ماك ماهون" بمساعدة الفلاحين من قبل الإقطاعيين العرب والمعمرين وبعض أعضاء عائلة المقراني الأثرياء الإقطاعيين.

بل وقام المقراني بالاستدانة من البنوك اليهودية والفرنسية والأوروبية لمساعدة هؤلاء الفلاحين، غير أن وعود المارشال ورفض الحكومة المدنية الجديدة في باريس كلها أعاقت من أعمال المقراني وضيقت عليه[1].

نعم لقد أخطأ الباشاغا المقراني مثل ما أخطأ أحمد باي قبله وكثير غيرهم من أن خدمة فرنسا لا تعني الحصول على ولائها لأن الهدف ليس واحد والمبادئ المعتمدة ليست واحدة، والنيات ليست واحدة.

لقد ذهب الباشاغا في إخلاصه وحفاظا على أراضيه وممتلكاته إلى درجة اقتراحه للحاكم العام الفرنسي المارشال "ماك ماهون" خاصة

---

[1]- راجع: إميل تويلي، البلاط العربي أمام محكمة قسنطينة، باريس في 15 أبريل 1873، ص: 29.

بعد أن خطي بشرف استقبال نابليون الثالث بكومبيان أنه على استعداد لمحاربة البروسيين على رأس جيش عربي قوامه 1500 عسكري، لكن المارشال ابتسم وسكت. تهكما بحماقة المقراني وهشاشة قواته.

إن المقراني لم يشعر بالظلم والاستغلال عندما كان في السلطة وعندما كان أكبر الإقطاعيين الجزائريين، لأن ثروته وسلطته ومكر الاستعمار كان يخفي عليه الحقيقة، لكن عندما نزع القائد العسكري الفرنسي جزءا من أراضيه وأخرج مخزون العائلة من الحبوب ومد ما كان لديه من أموال لمساعدة الفلاحين استجابة لوعود المارشال "ماك ماهون" أصبح لا يختلف عن بقية المعذبين من الجزائريين.

خاصة بعد أن قلص الحاكم العسكري ببرج بوعريريج صلاحياته إلى أدنى حد، وبدأ يصدر أوامره له، شعر فعلا أنه لا يختلف عن الأهالي الجزائريين العرب، وأنه من صلبهم وأن توبته بعد الخيانة واجبة.

لقد تذكر المقراني انتفاضة واحة الزعاطشة وكيف تعامل معها الفرنسيون بكل وحشية، أمعنوا في التقتيل والمجازر والتمثيل بجثث الشهداء الجزائريين فيها لحقدهم الأعمى وصلبيتهم المتخلفة.

إن انتفاضة واحة الزعاطشة كانت امتداد لمقاومة الأمير عبد القادر صاحب الدولة الوطنية في الجزائر، وأحمد باي قسنطينة المجاهد".

انتفاضة واحة الزعاطشة التي وقعت عام 1849 بسبب رفض شيخها بوزيان أحد أتباع الأمير عبد القادر، الذي رفض وضع السلاح، لاعتقاده أن الجهاد فريضة حتى الاستشهاد.

ثورة الزعاطشة برزت عنها بطولات جزائرية خارقة وتعرضت للقمع والتنكيل من قبل الفرنسيين مما أساء إلى سمعة الجيش الفرنسي

وفرنسا، لقد زادت من شعبية المقاومين على مجد المنتصرين، حسب ما قاله بيليسي[1].

وأدت الوحشية بالجيش الفرنسي إلى قطع رأس الشيخ بوزيان بعد قتله، وقطع رأس ابنه وأحد مساعديه في المقاومة[2].

وأدت أيضا إلى التمثيل بجثث الشهداء، وإلى رص الرؤوس على الجدران للتمتع بتطاير أجزائها، وبالتفرج عليها لإرهاب بقية العرب الجزائريين.

انتهت انتفاضة الزعاطشة ولكن الجزائريين بقوا بعدها واستفادوا من عدة دروس بفضلها وبفضل شهدائها الخالدين، وكان أكبر مستفيد المقراني مستنتجين ما يلي:

إن الجيش الفرنسي المحتل الذي ارتكب مجازر وجرائم فضيعة لا يمثل أية حضارة ولا أية مدنية ولا يمكنه أن يستند إلى الدين المسيحي وأن الإبادة الجماعية تنتظر كل الجزائريين ومن الأفضل الجهاد والاستشهاد خير من الذل والهوان.

كما أن عائلة الحداد التي يعود أصلها إلى قرية صدوق العليا بشرق البلاد حيث يعود الجد الأكبر لهذه العائلة الكريمة والشهيدة من أجل الجزائر والعقيدة الإسلامية إلى أواخر القرن الخامس عشر، تاريخ استقرار عائلته بالجزائر.

والد الشيخ المسمى علي بن محمد الحداد كان صاحب ثروة وأملاك وصاحب خير وإحسان، عرف بالكرم وبمساعدة المحتاجين.

---

[1]- راجع: شارل أندري جوليان، تاريخ الجزائر المعاصر، ج: 1، ص: 384.

[2]- راجع: شارل أندري جوليان، تاريخ الجزائر المعاصر، ج: 1، ص: 384.

كان يحب العلم والعلماء، ورغم أميته، داره كانت مركزا لاستقبال عابر السبيل المحتاجين يوفر لهم المأكل والمأوى، كل ذلك لوجه الله وحده.

ومن مآثره الخالدة فتح مدرسة بالقرية لتعليم القرآن الكريم وتكفل بمصاريفها.

قام الشيخ الحداد بعد تكوينه، بتوسيع مدرسة والده الذي توفي وبنى مسجدا بجانبها حيث تزايد تلامذته بشكل سريع حتى بلغوا أكثر من 500 تلميذ، وأصبح يشرف على الطريقة الرحمانية وينفق من أموال وموارد العائلة، رغم معاناة سنوات الرعب بين 1867- 1868، التي سماها العامة، عام الشر.

لقد ساهم الشيخ الحداد وأتباعه في ثورة المقراني التي أدهشت الاستعمار الفرنسي خاصة من حيث الإعداد لها وشموليتها أنها الثورة الجزائرية الوحيدة التي تجاوزت حدود الدولة الوطنية التي كونها الأمير عبد القادر ثم أن دور محي الدين ابن الأمير عبد القادر كان مؤثرا في الثورة الجزائرية، التي تولاها المقراني، محي الدين الرجل الذي نال الكثير من العلم والثقافة ويحظى بتقدير كبير من السلطات العثمانية والعربية والإسلامية.

ولثقافته الشرعية والقانونية عينه السلطان العثماني قاضي على أزمير ابتداء من سنة 1865 حتى 1870 م.

كل أحاديث القاضي محي الدين كانت تدور حول الحرية والوطنية والقومية، كان في غربته يحن بالعودة إلى الجزائر والانضمام إلى الثورة لتحرير الوطن من الاحتلال الفرنسي.

ورغم إصراره على دخول الجزائر فقد وصل إلى تونس عام 1870 لكن شهرته الثورية وعداوته المعروفة بالاستعمار الفرنسي وتعليماته بطرد الاحتلال من أرض الوطن سبقته، الأمر الذي جعله

يكتفي بتوجيه أكثر من 200 رسالة إلى القادة والأعيان في الجزائر، تدعوهم بإعداد العدة والتنظيم الضروريين لمحاربة الاستعمار الفرنسي.

ورغم أن محي الدين أصيب بالإحباط واليأس من عدم حصوله على المساندة والعون لدى القادة التونسيين بهدف القيام بثورة لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، بعد أن اتضح له أنهم كانوا منشغلين بشؤونهم الداخلية فحسب، وكانوا مترددين في مساعدته، خوفا من بطش فرنسا.

غير أنه ورغم مضايقة السلطات التونسية لنشاطه بسبب الضغوط الفرنسية عليها فإنه استطاع أن يلتقي بعدد كبير من الجزائريين ومن القادة التونسيين مثل بن ناصر بن شهرة وكذلك إبراهيم بن عبد الله وغيرهم ممن كانوا يحضرون لحرب التحرير ضد الاحتلال الفرنسي. خاصة في هذه الفترة المتأزمة في حياة الدولة الفرنسية التي دخلت في مواجهة مسلحة مع البروسيين في أوروبا.

وجه محي الدين الملت من الرسائل التي تحرض الجزائريين على الثورة وبين أن الاحتلال الفرنسي الصليبي غير طبيعي في الجزائر وبالتالي فهو كيان غريب عن ديار الإسلام والعرب، يكره الجزائريين ويهدف إلى السيطرة عليهم ومصادرة أرزاقهم وممتلكاتهم وتحويلهم إلى بضائع وبهائم أو يبيدهم ليعمر مكانهم بالأوروبيين.

ومن بين الرسائل التي وجهها محي الدين ابن الأمير عبد القادر، إحداها وصلت إلى المقراني قرأها وتمعنها وارتاح إليها، الأمر الذي أكده أخوه بومرزاق، عند حديثه إلى المجاهدين الذين يواجهون الاستعمار الفرنسي من أجل حرية الجزائر.

ونظرا للمضايقات التي أعاقت العمل الثوري لمحي الدين في تونس وبعد انتقاله إلى الجزائر رفقة أتباعه من المجاهدين اتجه نحو تيقرين ثم قام باحتلال قرية الفرقان، الأمر الذي زاد من نفوذه وأتباعه

حتى بلغ تبسة بالشرق الجزائري، غير أن جيش الاحتلال الفرنسي بقيادة بوجي "Bougier" أجبرته على الانسحاب نحو الجنوب. ثم إلى تونس التي مكث بها قرابة الشهر التحق بعدها بمدينة صيدا التي صارت لبنانية فيما بعد. ولا ينكر أحد نتائج دور محي الدين في تحضير الرجال والنساء للثورة ضد الاستعمار وفي تحريض القادة والشيوخ وزعماء القبائل في إعداد العدة لمحاربة فرنسا وإخراجها من البلاد الجزائرية. الأمر الذي دعم ثورة المقراني. ولقد كان لنشاطه الثوري المسلح دور بارز مع رفاقه في الحدود الشرقية للجزائر وخاصة بعد أن دخلها إلى غاية تبسة، إنه كان المحضر والمنظم لثورة المقراني والحداد.

ولقد زاد من لهيب الثورة انتصار أولاد سيد الشيخ في الغرب الجزائري خلال أبريل 1870 وكذلك انتفاضة الصيلحية وانتفاضة حركة ابن خدومة في نواحي غيليزان اللتان حاولتا القضاء على الظلم والقمع الاستعماري لكن جيش الاحتلال لم يهدأ له بال حتى بطش بمجاهديها جميعا.

ولقد أتت انتفاضة حركة ابن خدومة بغيليزان على الكثير من حبوب المعمرين وتولى المجاهدون قطع الخطوط الهاتفية وقتلوا الكثير من عسكر العدو وضباطه وخربوا منشآته.

وفي ولاية تلمسان اندلعت انتفاضة العنابرة بمسيردة لفاقة الذين رفظوا التجنيد في صفوف جيش الاحتلال ورفضوا العمل والتعاون مع الأوروبيين، خاصة المعمرين المقيمين بالحدود، كيف يهادنون الاستعمار وراية الإسلام بين أيديهم، لقد كانوا أسياد المنطقة وقادتها.

وتضامنت معهم قبيلة بني وسين وقبيلة جبالة وقاموا بمهاجمة الأوروبيين صراحة وأحرقوا مزارعهم ودمروا منتوجاتهم من الحبوب

لهذا الأخير أن يُبطل عقوبة صدرت ضد الإنكشاري من القاضي الحنفي. مع هذا فإن الآغا عرضة للتنحية في أية لحظة، ففي أوت 1579 طرد الإنكشاري من القاضي مثلا أربعة آغوات لا لشيء إلا أن هؤلاء الإنكشاريين زعموا أن سيرة نسائهم كانت سيئة قبل زواجهن[1].

يعمل الإنكشاريون، في الحروب، تحت إمرة آغا العرب أوالباشاغا الذي يقود كل الفرق العسكرية من الإنكشارية إلى الصبايحية إلى فرسان المخزن إلى القوم. لهذا فإن آغا العرب هوالقائد العام للقوات البرية، البحرية وحدها هي التي لها نظام خاص فلا تخضع لآغا العرب.

كانت العزوبة مشجَّعة في صفوف الإنكشارية بطرق مختلفة، كما كانت الحياة الجماعية مشجعة كذلك. لاشك في أن الهدف من تشجيع العزوبة هوجعل الإنكشاري متفرغا لعمله العسكري. يطلب اليولداش رخصة من الكاهية لكي يتزوج، وقد تُرفض الرخصة إذا كان اليولداش من الجنود الجدد في البلاد[2]. وحين يتزوج الزبنطوط (الأعزب) يفقد حقه في الحصول على طعامه من الثكنة[3]. أدى تشجيع العزوبة في أوساط الإنكشارية إلى انتشار اللواط وكثرة العواهر بحيث تحتم على السلطة أن تنظم نشاطهن وأن تغض الطرف عن اللواط. إذا أرادت فتاة من فتيات الأهالي أن تصبح عاهرة تسجل اسمها في سجلها المزور، وليس لوالديها حق عليها، إذ تصبح امرأة الجنود، ولا يمكنها أن تتعامل مع الأهالي إلا بإذن المزور. حين يكون للعساكر المال الكافي يكترون غرفة في الفندق وفيها يستقبلون العواهر. يلجأ اليولداش إلى الأطفال، وكثيرا ما يأخذون الطفل إلى الثكنة ليصبح في متناول العسكر، مع العلم أن الثكنات

---

[1]- هايدو. طبوغرافية وتاريخ الجزائر. المرجع السابق عدد 14 ص 503 – 508.

[2]- نفسه.

[3]- نفسه.

مناطق حرة لا تدخلها الحكومة. إذا تمكن اليولداش من الغلام فإنه يدخله إلى أقرب بيت ليهودي ليقضي حاجته منه، دون أن يقلقه أحد[1].

كانت الأجور تتراوح بين ثلاث دوبلات وخمس دوبلة، في القرن السادس عشر، وغالبا ما كانت تُرفع كلما جاء حاكم جديد. بل كثيرا ما تطيح الإنكشارية بحاكم حتى يأتي آخر فيرفع أجورها. كل النظام الجبائي قائم على أساس توفير الأموال لدفع هذه الأجور. كانت الترقية في الإنكشارية تخضع للأقدمية أساس. لم تكن هناك تدريبات كبيرة. لكن الانكشارية كانت تملك أحسن الأسلحة، بالمقارنة مع الفرق البرية الأخرى. وكانت تملك المدفعية وحدها. كان الجنود المختصون في المدفعية يعرفون باسم الطبجية.

النوبات والمحلات:

تقسم الخدمة في الإنكشارية إلى خدمة في النوبة أوالحامية وخدمة في المحلة أوالطابور. تُشكل المحلات إما في الحالات غير العادية أوالطارئة، بمناسبة تمرد القبائل أومواجهة القوى الخارجية، وإما في الحالات العادية، بمناسبة تحصيل الجباية. تتكون المحلة والنوبة من صفرات (طاولات) تتكون كل منها من 15 إلى حوالي 20 رجلا.

تخرج المحلات المركزية من مدينة الجزائر، إما في خرجات استثنائية للقضاء على التمردات التي يعجز البايات عن إخمادها، وفي هذه الحالة يقودها الآغا أغسي أوآغا العرب، وإما في خرجات دورية، بمناسبة تحصيل الجباية. ففي شهر أفريل من كل سنة تتجمع المحلات في عين الربط، بالقرب من العاصمة، وهي ثلاث، يقود كلا منها آغا (بمعنى قائد)، لتنطلق إلى البايليكات الثلاثة. تتكون محلة قسنطينة من 60 خيمة، تشكل كل واحدة منها صفرة متكونة من 16 رجلا تقريبا. وتدوم

[1]- بارادي، المرجع السابق عدد 40 ص 68.

والخضر، وأضرموا النار في مساكنهم، ليجبروهم على الرحيل من حيث أتو غير أن قوات الاحتلال الفرنسي التي كانت ترابط في "حد أحبابنا" تدخلت وبطشت بأغلب المجاهدين في هذه المنطقة من مسيردة المجاهدة حتى قال المؤرخ "رين" إن سكان هذه المنطقة لم يوقفوا القتال على غرار الأمير عبد القادر وظلوا يصارعون الاستعمار حتى جاءهم زعيم كبير هو المقراني عام 1871.

إن الأناشيد الشعبية التي تمجد الثورة والثوار وتفضل العرب على الفرنسيين والمسلمين على المشركين لازالت تحفظ وتنشد في العنابرة بمسيردة لقاقة، وبمسيردة وبقبيلة بني وسين ومغنية مثل ما هي تحفظ وتنشد عن ظهر قلب في القبائل وفي الشرق الجزائري.

إن قلوب الجزائريين جميعها كانت تتألم من وقع وظلم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، جرد الأهالي من أراضيهم وأرزاقهم وأجبرهم على الهجرة إلى الجبال والأرياف القاحلة ومن لم يرحل أبيد وحل محله الأوروبي المسيحي أو الملحد الذي لا يعرف إلا مصلحته ومصلحة فرنسا.

ثم إن رغبة الجزائريين جميعا كانت تحرير الجزائر من الاستعمار لرفع الظلم والتقتيل والحرمان على الجزائريين.

ثم كانت ثورة مازونة بناحية مستغانم ضد التجنيد الإجباري الذي فرضه الاستعمار الفرنسي ظلما على الجزائريين رغم تعبيرهم عن موقفهم بالرفض.

وفي ولاية سعيدة عبر المواطنون الجزائريون عن كراهيتهم للاحتلال ورفضهم الصريح لعملية تجنيد الجزائريين لخدمة فرنسا وتحقيق توسعها في الجزائر.

نفس المشاعر والسخط ظهر بين سكان سيدي بلعباس، الذين خرجوا في اجتماعات شعبية ضد رغبة فرنسا في استغلال الجزائريين

الذين قهرتهم وأهانتهم في أعراضهم وعقيدتهم، وأكثر من ذلك أرادت تجنيدهم ورميهم وقودا لمعاركها الظالمة.

ثم كانت ثورات أولاد عبدون وأولاد خليفة في الشرق الجزائري التي دفعت بايف لاكوست إلى القول "إن الباشاغا المقراني لم يكن قائد ثورة ولكنه التحق بها بعد اندلاعها في 22 يناير 1871[1].

أي أن الوضعية المأساوية والمزرية التي كان يعيشها الشعب الجزائري قبل ثورة المقراني، أملتها إرادة الاستعمار الذي كان يهدف إلى إفراغ الجزائر من الجزائريين إما بالتهجير أو بالتقتيل أو بالمجاعة أي بالتفقير والأمراض والأوبئة، لتحقيق الاستيطان واستيلاء الأوروبيين والمعمرين على الأراضي والممتلكات وبالتالي تنصير الجزائر إلى الأبد.

إن الشهرين السابقين لثورة المقراني عام 1871 كانت غنية بالأحداث إذ الاستنتاج العام يؤكد أن أغلب الولايات في الجزائر في المغرب الجزائري وفي الوسط وفي منطقة القبائل بل وفي الشرق، جميعها شهدت انتفاضات محلية وسخطا عاما على الظلم السائد نتيجة سياسة فرنسا الظالمة في الجزائر بدءا من تلمسان حتى أدرار ومن القالة حتى بشار، ناهيك عن سياسة الأرض المحروقة والعنصرية البدائية المنتهجة، مما ولد مقاومة لدى المستضعفين الجزائريين باللجوء إلى تخريب المواصلات ومراكز المراقبة الاستعمارية وممتلكات الأوروبيين وجيش الاحتلال، وكل مظاهر الاستعمار في الجزائر، إنه تعبير واضح.

وكل المؤثرات كانت توحي بقيام ثورة عارمة، بل أن البعض من الانتهازيين الخونة مثل الأغا بوزيد بن محمد ذهبوا في تفسير المناخ

---

[1]- راجع: د. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص: 155.

السياسي العام إلى درجة اتهامهم الباشاغا المقراني بالعقل المدبر للثورة المنتظرة والمخفية للاستعمار الفرنسي وأعوانه.

إن الباشاغا المقراني الذي انتزعت منه أراضيه وأغلب ممتلكاته دون إرادته، وتبرع هو الأخر بمخزون العائلة من القمح والشعير وأفرغ خزائن العائلة من الذهب والفضة والفرنكات الثمينة نتيجة أحداث المجاعة والجفاف والجراد والحرمان الاستعماري الذي حل بالعباد والبلاد لم يبق أمامه إلا الانتفاضة والثورة لكن كل ذلك يجب أن يتم في سرية وبعيدا عن أعين الخونة والمخبرين أعوان الاستعمار، الذي تكاثر في وقته لمكر الاستعمار وانتهازية الكثير.

إن الباشاغا المقراني كان يعتبر موظفا دائما عند الاستعمار الفرنسي وفي خدمته رغم إحباطه وحسرته على معاناة الشعب الجزائري نتيجة ظلم وحرمان سلطة فرنسا وجيوش احتلالها، ورغم تجريده من أغلب ممتلكاته.

لقد كان المقراني يولي أهمية بالغة للإعداد للثورة والتجنيد الجيد لها، بين شيوخ القبائل وبين الطرقية والزوايا وبين قادة الثورة، لأن الإخفاق فيها سيكون كارثة على الشعب الجزائري، وعلى عائلته بالذات وبعد أن تأكد من ولاء أغلب القبائل والقادة في منطقة القبائل وفي الغرب الجزائري وفي الشرق الجزائري بل وفي الجزائر العاصمة وتلقى تأييد آغا مليانة الذي كان له نفوذ حتى حدود تلمسان وآغا التيتري حتى حدود أدرار وقبائل أولاد سيد الشيخ بالبيض ونواحيها وتأييد مجاهدي العاصمة والشرق الجزائري لم يبق له إلا إعلان الثورة.

هذه الفترة التي سادتها الأناشيد الشعبية التي تشيد بخصال وشجاعة المجاهدين، وخاصة المقراني وأخوه بومرزاق والشيخ الحداد وسي عزيز، وتذكير الجزائريين بأمجاد وبطولات الشعب الجزائري في

أشخاص الأمير عبد القادر وأحمد الباي والشريف بوبغلة والبطلة لا لا فاطمة نسومر والحاج عمر الدين ألحقوا عددا من الهزائم بفرنسا الظالمة.

وفي كل المناطق الجزائرية كان موضوع هذه الأناشيد الشعبية من مسيردة بولاية تلمسان حتى أقصى الجنوب الجزائري حتى القالة، أقصى الشرق الجزائري، وقد ذكر كل الأبطال فيها وذكر الشريف محمد بن عبد الله الملتقى بالمجاهدين ضد الاستعمار وابن ناصر بن شهرة في شمال الصحراء وسي الصادق في بسكرة ومحمد بوخنتاش في المسيلة والحضنة، كلها كانت تشيد وتمجد الجهاد ضد الكفار في الجزائر.

كان ذلك دافعا قويا لإلهام المقراني المصاب بالإحباط والحسرة لظلم الاستعمار وحرماته للشعب الجزائري الذي أبى ضميره الوطني إلا الاستجابة لنداء الواجب.

لقد عامل الاستعمار الفرنسي الجزائر والجزائريين كمستعمرة للأبد فاعتبروا أرض الجزائر أرض أعداء محتلة وأراضي الجزائريين وممتلكاتهم غنائم حرب مسيحية في بلاد الإسلام.

حتى نظام السلطة في الجزائر كان عسكري أو مختلط عسكري ومدني يقوم على اضطهاد الشعب الجزائري ولا يعاملهم إلا كأهالي الأنديجان "indigent" أي كرعايا لكن ناقصي الأهلية.

حيث صودرت أراضي الجزائريين بدءا من عام 1840 م إلى السلطات الاستعمارية والأوروبيين والمعمرين، مما جعل عددهم أكثر من 140000 أوروبي ومعمر في الجزائر عام 1866 م.

والاستعمار الفرنسي كعادته لجأ إلى مكره المعتاد اتجاه الجزائريين وهم في فترة أزمة من أمورهم، بعد مصادرة أرزاقهم وتفقيرهم وحرماتهم من أبسط حقوقهم بما في ذلك الحق في الحياة والحق في العيش لجأ إلى محاولة تنصيرهم تحت غطاء الأعمال الإنسانية، كإطعام

الجياع وعلاج المرضى والتكفل ببعض الأيتام بهدف إلحاقهم وإطعامهم بتعاليم المسيحية المرفوضة في الجزائر، رغم جهود الكاردينال لافيجري "LAFIDJRI" التي باءت بالفشل ولأن الشعب الجزائري المسلم يفرق بين اليد المعسولة واليد المسمومة، ويد الكاردينال لافيجري كانت مسمومة.

ولأن الجزائري المسلم لم يكن يؤمن بوجود المسيحي في الجزائري إلى جانبه ولا يتصور جزائريا مسيحيا يعيش معه أو يحكمه.

ولأن الشعب الجزائري الغيور على عقيدته وعلى سيادته لا يمكن أن يخدعه الاستعمار الفرنسي وخبرائه من أمثال الكاردينال لافيجري بخدماتهم ضد الإنسانية في وقت يتجردون فيه من كل الصفات الإنسانية في مواجهة الجزائريين بالتقتيل والإرهاب والتفقير والحرمان ومحاولات التنصير والتجنيس الفاشلة، وكل هذه الأفعال هي جرائم ضد الإنسانية محرمة دوليا، ولا تتقادم قانونا.

أفعال إجرامية، كرست التوسع والسيطرة والعنصرية الفرنسيين والأوروبيين على حساب المسلمين الجزائريين وعلى حساب سيادتهم ومقدساتهم وأعراضهم وبالتالي أصبح واضحا لدى قادتهم من أمثال المقراني رغم تضحياتهم خدمة للسلم وبعيدا عن كل عنف أن مصير الجزائريين يجب أن يحقق بالثورة بالسلاح بالتضحيات فكانت ثورة المقراني التي أعلنها خلال يوم 7 مارس 1871 بإعلانه التجنيد العام للجزائريين، وإقامة معسكره للجهاد ضد الاستعمار الفرنسي بمدينة مجانة.

معلنا استقالته من خدمة دولة الاحتلال وموجها رسالتين : الأولى للقائد العام ببرج بوعريريج والثانية للجنرال أوجرون "Oujiroun" وفي هاتين الرسالتين يخبرهما: "إنني أستعد اليوم لقتالكم، فلنحمل السلاح وليتأهب كل منا للقتال"[1].

1- راجع: الطاهر أوصديق، حركة انتفاضة 1871، م، س، ذ، المرجع السابق.

وفي وصف المجاهد المقراني الاستعمار بالسرطان الذي يسعى إلى السيطرة على كامل ربوع الوطن الجزائري، ليبتز خيرات الشعب الجزائري ويجرده عن عقيدته وأرزاقه ثم يبيده ويسكن الأوروبيين مكانه.

تولى المقراني الجهاد ضد جيوش الاحتلال الفرنسي في كامل القطر الجزائري بدءا بالقطاع القسنطيني وبمساعدة والي مليانة في الغرب الجزائري ووالي تيزي وزو في الجنوب، بينما يتولى أخوه بومرزاق نواحي سور الغزلان، ويتولى قيادة الثورة في منطقة الحضنة والجلفة قريبه سعيد بن بوداود.

وقد سبق له أن طلب الجهاد وجعله فرضا على كل جزائري مسلم وفي هذا الشأن وجه عدة رسائل إلى مختلف شيوخ القبائل من أولاد الشيخ بالبيض والمشرية، والنعامة، وقبائل العنابرة وبني وسين وجبالة وبني بوسعيد بسبيردة ومغنية وتلمسان وسيدي بلعباس ووهران.

كما وجه رسائل أخرى لشيوخ قبائل الزعاطشة، ومعسكر والمدية، حيث بين أن هدر دم الكافر المعتدي في بلاد الإسلام حلال ومباح ولا عقاب عليه، بل الله يجازي عليه.

وأن ما قامت به جيوش الاحتلال الفرنسي عندما اعتدت على مقدسات الإسلام وأرزاق المسلمين وأعراضهم شكل جرائم خطيرة ضد المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء.

وأن الله لا يغفر جرائم فرنسا في حق الشعب الجزائري الذي له الحق أن يدافع عن عقيدته وأرزاقه وحقه في الحياة وفي العيش الكريم.

إن ثورة المقراني كانت شعبية وعارمة، جمعت مختلف الشرائح الاجتماعية من قادة ثوريين وشيوخ وطنيين وقبائل شتى من الغرب الجزائري إلى الشرق الجزائري ومن الشمال إلى الجنوب.

شارك فيها قياد وآغات وباشاغات مثقفين وفلاحين وعمال وشباب ونساء بل ومهاجرين جزائريين من المشرق ومن أوروبا جاؤوا خصيصا للدفاع عن سيادة بلادهم ووحدة شعبهم، وتحرير عقيدتهم من الطغيان.

واعتبر من تأخر كان خائنا أو متخاذلا، سنة الله في خلقه.

في كل الثورات، بما من له استعداد طبيعي منذ اندلاعها في الانضمام إليه، ويوجد من بين المواطنين من يتأخر ولا يساند إلى حين، نفس الظاهرة برزت في ثورة المجاهد المقراني بالرغم من التحضير والإعداد لها الطويلين فإن الكثير من الأغنياء والأرستقراطيين لم يستجيبوا لدعوة المجاهد المقراني، مما ألحق به الكثير من الإحباط إلى درجة اليأس.

إذن الأعداء والخونة والمتخاذلين للمقراني كانوا كثيرين في الشرق وفي الغرب بل وفي الوسط، كان لا يهمهم إلا ما تتكرم به عليهم سلطات الاحتلال.

سلطات الاحتلال التي كانت سخية وكريمة من أجل تحقيق التوسع والسيطرة على ثروات الجزائر وخيراتها قبل اندلاع المواجهة بين الجيش الفرنسي المحتل والمجاهدين، مقاومة المقراني تدعمت بالشيخ الحداد وأتباعه ودعم معنويات المجاهدين عامة.

في وقت كلفت سلطة الاحتلال الجنرال سوسي على رأس جيش فرنسي تجاوز تعداده العشرة آلاف "10000" عسكري جيدي التسليح والعدة، بالتقدم نحو معسكر المقراني المتمركز في منطقة مجانة قصد احتلاله وتدميره.

جيش الاحتلال الفرنسي بقيادة المجرم السفاك سوسي بمجرد وصوله إلى مجانة بدأ بحرق منازل المدينة دون تمييز ومصادرة وحجز ممتلكات المواطنين بها على أساس أنها غنائم حرب وتحويلها إلى فرنسا،

كالذهب والجوهرات والفضة والأمتعة والسجاجيد الغالية وكذا الخيول العربية الأصلية والإبل والغزال والحيوانات النادرة.

وقد اشتهر الجنرال سوسي "بجامع الزكاة على مرؤوسيه" والاستحواذ عليها لتحويلها نحو فرنسا.

ونكاية بالمجاهد المقراني اتخذ هذا الجنرال الصليبي قصره مقرا لإقامته الشخصية، وتولى شخصيا إبادة كل محصولاته من الحوامض والفواكه والأزهار التي كانت تحيط به خوفا من تحول أشجارها إلى مجاهدين قد يهاجمونه.

سياسة الأرض المحروقة، والتقتيل والتعذيب والتهجير التي انتهجها جيش الاحتلال زرعت حقدا تاريخيا متناميا بين الجزائريين والأوروبيين، تزايد حجمه مع الأيام.

وما ارتكبوه من جرائم شكلت إهانة للشعب الفرنسي الذي ضحى من أجل حقوق الإنسان والمواطنين طيلة أجيال.

جمع المجاهد المقراني رجاله، الرئيسيين في الثورة، ومنهم بومرزاق، ومحمد بن عبد السلام، وعبد الرحمان بلقندوز، والسي عزيز ابن الشيخ الحداد، ومحمد الصغير بن الشيخ.

وممثلين عن الطريقة الرحمانية وممثلين لمختلف القبائل الجزائرية من الغرب والشرق والوسط والجنوب لتكون الثورة شاملة وشعبية ووطنية.

وكان هدف المقراني ورجاله التخطيط لعمليات عسكرية.

لإرهاب جيش الاحتلال وإرهاب عملائه الذين بدءوا في الظهور والخيانة ضد الوطن ورجاله.

وكانت أولى الخطط الحربية للمجاهد المقراني ضد جيش الجنرال سيريز والمقدم تريملي فكانت أولى معاركه في المكان المسمى تكودت خلال أبريل عام 1871، التي كانت نتائجها وخيمة على المجاهدين

الجزائريين بسبب قلة تجربتهم القتالية، وضعف أسلحتهم، وكذلك بسبب خيانة العميل الآغا بوزيد وعملائه الذي كان يترصد كل نشاط للمقراني في المنطقة ويبلغ الجنرال الفرنسي وجيش الاحتلال بكل تنقلاته وتحركاته.

العامل الذي حرض المقراني على جمع صفوف مجاهديه حتى بلغوا 5000 آلاف رجل لمنازلة جيش الاحتلال وبقيادة المقدم تريملي والخائن عدو الله الآغابوزيد المتحصّن في مدينة البويرة التي ظل سجينا فيها وجيشه من العملاء طيلة أسبوع كامل من شهر ماي 1871، بعد أن حاصره المقراني وأتباعه من المجاهدين قصد القضاء عليه.

ولولا وصول قوات كبيرة من الجيش الفرنسي التي سارعت إلى فك الحصار لتم تصفيتهم جميعا.

صحيح أن حكمة المقراني الذي كان يغلب العقل على العاطفة كثيرا ما برزت، فبعد هجومه على عملاء الخائن الأغابوزيد وأعوانه، وفشل في مهمته لجهله بدفاعات البويرة ولجهله لإمكانيات أعدائه.

حينها كاتب محمد بن منصور قائد أولاد بليل في البويرة وطلب منه ومن أتباعه من الجزائريين أن لا يقفوا ضد الثورة الجزائرية وهل يعقل أن يقاتلوا إخوانهم المجاهدين؟

ولعل أسباب فشل العمليات الحربية للمقراني وأتباعه يعود إلى جهلهم بقوة العدو وبمسالك موقع المعركة ؟ ولعل ذلك يعود إلى ضعف تجربة المقراني الحربية وعدم استفادته من خبرة أتباعه في هذا الشأن.

وقد لا يغيب عن أحد أن المجاهد المقراني الذي واجه أكبر قوة عسكرية أوروبية صليبية وعنصرية كان سلاحه الإيمان بحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، وكان يعلن دائما أنه يحارب الاستعمار الفرنسي لظلمه ولعنصريته ولاستحواذه على أرزاق الجزائريين،

الاستعمار الفرنسي الذي قتل وهجر الجزائريين قصد إسكان الأوروبيين مكانهم.

وقد صدق من قال أن الباشاغا المقراني دفع إلى الثورة بعد تجريده من أراضيه ومن مخزونه من القمح والشعير وبعد تفقير الشعب الجزائري عامة وإلحاق الضرر به ماديا ومعنويا[1].

واستطاع المقراني وأتباعه في هجومهم على مدينة البويرة المحصنة والمحمية من قبل الآغابوزيد وعملائه من الخونة أن يدمر أغلب حصونها ويقتل أكثر من 50 عميلا لها وقرابة 500 جريح منهم علاوة على أسره لأكثر من 10 عملاء، حاول مقايضتهم بإلحاق أعدائه بصفوفه من أمثال محمد بن منصور ومحمد بن بجوجة ومحمد بن شناق ومبارك بن عبد العزيز الذي أظهر خيانة عظمى ضد الشعب الجزائري ومصالحه المقدسة.

كما استطاع المقراني وأتباعه من المجاهدين إلحاق عدة هزائم بقوات جيش المقدم تريميل التي كانت تتمركز بوادي الجمعة بواسطة حرب العصابات والكمائن المتحركة وسريعة الإيقاع مما ألحق أضرار فادحة بصفوفه وزرع الرعب بين أفراد جنوده وضباطه.

خاصة بعد أن اشتهر المقراني بالذبح والشنق للخونة من الجزائريين الذين تمادوا في خيانتهم، كان مصيرهم الإعدام بالشنق والذبح جزاء لما ارتكبوه من جرائم ضد إخوانهم الجزائريين.

لقد استطاع المقراني المجاهد الغيور على شعبه ودينه أن يحشد أكثر من عشرة آلاف مجاهد في أقل من شهرين من أيام ثورته الظافرة، كانوا كلهم أمل وتضحيات وجهاد بالنصر المبين على العدو وعلى

---

[1]- راجع: المقدم تريميل، ملف رقم: 375 أرشيف وزارة الدفاع الوطني الفرنسي 'أحداث 1 ماي 1871'

الظلم ولولا خيانة الأرستقراطيين والأغنياء والانتهازيين من الجزائريين، وعدم الدعم الصادق للثورة لكانت حربا شاملة على الاستعمار وكافة أعوانه وكان النصر.

إن جيش المقراني المتنامي كان ضعيف التسليح وضعيف التجربة القتالية، أغلب أتباعه فلاحين بدائيين وعمال غير مؤهلين عسكريا مصدرهم القبائل التي تشكل المجتمع الجزائري.

البنية السوسيولوجية لجيش المقراني، بدائية، بعيدة عن العلمية والتقنية والعسكرية النظامية.

بينما جيش العدو الفرنسي، يملك رصيدا كبيرا من التجربة القتالية التي اكتسبها في صراع ضد جيوش بروسيا والنمسا وروسيا وبريطانيا العظمى التي لم تكن الشمس تغيب عنها.

جيش العدو كان يملك النصيب الأوفر من تكنولوجية وسوسيولوجية الحرب، خاصة في مواجهة المستضعفين في الأرض.

مشاة متمرنة على المعاناة والحرب، ومدفعية ميدانية ذات قوة نيران كبيرة، وخيالة قوية وذات تجربة عالية، وسلاح هندسي متطور.

أي أن ميزان القوة مختل بين الطرفين لصالح جيوش الاحتلال الذي لا يتردد في تقتيل الأبريله المسلمين وتهجيرهم وتجويعهم من أجل إسكان المعمرين الأوروبيين مكانهم في الجزائر.

ورغم عدم التوازن بين الجيش الفرنسي والجزائري فإن إيمان المجاهدين قوي حتى درجة الاستشهاد من أجل العقيدة والوطن والعروبة.

لكن الإيمان وحده غير كاف دون توفر الأسلحة والذخيرة والدعم المادي والمعنوي وخاصة اللوجيستيكي منه، فإن النصر على أكثر من 200 ألف عسكري فرنسي وترسانة من الجنرالات والخبراء العسكريين مسلحين بأحدث الأسلحة الأوروبية يصبح معجزة.

النقص الكبير في السلاح والذخيرة والخبرة العسكرية وإلى الدور السلبي للخونة، الذين ساعدوا العدو بالمعلومات بل وقاتلوا إلى جانبه مثل ما فعل الآغابوزيد الخائن.

إن المعلومات التي كانت متوفرة لدى القوات الفرنسية سمحت لها بترصد كل تحركات المقراني وأتباعه، مما سمح لها بتحريك قواتها في الزمن والمكان الملائمين.

علاوة على تسليحها الجيد وتدريبها الميداني المقنع بينما كان المقراني وأتباعه لا يتجاوز سلاحهم بنادق الصيد والسيوف والسواطير والمناجل والسكاكين والهراوات.

وتكتيكيا لم يحاول المقراني حماية نفسه، وكأنه كان يريد الشهادة من أجل الوطن بعد أن ذاق مرارة خيانات بني جلدته وذويه وخذلان الأشقاء غربا وشرقا.

كان يواجه رصاص العدو ورصاص عملائه وكأنه كان يتحدى الموت لتوهب له الحياة، إن الإحباط أو الخذلان قد يدفعان المجاهد إلى طلب الشهادة.

شجاعته الفائقة واحتقاره لأعدائه من الفرنسيين والخونة على السواء جعلته يغتنم فرصة انخفاض قصف مدفعية العدو عند الظهيرة فطلب من رفقائه أداء صلاة الظهر "جماعة" بالقرب من موقفه الحربي، ولم يكن يعلم بوجود الزواف الخاضعة لفرنسا والمتكونة من الأهالي الجزائريين، أعوان جيش الاحتلال، بالقرب من مكان تواجده، كانوا يراقبون كل تحركات المجاهدين، لكنهم لم يكونوا هم الآخرين على علم بوجود المقراني بالموقع المذكور.

وعن طريق الصدفة والمقراني مع مجموعة من رفقائه يؤدون صلاة الظهر جماعة، أطلق الزواف وابلا من الرصاص عليهم فأصيب في جبهته فسقط بين رفقائه المجاهدين وهو يردد الشهادة لله وحده.

نهاية بسيطة، لكنها من أجل شعب وهب المثل لاستعادة سيادته وللتمتع بحقه في تقرير مصيره السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وفاة الحاج محمد المقراني يوم 5 ماي بواد سوفلات، شكل مفاجأة لأتباعه المجاهدين والمساندين، وشكل صدمة وإحباطا في نفوس أنصار الثورة ضد الاستعمار، لأن موته تعني الكثير من الإخفاق وتعني الكثير من التشاؤم في تحقيق ما كان يصبوا إليه.

وكان أول المبتهجين بموته الأغابوزيد الذي اعتبر الحادثة نصر الله ولأعوانه من الخونة.

الذي أخبر في الحال قائده السفاك الجنرال سيرليز "SIRIZ" الذي أرسل تهنئته ومكافأة مادية للتنظيم الخائن من الزواف الذين أطلقوا وا بلهم من الرصاص على المرحوم ورفاقه في واد سوفلات، وكانت النتيجة استشهاد المجاهد البطل الحاج محمد المقراني.

الذي قاتل الاستعمار الفرنسي على ظلمه للجزائريين وعلى أطماعه في التوسع والاستغلال في الجزائر وعلى حساب أرزاق وأعراض الجزائريين وكم من مرة وهو يذكر والده يتأسف لخدمة هذا الأخير الاستعمار الفرنسي الظالم بتقديمه العون والخدمة لدوق أورليون في مواجهة الأمير عبد القادر.

صحيح أن الصدمة من وفاة المرحوم المقراني كانت عنيفة ومؤثرة إلا أن رفقاءه كتموا حزنهم وإحباطهم ورحلوا بالجثمان على قلعة بني عباس، حيث دفن ضمن أسلافه ورفاقه أولائك الذين سبقوه.

إن وفاة المقراني المجاهد الشجاع الذي لم يخف من الموت بقدر ما كان يصاب بالإحباط كلما بلغه رفض قبيلة أو تخاذل أروسطوقراطي أو غني من الجزائريين الاستجابة إلى دعوته الداعية إلى الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الظالم، وكان يفرح ويبشر المجاهدين بالنصر العظيم على الاستعمار، كلما كانت دعوته إلى الجهاد تلقى القبول والاهتمام والعناية من قبل قبيلة أو عائلة أو شخص له وزنه اجتماعيا.

منصور وكذلك الجنرال سيريز والمقدم تريملي، الذين رأوا جميعا أن حادثة وفاة المجاهد الشجاع المقراني جنبت فرنسا مقاومة ثورة كبيرة هي ثورة المقراني خلال علم 1871 م التي دعمتها وساندتها أغلب القبائل الجزائرية في الشرق وفي الغرب بل وفي الوسط، ولولا وفاته المفاجئة لجمع كل الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي[1].

وعلى الرغم من قصر قيادة المقراني للثورة التي لم تتعدى 51 يوما إلا أنها جندت جزءا كبيرا من السكان الجزائريين ومست هذه الثورة كافة القبائل في مختلف النواحي الجزائرية في الشرق من القالة حتى مسيردة في المغرب الجزائري ومن قبائل بجاية إلى قبائل الطوارق بالجنوب الجزائري.

لقد مات المجاهد المقراني في 5 ماي 1871 بواد سوفلات لكن الثورة التي أعدها لم تنطفئ ولم تمت بل قادها بعده رجال مخلصين، استفادوا من كل الانتفاضات التي سبقتهم ضد الاستعمار الفرنسي.

وبصفة خاصة انتفاضة العنابرة بمسيردة ولاية تلمسان عام 1865م وانتفاضة واحة الزعاطشة، حيث اقتنع كل المجاهدين فيهما أن أمام الجزائريين اختياران إما الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والوطن ضد الاستعمار الفرنسي أو الاستسلام والإبادة والمهانة ما دام الاستعمار الفرنسي كشف عن أنيابه ورغبته في التوسع ولو على حساب أشلاء جزائريين بارتكابه لمجازر وجرائم فضيعة، أثبت للجميع وحشيته وأن حضارة فرنسا لا تعني عند الجزائريين إلا جرائم ضد الإنسانية.

[1]- راجع: المقدم روبن، الانتفاضة، مرجع سابق، ص: 250.

إن الجزائريين بعد كل الانتفاضات تأكدوا أن طلبهم للشهادة في سبيل الله والوطن خير من الحياة تحت رحمة الاستعمار الفرنسي وظلمه وهوانه.

إن جميع الانتفاضات سواء كانت في الغرب الجزائري أو في الشرق الجزائري أو في الوسط وما أكثرها، كانت تعبيرا صريحا عن رفض الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي رغم لجوئه إلى التقتيل والإرهاب والبطش ضد الجزائريين قصد تخويفهم وتهجيرهم وإسكان الأوروبيين مكانهم، الأمر الذي رفضه الشعب الجزائري قاطبة إن ثورة المقراني كانت خطيرة إلى الاستعمار الفرنسي لكونها شملت مناطق واسعة من الوطن الجزائري وكلفت جيوش الاحتلال أكثر من 10 آلاف قتيل.

وأخطر مخلفات هذه الثورة رسوخها في ضمير الشعب الجزائري، واعتقاده بحتمية النصر على الاستعمار الفرنسي.

وأن جيوش العدو يمكن قهرها، كما تم لها أمام جيوش بروسيا عام 1870 م.

لكن الفرنسيين الذين تعودوا على الاستخفاف من كل الانتفاضات والثورات في الجزائر لثقتهم في أنفسهم وقدرتهم على البطش بالجزائريين ومكره بالتفريق بين الشيوخ والقبائل الجزائرية واستمالة العملاء إلى جانبهم فإنهم حاولوا منذ اندلاع ثورة المقراني عام 1871 بتجريدها من محتواها العقائدي والوطني وتصويرها بمجرد انتفاضة شخصية وأنها مجرد انتفاضة جاءت من الخارج نتيجة الدعاية البروسية والعثمانية المعادية لفرنسا.

رغم إن هذه الثورات بينت للاستعمار الفرنسي أنها شعبية وأقوى من القمع وإرهاب فرنسا وأن أسلحة الإبادة والتهجير ومحاولات التنصير والفرنسة والتجنيس لا ترهب الجزائريين على

العكس من ذلك حتى وإن لم تحقق نصرا عسكريا على جيوش الاحتلال فإنها رسخت الروح الثورية في نفوس الجزائريين وعمقت من الكرة اتجاه الفرنسيين والأوروبيين.

بعد وفاة المجاهد المقراني واصل الشيخ الحداد الثورة، الرجل الوقور الذي عرف بالتدين والخوف من الله وقد تجاوز الثمانين من عمره.

نداء الواجب من أجل إنقاذ الوطن من التنصير والسيطرة والاحتلال.

دعوة وطنية وإسلامية وجهت له بتاريخ : 6 أبريل 1871 وبصدر رحب وأسلوب ديموقراطي جمع الشيخ الحداد كبار شيوخ "طريقة الرحمانية" الذين تناقشوا مضمون الدعوى للجهاد وأجابوا عنها بالإيجاب أي الجهاد في صفوف المقراني والثورة.

وكان في طليعة من ساندوا الشيخ الحداد أبناؤه سي محمد وسي عزيز.

وكلاهما عرفا بالكره للوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر وكلاهما عقدا العزم على محاربة الاستعمار وطرده من الجزائر.

لأن سيطرة الفرنسيين والأوروبيين وظلمهم ومصادرتهم لأرزاق الشعب الجزائري أصبحت لا تطلق.

الشيخ الحداد الذي بلغ به الأمر أثناء إمامة المصلين بالمسجد أن يطلب من الحاضرين رفع دعوى ربانية لمعاقبة الخونة والمتخاذلين من بين المسلمين الجزائريين، وحتى معاقبتهم استجابة للثورة الجزائرية.

كما ألزم كل الجزائريين بالانضمام إلى الجهاد والثورة من أجل طرد المستعمر الظالم الفرنسي الأوروبي وبيّن للحاضرين بكثير من التحريض على العصيان، أن التجنيد في صفوف الجيش الاستعماري والعمل تحت راية فرنسا جريمة في حق الإسلام وفي حق الوطن.

لأن الفرنسيين طغاة وظالمين وليسوا مسلمين بل هم نصارى صليبيين وعنصريين.

وحتى الذين تعاونوا مع الاستعمار وأخطئوا فإن توبتهم مقبولة وتكفيرهم عن ذلك يكون بالالتحاق بالجهاد والثورة لإعلاء كلمة الإسلام والعروبة[1].

دعوة للجهاد وجهها الشيخ الحداد على المسلمين الجزائريين تركت أثرها بينهم فاستجاب لها أكثر من 130 ألف مجاهد.

وبتاريخ 8 أبريل اجمع شيوخ الطريقة الرحمانية الكلمة حول الجهاد إلى جانب الثورة الوطنية التي اندلعت بفضل التضحيات وحشدوا ضد العدو قرابة 130 ألف مجاهد أي أكثر من 5 مرات من حجم أتباع المقراني.

وعين الشيخ الحداد أبناءه سي محمد وسي عزيز لقيادة المجاهدين والجهاد ضد الاستعمار نحو النصر.

عم الجهاد في الغرب وفي الشرق وفي الوسط، وإن كان لم يتوقف منذ ثورة الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري وفي الجنوب الجزائري.

وتواصل في بلاد القبائل على الرغم من الأعمال التنصيرية والتمسيح اللذان حاول الاستعمار زرعهما ولكن دون جدوى لقيام الشيخ المقراني بحملة معاكسة ضد التنصير والتمسيح، ومخاطرهما على الشخصية الجزائرية والوحدة الوطنية[2].

وقد كتب أحد الكتاب الفرنسيين في هذا الشأن:

---

[1]- راجع: د. صديق تلوتي، مأساة هوية منفية، شركة دار الأمة، سبتمبر 2000، ص: 61.

[2]- راجع: مداخلة الأستاذ العربي منور، بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر "جرائم فرنسا أيام الاحتلال" المحفوظة بالمركز، ص: 18.

إن الرباطات الدينية تشكل خطرا كبيرا على الفرنسيين، لأنها قد تحولت إلى مراكز للثورة من أجل القضاء على المسيحيين. وهذا ما يقوم به أتباع الرحمانية في الجزائر تحت سلطة الشيخ الحداد نظرا لتعلق الشعب بهذه الطريقة وأهلها[1].

قادة الاستعمار الفرنسي المعتدين على الجزائر وجيش خبرائه وجوسسته كانوا يحرصون على مراقبة كل التحركات والسلوك الوطنية أو الدينية أو القومية التي لها تجاوب شعبي والتي قد تهدد ما يعرف بالنظام العام والسكينة العامة والصحة العامة، أي مصالح فرنسا وفاعليتها.

فعندما رأت سي محمد ابن الشيخ الحداد الذي كان عضوا نشطا في جماعة الثائر بوبغلة ابتداء من سنة 1851 م وكان موقفه معروفا من الاستعمار الفرنسي لدى الجزائريين والفرنسيين إلى درجة أن البعض طالبوا بسجنه عام 1870 لخطورته السياسية والأمنية، طبعا بالنسبة لفرنسا، ولولا رأي الجنرال أوجيرون "Oujeroune" الذي كان يرى أن عائلة الحداد وأعضاؤها لا يهتمون كثيرا بالشؤون السياسية، ليتم اعتقاله من قبل السلطات الفرنسية.

ونفس السلوك كان يصدر من الابن الثاني سي عزيز للشيخ الحداد الذي كان يكره ويمقت الاستعمار الفرنسي لظلمه ولسيطرته على أرزاق الجزائريين ومصيرهم وكان لا يفكر إلا في مقاومته.

واستنادا إلى رين لويس فإن ما كان يقلق جيش الاحتلال في الجزائر الكره المتزايد للفرنسيين والأوروبيين بين الأهالي الجزائرية وبصفة خاصة بين أوساط المثقفين والمسرحين من الجيش الفرنسي

---

[1] – راجع: سيميان مارسيل، الرباطات الدينية بالجزائر، الجزائر، جوردان، ص: 40.

بعد الخدمة ومن قبل أولائك الجزائريين العائدين من الخارج من الدول الإسلامية ومن الدول العربية ومن الهجرة في أوروبا.

وقد أخطأت فرنسا في انتهاج سياسة الأرض المحروقة وسمحت لجيوشها بالبطش والإرهاب بالجزائريين ومارست سياسة التمييز العنصري اتجاه العرب، وكم من مرة دنست المساجد وكتاتيب القرآن بدل التعامل مع الجزائريين على قدم المساواة ودون ظلم اقتصادي واجتماعي.

لقد لجأ الشيخ الحداد الزعيم الروحي للطريقة الرحمانية وسي أحمد وسي عزيز إلى استعمال الوسائل الإعلامية في الاتصال الشعبي مثل المنشورات والرسائل والإعلانات لتحضير مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية الجزائرية وإقحامها عن اقتناع في الثورة الجزائرية وفي مختلف النواحي الجزائرية وقد حدد يومي 29 و30 من أبريل بواسطة منشور صادر من الطريقة الرحمانية حول الهجوم العام لجيش التحرير الجزائري على الاستعمار الفرنسي في كامل النواحي الجزائرية، واستجاب أغلب الجزائريين لأوامر قيادة الثورة.

بل أمثال هذه المنشورات تجاوزت الحدود الوطنية إلى المغرب وتونس والشرق العربي والإسلامي وتسبب في عرقلة مصالح فرنسا في هذه المناطق التي تزعم فرنسا أنها صديقة لها[1].

الطريقة الرحمانية عممت الثورة الجزائرية بعد أن كانت محلية في فترة المقراني لا تتعدى الجهة أو ناحية محدودة، صارت شاملة لكل المناطق الجزائرية، واستفادت من الإعلام السياسي إلى حد بعيد.

---

[1]- راجع: لابلاسات 'LAPASSAT' جنرال فرنسي، باريس، أ، كولين، 1899، ص: 359.

غير أن الطبقة البرجوازية والأرستقراطية الجزائرية من الأغنياء وأعيان العائلات الكبيرة من الباشوات والأغات والقياد ذوي المال والسلطة والعلم والتأثير الواسع فلم يلتحقوا بالثورة بل بعضهم رفض صراحة الجهاد واتخذ موقف مضادا لها، إلى مستوى الخيانة والجبانة وتدمير الذات ضد الإخوة والأشقاء، الأمر الذي خدم الاستعمار الفرنسي الماكر في الاستفادة من مبدأ "فرق تسد".

إن سي عزيز ابن الشيخ الحداد حمل لواء الجهاد وتعاون مع قريبه علي أوقاسي الذي قاد عدة معارك وحقق عدة انتصارات ضد جيوش الاحتلال الفرنسي في منطقة القبائل.

وانتصر على جيوش الاحتلال المقادة من طرف الجنرال لاباسي وسوسي "LAPASSAT et SOUSSI" المعروفين ببطشهما وكرهما للعرب الجزائريين.

وقد عبرا عن مرارة كبيرة عند عدم تمكنهما من القضاء على الثوار تحت قيادة ابني الشيخ الحداد سي عزيز وسي أحمد.

بل استغربا الأمر الذي لم يتحقق فبالرغم من تفوق جيوش الاحتلال في العدد والعدة، فإن الثوار كثيرا ما فلتوا من التطويق المحكم لقواتهما، وكثيرا ما أنزلوا عدة ضربات قتالية مؤلمة بالعدو.

وحدات التحرير التي قادت في أكثر من مرة هجومات سريعة ومؤثرة في نواحي بجاية وفي منطقة البابور وسطيف من قبل الثوار الجزائريين.

وأثناء كل العمليات الحربية ضد الاستعمار تلقى الإخوة أبناء الشيخ الحداد وأتباعه مساندة ودعم المجاهدين في مناطق الشرق والوسط تحت قيادة المجاهد بومرزاق أخ المقراني وساعده الأيمن.

أما جبل جرجرة التي كانت تراقب كل تحركات جيش الاحتلال في منطقة القبائل، فقد كانت مقرا لقيادة سي عزيز وأتباعه من

مهمتها حوالي ستة أشهر. تتكون محلة الغرب من 80 خيمة، وتعود بعد أربعة أشهر[1]. أما محلة التيطري فتتكون من 15 خيمة فقط وتعود بعد حوالي الشهرين. في حالة ما إذا أبقى الباي المحلة أكثر من المدة المقررة فإنه يكون مسؤولا عن مصاريفها. يحصل اليولداش الذين يشاركون في المحلات على غنائم البر، أما اليولداش الذين يشاركون في القرصنة التي تنشط في الربيع فيحصلون على غنائم البحر.

نقدم هنا محلة التيطري كنموذج من العناصر التالية :

تتكون محلة التيطري من العناصر التالية:

1. شاوش واحد من شواش دار الباشا، يقوم بدور محافظ يمثل الحكومة.

2. الآغا، أوقائد المحلة وكاهيته أونائبه.

3. ضابط واحد برتبة باش بوا كباشي (ممثل الضباط برتبة بولكباشي)، وآخر برتبة أوضة باشي ووكيل حرج لكل خيمة، وهومسؤول عن تموين جنود الخيمة أوالدفرة.

4. 15 خيمة كل منها تضم حوالي 14 جنديا وعزارين، وهما خادمان، وطباخا وتشراكا أوصبيا مكلفا بالخدمة الداخلية للخيمة.

تنطلق المحلة من عين الربط، يرافقها الباي أوخليفته وتتبع السبيل التالي :

1. في المرحلة الأولى تصل قونلق (موقع تابع للدولة) فندق الحميز.

2. المرحلة الثانية تصل قونلق جسر بني هني.

3. المرحلة الثالثة تصل قونلق دراع البغل.

---

[1]- فيدرمان ولوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 299.

4. المرحلة الرابعة تصل قونلق كرمة الحيط في أراضي قبيلة عريب.

5. المرحلة الخامسة تصل قونلق سور الغزلان، أين تشرع في تحصيل الجباية.

من سور الغزلان تتجه المحلة إلى وادي فرشة حيث تخيم، وفي اليوم التالي تخيم بين العذاوة وأولاد مريم، وفي اليوم الموالي تخيم في شلالة لدى العذاوة، وفي اليوم الموالي تخيم في عين الشارف لدى أولاد علان، وفي اليوم الموالي تخيم لدى الربايع، ثم في مرجة أولاد ديد، لتصل في نفس اليوم إلى البرواقية. يدخل الباي، بعد هذه المسيرة إلى جنان الباي في المدية، بينما تعود المحلة بقيادة الآغا إلى الجزائر، عبر أقاليم حسن بن علي، بني بويعقوب، وادي الآخرة وحوش ميمون. في السنة التي يأخذ فيها الخليفة (خليفة الباي) الدنوش وحده إلى الجزائر، فإنه يقود المحلة إلى غاية سور الغزلان، ويقدم الباي مصحوبا بصبايحيته مخازنيته من المدية إلى ذلك الموقع، أين يستلم قيادة المحلة بنفسه ويعود إلى المدية رفقتها[1].

يلتزم الباي، خلال مدة المحلة، بتقديم مكافأة من 2 بوجو(3.60 فرنك) لكل جندي شهريا. أما قادة المحلة فيستلمون، عند عودتهم إلى الجزائر، ما يعرف باسم "الكسور"، وكانت الكسور هذه سنة 1773 كما يلي : 72 ريالا (43.2 فرنك) للآغا 39 للكاهية، 27 للباش بولكباشي، 60 لخوجة الآغا، 38 لخوجة الكاهية، 25 للعاشي باشي (رئيس الطباخين)، 12 لطباخ الكاهية، 12.5 لشاوش الكاهية، 25.5 لقائد حاملي الماء، 15 لكل حامل ماء، 10 لشاوش العسكر، 10 لوكيل حرج الآغا، 5 لكل من وكيل حرج الكاهية ووكيل حرج بولكباشي ووكيل حرج شاوش العسكر والكبلجي (المكلف بالكلاب) وقهواجي

---

[1]- بارادي. المرجع السابق عدد 41 ص 77 و78.

المجاهدين هذه الجبل التي لعبت دورا مشرفا في حماية سيادة الجزائر عبر تاريخها الطويل لقد بقيت شامخة، شموخ سيادة هذا البلد، الذي استعصى إخضاعه من قبل الاستعمار.

فرغم الغزوات المتعاقبة للدخلاء فإن أحرار القبائل كثيرا ما احتموا بها وجعلوها رمزا للنضال والمقاومة ورمزا للتضحية من أجل الوطن.

من جبل جرجرة الشماء كان المجاهد سي عزيز يوجه تعليماته الخاصة بمقاومة الاستعمار وتدمير كافة أوكاره الخبيثة.

ونظرا لفاعلية العمليات الحربية التي قام بها المجاهدون تحت قيادة سي عزيز وسي محمد وبومزراق وعلي قاسي في مناطق القبائل والشرق والوسط الجزائري، كانت هنالك قبائل ثائرة بنواحي مغنية وتلمسان منها قبيلة العنابرة وبني وسين في مسيردة وبني سعيد، التي اضطرت العدو إلى طلب النجدة من فرنسا من الأسطول البحري الفرنسي لقصف التخوم الفرنسية للسواحل الغربية، كل أعمال البطش والقمع والإرهاب التي ارتكبها السفاكون، الدمويون من أمثال الجنرال لالمون ولاباسي وسوسي وسيريز لم تثن الجزائريين عن هدفهم النبيل وهو إما تحرير الوطن أو الاستشهاد.

في هذه الفترة عمت انتفاضات أخرى تضامنا مع الثوار المجاهدين في منطقة القبائل بالجنوب الغربي الجزائري في البيض وعين الصفراء وبشار وأخرى في سيدي بلعباس وسعيدة ومازونة وتيارت، كلها كانت موحدة في الهدف، تحرير الوطن أو الاستشهاد ضد مخالب الصليبية والتنصير وضد كل أشكال الظلم والسيطرة الاستعمارية الفرنسية.

لقد كان لمنشورات المقراني والشيخ الحداد أثر بالغ في نفوس كل الجزائريين في الوسط وفي الشرق بل وفي الجنوب وفي الغرب الجزائري أشعلت لهيب الثورة وتبينت مدى خطورة السيطرة

الاستعمارية على عقيدة الإسلام وأرزاق المسلمين الجزائريين، وأيضا على مستقبل أطفالهم، الذين سعى الاستعمار الفرنسي إلى سلخهم عن أصلهم الإسلامي والعربي من خلال الجهود البشرية المسيحية التي استغلت فقر المجتمع الجزائري وتجويعه قصدا بهدف النيل من قيمه وأخلاقياته ودفعه إلى الاستسلام والرذيلة وبيع قيمه من أجل الحياة الدنيا الفانية، غير أن جهوده تلك باءت بالفشل ولم يجني إلا الخيبة واليأس والإحباط الذر يعين.

إن صدى ثورة المقراني والطريقة الرحمانية بلغت عن طريق المنشورات إلى أقصى الحدود المغربية، إذ كان من أتباعها الشيخان العربي ناصر وقدوري لمسيردي، وعثر عليها بتونس وموريطانيا وليبيا.

كما عثر عليها عند شيوخ السواحل بنواحي الغزوات وأطراف سبدو ورأس الماء.

أهدافها قبلت ونفذت، لتماشيها مع الوضع القلق للأهالي الجزائريين الذين لم يعودوا يهتمون إلا بما يزيح عنهم الظلم الاستعماري وبطشه الإنساني، علاوة على تسلطه على أرزاق الجزائريين وأعراضهمومقدساتهم.

العلاقة بين منطقة القبائل والشرق الجزائري كانت متواصلة ومنظمة مع منطقة الغرب الجزائري ونواحي مغنية من خلال أمجاد الماضي البعيد ومن خلال النسيج النفسي واللغوي وحب الحرية والاستقلال، علاوة على الأصل والتاريخ الحضاري الواحد للمنطقتين.

أواسر الأخوة والوحدة في الآلام والآمل تجذرت وتطورت من خلال منشورات وتعاليم الطريقة الرحمانية وتعاليم ثورة المقراني فكانت النتيجة الثورة التي قاومت الاستعمار الفرنسي، بل وقبله قاومت الإدارات الاسبانية والتركية وأثبت مدى حبها للحرية والاستقلال وسيادة الجزائر.

متسلحة في كل ذلك بالعقيدة الإسلامية وبكتاب الله وسنة نبيه محمد.

وما حادت عن هدفها رغم التضحيات الجسام.

لقد كان لاجتماع أقطاب الطريقة الرحمانية بعين السلطان القريبة من مدينة ذراع الميزان بمنطقة القبائل الذين أجمعوا على الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي بالغ الآثار في المنطقة وفي الشرق الجزائري بل وفي الجنوب والغرب الجزائري.

حيث كان أتباع الأمير عبد القادر من المجاهدين لازالوا وفيين للدولة الوطنية الجزائرية التي لم تختف بمجرد توقيف الأمير عبد القادر للحرب ومغادرته أرض الوطن، بل قاموا بعدة هجومات مضفرة في نواحي معسكر وسعيدة وسيدي بلعباس وتلمسان ضد مصالح المعمرين، كتدمير لمزارعهم وحرق محصولاتهم الفلاحية وغلالهم من الخضروات التي كانت تشحن إلى فرنسا وأوروبا بينما السكان المحليين يعانون من المجاعة وقلة التغذية وكثرة الأمراض وثقل الضرائب المفروضة عليهم قصد تهجيرهم وإسكان الأوروبيين محلهم خاصة في المناطق الخصبة مثل المتيجة وبلعباس ومستغانم وعين تموشنت وفي نواحي بومرداس والبويرة وبجاية.

وفي منطقة القبائل بعد إعلان 12 أبريل 1871 تجمع المجاهدون من تيزي وزو وبجاية والبويرة والأخضرية تحت قيادة المجاهد علي أوقاسي واحتلوا عدة قرى ومدائر، ودمروا ممتلكات المعمرين وأعوانه حتى كتب النقيب الفرنسي غوس "CHOS" عن المنطقة لرؤسائه ما يلي : " إن أمورا قد جدت في الميدان، فلم يعد هؤلاء الجزائريين مجرد أهالي متخلفين كما حدثنا الجنرال الفرنسي سوسي، بل أصبح هؤلاء لا ينشدون إلا الحرية أو الشهادة في سبيل الله[1].

[1]- راجع: مراسلة للنقيب الفرنسي غوس الموجودة بأرشيف وزارة الحرب الفرنسية تحت رقم: 175.

القائد المجاهد علي أوقاسي الذي باغت الفرنسيين وحامياتهم في أكثر من موقع وبسرعة البرق ألحق أضرارا بليغة بجنودهم وعتادهم وخلق الهلع بين صفوفهم، جعل الكثير من عساكرهم يفرون بل بعضهم انتحر هروبا من الموت المحقق.

اعتراف ضابط الجيش الفرنسي بوجود شعور قوي من الوعي الثوري والحس القوي والعقائدي بين الجزائريين أحدث هزة مفاجئة بين أعضاء الجمعية البرلمانية الفرنسية، مما دفع الكثير من أعضائها إلى توجيه أسئلة مباشرة إلى أعضاء السلطة الفرنسية وفي طليعتها وزير الحرب، عن أسباب ذلك وهل لسياسة فرنسا المنتهجة في الجزائر علاقة أم مجرد زوبعة من مصادر معادية كالدعاية البروسية أو العثمانية أو الإسلامية؟

مما حتّم على وزارة الحرب تشكيل لجنة تحقيق في الموضوع توصلت في نهاية 1871 إلى الحقائق الآتية:

1- الوضع الاقتصادي المزري للمسلمين الجزائريين، دفعهم نحو الانتقام من المعمرين والفرنسيين والأوروبيين لانتزاع أرزاقهم منهم.

2- اعتبار الأهالي الجزائريين للتشريع الفرنسي في الجزائر الخاص بمصادرة الأراضي التي لا مالك لها والأراضي الوقف، والأراضي المحبوس، وأراضي من كان موقفه سلبيا ضد الاستعمار الفرنسي، وإجراءات الحجز على الممتلكات عند عدم القدرة على التسديد، تشريع غير شرعي يجب إلغاؤه.

3- سياسة الأرض المحروقة والبطش والتمييز والتهجير للجزائريين غير عادلة ويجب إبدالها بما لا يضر الأهالي الجزائريين لأنهم أصحاب حق.

وهم في الواقع لا يطلبون قانون أفضلية لهم ولكن فحسب عدم التمييز ضدهم[1].

إن انتصارات المجاهدين في منطقة القبائل تحت قيادة أبناء الشيخ الحداد سي عزيز وسي أمحمد وأتباع علي أوقاسي الذين تجاوز عددهم 20 ألف مجاهد، شكلت استبسالا وتدعيما ذاتيا بين الجزائريين وهلعا عظيما في وسط الفرنسيين والأوروبيين والمعمرين الذين تخلوا عن عائلاتهم وعن ممتلكاتهم واحتموا بالثكنات العسكرية وديار الشرطة خاصة بعد أن لجأ المجاهدون إلى الانتقام من الأوروبيين وإظهارهم بعدو الإسلام والجزائريين، وأحرقوا ممتلكاتهم ومزارعهم واستولوا على حيواناتهم.

عمت الثورة في بجاية وجيجل وسطيف وتيزي وزو و الجزائر وامتدت حتى أطراف متيجة وبسكرة وتبسة وأخبر الجنرال هانوتو عن الوضعية الصعبة التي أصبحت تواجه الأوروبيين في الجزائر، وتنامى الحقد والبغض بين الجزائريين لكل ما هو أوروبي أو مسيحي، مما جعل هذا الأخير يأمر وحدات مختلفة من المشاة والقناصة والفرسان والمدفعية بل ومن الأفارقة والصبايحية " الفرسان الأهليين " وحتى من الهندسة العسكرية، علاوة على بعض كتائب من الزواف، تجاوز عدد قواتها 7000 عسكري تحت قيادة العقيد فورشو، لتدعيم الوجود الفرنسي في المنطقة وحماية أمن وسيطرة الأوروبيين فيها، بعد أن شعروا بقرب رحيلهم من الجزائر.

[1]- راجع: تقرير لجنة التحقيق تحت قيادة عضويين من الجمعية البرلمانية ومشاركة جينرال جيش، التقرير موجود بالأرشيف وزارة الحرب.

وكان رد القائد علي أوقاسي للتأهب والاستعداد لمواجهة العدو الذي حشد جيشا لا قبل لهم به، وجمع مجاهديه وراسل آخرين بالصيغة الآتية:

"أيها القائد ... السلام عليكم.

إن الجهاد هو غايتنا، إنك مسلم وواجباتك وحقوقك هي نفس واجباتنا وحقوقنا، إننا لا ننوي تحطيم أي مسلم ما نريده ونسعى إليه هو الجهاد وإننا نرغب في أن تكونوا بجانبنا".

المجاهدون لقنوا دروسا للعدو في البطولة والتضحية وألحقوا به عدة هزائم عسكرية، الأمر الذي أحدث فزعا كبيرا في أوساط الأوروبيين.

ولولا سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها العقيد فورشو وقواته الذي أمر بإعدام فرد من كل عائلة بالمنطقة كعقاب عن التدعيم والمساعدة للخارجيين عن القانون.

ولو لا أتباعه سياسة إحراق وتدمير كل مساكن العرب وتخريب محصولهم من الحبوب والخضروات وحجز أموالهم.

والواقع فإن العدو هو عدو الجميع، أي كل الجزائريين ولا يفرق بين أولائك الذين يسكنون في تيزي وزو والذين يسكنون في وهران أو أولائك الذين يسكنون الجنوب الجزائري، بدل الشرق الجزائري، جميعهم جزائريين يسميهم بالأهالي "الأنديجين" أي أقل شأنا من المواطنين، وأكثر تخلفا في رأيه من الأوروبيين.

حقيقة يجب أن لا تغيب عن ذاكرة أي جزائري مهما كان موقع سكنه في الجزائر ومهما كان مركزه القانوني أن الاستعمار الفرنسي فهم حقيقة الوضع وفهم أن الجزائريين جميعهم ثوار، أي خارجين عن القانون ويجب تقتيلهم وتهجيرهم وتفقيرهم وإذلالهم وإحلال الأوروبيين مكانهم، ما دام المجتمع الدولي غائبا وما دامت أوروبا

وحدها كانت تقود العالم وتستحوذ على ثرواته دون مراقب وفي غياب الضمير الإنساني المسؤول.

جيش الجنرال المجرم كان يتكون من فرقتين كبيرتين حسب إنجاز الهدف المحدد خريطة إتمام استعمار المنطقة والزحف نحو الشرق، مقاومة المجاهدين والسكان كانت شبه معدومة ومع ذلك فجيش الاحتلال أحرق أغلب مساكن الثنية وذراع بن خدة وبرج سباو، وجزء كبير من مدينة تيزي وزو وآخر من فريحة.

ورغم تهور العقيد فورشو على رأس مرتزقته فإن المجاهدين وعلى رأسهم البطل القائد علي أوقاسي فضلوا الانسحاب المنظم على الجبل تفاديا لكل خسارة بين صفوفهم، لكن لوقت مؤقت.

إذا سرعان ما التحق بهم العقيد المتهور فورشو وفرسانه مرتزقة أوروبا وعبروا الوادي، حينها أصبحوا في متناول رصاص المجاهدين الذي أفرغ وابلا عليهم، فأردى أغلبهم قتيلا بما فيهم عقيدهم المتهور، بينما أقام القائد علي أوقاسي مقر قيادته بتيزي راشد واحتفل بنصره بعد ذلك واصل الجنرال الفرنسي الأكثر سفكا للدماء زحفه نحو تيزي وزو ودخل فورناسيونال "الأربعاء ناث ايراثين" وأبدى المجاهدون بسالة كبيرة غير أن النقص في التسليح والذخيرة خانهم مما جعلهم يتحفظون في الجهاد، خاصة بعد أن بلغهم قيام بني وقنون وأفليسن وأيت جناد بطلب الأمان أمام القائد المجرم الفرنسي، بعد أن نال منهم البؤس والجوع ونقص المؤن.

وفي حركة انتقامية حقيرة وجه الجنرال لالمون سلاح الهندسة الاستعمارية إلى هدم منزل القائد علي أوقاسي وأيضا مدينة تامدة المجاهدة ثم مدينة مقلع الشهيدة.

ورغم نيران مدفعية العدو وجيوشه المتعددة من مشاة وفرسان، فإن مقاومة المجاهدين بدت قوية ومنظمة وتطورت المعارك لصالحهم

حتى استطاعوا استعادة مدينة تافصيت، ورغم أن الخسارة في صفوف المقاومين لم تتعدى 200 رجل فإن العدو فقد أكثر من 600 عسكري مرتزق.

ورغم أن الجنرال لاليمون بعد رؤيته مصير العقيد المتهور فرشو الذي كان يرافقه.

وبعد أن فشل في اقتحام، فوناسيونال ارتأى تأجيل هجوماته.

بينما قوات الجنرال سيريز تمكنت نسبيا ودون مقاومة في استعادة إقليم الصنهاجية بمنطقة القبائل، بعد أن قام جيش الاحتلال بتدمير المداشر ونهب المطامير وإتلاف المحاصيل الزراعية والخضروات، ثم واصل طريقه إلى استعادة ذراع الميزان التي ظلت محاصرة من قبل المجاهدين طيلة 50 يوما.

استمرت المعارك ولم تتوقف بين قادة الثورة وجيوش الاحتلال حتى يوم 30 جوان حيث استسلم سي عزيز ابن الشيخ الحداد والمجاهد علي أوقاسي ومحمد لونيس ومحمد أمقران، لجنرال الاحتلال لالمون الذي عاملهم كمجرمين وليس كأسرى حرب طبقا لأحكام قواعد القانون الدولي.

لكن ومع ذلك فكلما تعددت جنرالات قوات الاحتلال الفرنسي والظلم كلما بزغ الفجر وعمت البشرى أوساط المجاهدين فما هو بومزراق ذو الدور المميز في ثورة 1871 م، يلقي عدة دروس في الجهاد للمستعمر وجيوشه الظالمة.

فما كادت تنطفئ شمعة المجاهد المقراني ويستسلم الشيخ الحداد بسبب سنه المتقدم، تارك أمانة الثورة بين أيدي وطنية جزائرية، أمينة كان من بينها أبناؤه سي أحمد وسي عزيز اللذان دوخا الاستعمار وجيوشه المتعددة حتى ظهر مكانهم أسلاف آخرون أكثر شجاعة وأكثر بسالة.

ورغم تفوق هذه الجيوش عددا وعدة فإن التضحية الجماعية للمجاهدين بما فيهم علي أوقاسي وبعده القائد بومزراق، أقطاب الطريقة الرحمانية، كان لها الأثر الفاعل والناجع في تلقين الاستعمار الفرنسي الكثير من الدروس في الشجاعة والبطولات الجزائرية النادرة التي اعترف بها أكابر مجرمي فرنسا في الجزائر.

والقائد بومزراق أخ الباشاغا المقراني، في عهده أسندت له مهمة قيادة قبائل ونوغة من نواحي سور الغزلان في إطار الكفاح المشترك ضد العدو، وكان مثالا في الشجاعة والتضحية من أجل الجزائر.

سجل أول انتصار عسكري له على السفاك الفرنسي وجيوشه المتقدم تريملي بتاريخ : 24/ مارس/1871 ثم كان له ثاني انتصار عسكري بتاريخ 26 مارس حيث قتل العديد من عساكر النقيب بيلوا الذي لقي حتفه هو الآخر.

مما زاد من نفوذه في المنطقة وكثر أتباعه من المجاهدين.

أقام القائد بومزراق قيادته بحمام زيان وانتصر مرارا على السفاك المقدم تريملي الذي سعى عدة مرات للقضاء عليه، وكانت معركة المقاومة أسطع انتصاراته، حيث أباد أكثر من 200 عسكري فرنسي.

ورغم التحاق القائد بومزراق بوحدات المقراني فإن قريبه بوزيان أقلق بوحداته جيوش الاحتلال التي كان على رأسها المجرم الجنرال سيريز، وحمله الكثير من الضحايا رغم التفاوت في ميزان القوة بين الطرفين.

الأمر الذي لم يجد له علاجا عسكريا إلا قيام جيوش الاحتلال بحرق القرى وتخريب المساكن، وإتلاف المحاصيل والحقول وقطع الأشجار المثمرة ونهب مطامير المزارعين الجزائريين من الحبوب، انتقاما منهم وتعبيرا عن كرههم العميق للعرب الجزائريين.

ورغم اعتقاد الجنرال بيريز بغياب القائد بومزراق وأرسل لتهديم ونهب سكنه، فإن المجاهدين كانوا له بالمرصاد وأبادوا أفراده عن آخرهم، مما دفع الجنرال إلى مزيد من الانتقام من سكان المدينة بحرق مساكنهم وإتلاف محصولاتهم وإفراغ مطاميرهم، الأمر الذي لم يزد الثورة إلا تصميما وتأجيجا لتحقيق النصر على العدو و تحرير البلاد من قبضة الجلادين الظالمين.

لقد ظل القائد بومزراق في جهاده يستخدم السلاح ويستخدم القلم دون هوادة، فالأول ضد العدو والثاني ضد المتخاذلين والمرتدين بل وأعوان الاستعمار.

لقد طلب من قائد أولاد عزيز أن يلحق بالجهاد وبالمجاهدين وطلب من الآغا بوزيد بالبويرة وكذلك شريكه محمد بن منصور قائد أولاد بلبل بالالتحاق بالثورة.

أسلوب القائد بومزراق هذا يدخل في إطار "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فهو قبل تحكيم العنف والسيف كان يسعى دائما إلى إقناع المترددين والمتخاذلين بالالتحاق بالثورة استنادا إلى ما يمليه الشرع الإسلامي والمصلحة الوطنية، تلك نصيحة أخيه المجاهد المرحوم المقراني.

ونظرا للتأثير الكبير لأسلوبه السلمي هذا في تدعيم الثورة وصفوفها فقد أثار قريحة الخصوم المغرر بهم من أمثال الأغابوزيد الذي كتب إلى الجنرال الفرنسي سيريز ما يلي: "وحتى أولائك الذين لم يروا منا إلا خيرا انضموا إلى صف العدو"[1].

بينما توجه بومزراق القائد مباشرة بعد وفاة أخيه المقراني نحو منطقة بجاية، أين التقى الكثير من المعزين له في أخيه.

---

[1]- راجع : ملف رقم : 375 بتاريخ 17 أبريل 1871 نقلا عن د. يحي بوعزيز .

في وقت حاول الفرنسيون استغلال فرصة استشهاد المقراني لعرقلة الانتفاضة، وإحباط إرادة المجاهدين في مواصلة الثورة.

فكاتبوا كافة القياد من الجزائريين والباشغلات، أن الانتفاضة قد انتهت بموت المقراني وأن جميع الأهالي ملزمين بالنظام لفرنسا، الدولة الوحيدة والقوية.

بينما رد عليهم القائد بومزراق أن عائلة المقراني لا تزال متحدة لإنجاح الثورة، وأن الثورة الجزائرية ستستمر لتحرير البلاد والعباد من الاستعمار.

ورغم أن الجيش الاستعماري بالفعل قد استعاد زمام الأمور، فإن الثورة لم تنطفئ لأن رجالها ظلوا مخلصين لله وللوطن.

وفي أوائل جويلية 1871 استسلم آل الحداد وتبعهم في ذلك الكثير من القياد الذين قل عنهم رين: "كلهم أتوا ليضعوا أنفسهم في خدمة الجنرال لالمون وطلبوا أن يقبلهم كأعوان للدولة الفرنسية، على أن يلتزموا بخدمتها وأن يجعلوا الأهالي مثلهم".

كذلك تقدم سي عزيز بطلب الاستسلام، والعفو مباشرة إلى الأميرال فيدون "VIDON" الأمر الذي باركه الشيخ الحداد الذي تقدم بطلب آخر إلى الجنرال سوسيي: "إنني هنا كالميت بين أيديكم، وإنني بين يدي قدير رحيم جعل من الرحمة والمغفرة صفة من صفات عظمته". سجن بمدينة بجاية بسجن بفوربلرال[1].

ومما لا شك فيه أن اليأس والإحباط اللذان ألما بالقائد بومرزاق بعد استسلام آل الحداد كانا كبيرين، إلا أن إرادة المجاهدين في نواحي العاصمة وشرشل كانت أقوى من ضعفهم واستسلامهم.

---

[1]- راجع: مولود قايد، م. س. ذ، ص 143.

لقد تحرك مقدموا الطريقة الرحمانية وشنوا هجوماتهم على قوات جيش الاحتلال ومؤسساته الأوروبية في شرشال وتيبازا وحجوط والعفرون وكان حليفهم القائد الشجاع مالك البركاني الذي عاهد الجميع على الشهادة في سبيل الله والوطن، وحققوا عدة انتصارات على العدو.

واستطاع أن يوسع الثورة إلى القليعة والبليدة، غير أن استشهاده خلال أوت 1871 بالقرب من شرشال أحدث اضطرابا بين المجاهدين.

ورغم كثرة الأحداث وتسابقها فإن القائد بومزراق ظل مخلصا للجهاد ولم يعرف الاستسلام طريقا إلى قلبه. فقد أقلق وحدات الجنرال لالموند بالقرب من تلرلمت بمنطقة القبائل وتجنب حصار قواته من قبل المجرم الجنرال سوسي، واضطر إلى مواجهة إحدى وحداته في معركة " تلخرتا " ثم انسحب عبر واد زمورة[1].

وظل يقاتل الفرنسيين وأعوانهم حتى حدود بوسعادة والمسيلة والجلفة والمدية والأوراس وناصره في كل ذلك القايد سعيد بوداود.

وفي 20 سبتمبر 1871 توجه آل المقراني بزعامة بومزراق إلى الجنوب الجزائري، متجنبا حصار الجنرال الفرنسي سوسي وقواته وأعوانه من الخونة.

وخلال شهر أكتوبر واجهوا قوات العدو في معركة شرسة بين الطرفين سميت بـ معركة "قبر سلوقي" وكان هدفهم إنقاذ شرفهم وعدم تدنيسه والمرور إلى تونس عبر الجنوب الجزائري، الأمر الذي

---

[1]- راجع: تراي الدكتور ؟ الحملة على بلاد القبائل المشرقية والحضنة، مارس، نوفمبر 1871، ص: 39.

سيفشل كل مساعي الجنرالات الفرنسيين من أمثال دوالكروا وسيريز من القبض عليهم وعلى القائد بومزراق.

وخلال شهر يناير 1872 عبروا جميعا إلى تونس. ولم يقع إلا البطل المجاهد بومزراق الذي كان مترددا في العبور إلى تونس مع أهله، في قبضة العدو وبعد أن نال منه التعب والألم.

بومزراق الذي عثر عليه جنود الرائد روز يوم 20 من شهر يناير 1872 في وضعية يائسة، فقد فيها كل قواه ماديا ومعنويا نتيجة اليأس والإحباط، بعد أن خانه الجميع في تحرير الوطن.

ثم كانت ثورة أولاد سيد الشيخ الشراقة، كانت سباقة إلى تحسيس الجزائريين بخطورة الاستعمار الفرنسي على معتقداتهم الدينية وعلى ثقافتهم وعلى أعراضهم وشرفهم.

ورغم انطفاء شمعتها إلا أن ثورة سيد الشيخ كانت أشد عنفا ووقعا بالاستعمار الفرنسي وأعوانه في كامل الجنوب الغربي الجزائري وهي التي تعرف بثورة الشيخ بوعمامة، موضوع دراستنا في فصل مستقل.

الفصل الثامن

مقاومة الشيخ بوعمامة
1881 - 1904م

هو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن محمد بن إبراهيم بن التاج والمشهور بالشيخ بوعمامة.

ولد بوعمامة حوالي عام 1838 أو 1840 بفيقيق بقصر الحمام الفوقاني، غادرها عام 1875 فاستقر بمغرار التحتاني.

واتبع حياة التصوف والزهد وبها أسس زاوية وقام بتعليم القرآن والسنة المحمدية ودرس الفقه والثقافة العربية من نحو وبلاغة ولغة.

ولعلمه الغزير وورعه وحيويته المتزايدة اعتبر من أولياء الصالحين وحاز من الجميع على الاحترام والتقدير وصار موضع ثقة الجميع لصدقه وعلمه وشجاعته.

ونظرا لسلالته ودروسه ووعضه عم نفوذه واتسعت شهرته بين تلامذته ومستمعيه، الأمر الذي أقلق الاستعمار وسلطاته، كثرة الزيارات المتعاقبة عليه من طرف القبائل الصحراوية وشيوخها، جعلت عيون الاستعمار تراقبه وقد بلغهم أن الشيخ بوعمامة يخفي أهدافا قد تكون سياسية ولا تنحصر في الدينية أو الثقافية. خاصة وأن ظلم فرنسا عم المنطقة وتجاوزات حكامها بالغت في إظهار قوة فرنسا المسيحية وحملاتها التبشيرية وتحدت رجل القرآن وحفظته، تحدت المساجد وبيوت تعليم القرآن وحرمات الجزائريين، ومقدساتهم أديست، ولم يعد أحد يشك في أطماع فرنسا التوسعية وسياستها العنصرية والتنصيرية في الجزائر.

الشيخ بوعمامة الذي لقبه البعض بعبد القادر الثاني قاد ثورة تحريرية شعبية قصد تحرير الجزائر انطلاقا من منطقة عين الصفراء بالجنوب الغربي الجزائري.

مقاومة الشيخ بوعمامة عبرت عن إرادة وتصميم الشعب الجزائري عن رغبته في التحرر وتقرير المصير كبقية الشعوب الأخرى، خاصة الأوروبية منها التي بلغت حقوق الإنسان والمواطن، لكن في أوروبا فحسب هذه المقاومة كانت للأسباب الآتية:

1- رفض الشعب الجزائري للسياسة الظالمة للاستعمار الفرنسي خاصة بعد أن لجأ إلى تطبيق سياسة الأرض المحروقة، ونكث كافة عهوده اتجاه التزامه بحماية الشعائر الإسلامية وأعراض الجزائريين، وبعد أن لجأ مرارا إلى التقتيل والتعذيب والنفي والإبعاد والاغتصاب، ترهيبا للمسلمين في الجزائر، الذين اعتبرهم خارجين عن القانون.

وبعد أن نهج سياسة التمييز العنصري والتنصير وسن قانون الانديجينا ضد المسلمين والعرب الجزائريين لم يعد أحد يشك في حقده وظلمه ولو كان من أعوانه .

وبعد أن برزت سوء نية الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الذي جاء إلى الجزائر قصد الانتقام من المسلمين الذين فتحوا الأندلس وهددوا فرنسا حتى جنوب باريس "قام الاستعمار بتجريد الجزائريين من أرزاقهم وأراضيهم، وحكم فيهم المعمرين والمرتزقة الصليبيين لإخضاعهم وإذلالهم ولإظهار أن قوة فرنسا لا تهزم، وأن ظلم فرنسا لا حدود له.

الأمر الذي ألحق بالجزائريين كافة الويلات والمحن، علاوة على المجاعة ومختلف الأوبئة المترتبة عنها.

2- استيلاء وتدمير الأحرار في الجزائر:

أغلب القبائل في الغرب الجزائري بل وفي الجنوب والوسط والشرق الجزائري بل وحتى في منطقة القبائل والجنوب والريف المغربي شعروا بغطرسة الاستعمار الفرنسي، الذي سمح لجيشه وأعوانه من الاستيلاء على أرزاق الجزائريين ومصادرة مزروعاتهم ومواشيهم وحيواناتهم بل وإفراغ مطاميرهم من مخزون القمح والشعير وبقية الحبوب الجافة قصد تهجيرهم وتخويفهم وتجويعهم.

وحرم أغلب القبائل الجزائرية من اللجوء إلى القضاء الاستعماري لاعتقاده أن حالة الحصار وتطبيق قانون الحرب وقانون الغاب هو الملائم لهذه القبائل، الخارجة عن القانون.

بل أملت غطرسة وظلم الاستعمار على قواته المحتلة إلى تجريد القبائل الرحل من خيامها ومن إبلها وأحصنتها لإذلال أحرارها وللزهو بقوته وجبروته خاصة في المواسم الباردة سنوات "1879، 1880، 1881" التي كانت قاسية عليهم وألحقت خسائر كبيرة بحيواناتهم تجاوزت 50 بالمائة منها.

وعندما يمس رزق وحيوانات القبيلة، فإن ذلك شرعا وقانونا يجيز اللجوء إلى حق الدفاع الشرعي عن كيانها، الأمر الذي فرض عليها شرعيا الجهاد ضد الفرنسيين الكفار لتخليص البلاد والعباد من ظلم الاستعمار.

3- سوء نية الحكومة الاستعمارية التي أفشلت كافة المشاريع الإصلاحية ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كإقامة بعض الجسور على الوديان ومد بعض الطرق الضرورية للمواصلات البرية بين الأرياف والقبائل، وحرمان الجزائريين من أبسط الخدمات الصحية.

وكذا مد وتطبيق المشروع الخاص بالسكة الحديدية عبر الصحراء في الجنوب الغربي المعلن عنه عام 1879 والذي لم ينجز بل على العكس من ذلك توغلت قوات الاحتلال إلى قصر تيوت الذي يقع بالقرب من زاوية بوعمامة، الأمر الذي رفضه الشيخ بوعمامة والقبائل المساندة له، لرفضها للسيطرة الاستعمارية .

كما أن سوء نية الاستعمار الفرنسية ورغبته المسبقة والمبيتة في إرهاب وقمع الجزائريين تسرع في إفشل عمل بعثة العقيد فلاترس "FLATRESSA" في مد طرق المواصلات في الجنوب وفي الشرق الجزائري أدى إلى إبادة قبائل التوارف في الجزائر، فانتهزوا فرصة ثورة الشيخ بوعمامة لانتقامهم الأعمى من السكان.

4- كما أن شخصية الشيخ بوعمامة التي أملت عليه اقتناعا دينيا ووطنيا بظلم الاستعمار وضرورة تخليص الجزائريين منه، خاصة وأن السنوسية والدرقاوية قاومتا الاستعمار في المناطق الصحراوية منذ مدة.وتزامن ذلك دعوة السلطان عبد الحميد والفقيه جمل الدين الأفغاني لضم كافة المسلمين ضد الاستعمار قصد التحرر والإصلاح ضد الفساد، الأمر الذي تأثر له بوعمامة كثيرا، وحرضه على الثورة ضد الاستعمار الفرنسي الظالم.

5- وإلى جانب الأسباب الداخلية، التي أشعلت مقاومة الشيخ بوعمامة هناك أسباب أخرى خارجية منها خاصة غزو فرنسا للقطر التونسي الشقيق في مطلع عام 1881 بعد أن رغبت في التوسع لقمع المسلمين وتنصيرهم، وزيادة ثروات الاستعمار ومعمريه، الأمر الذي شجع الشيخ بوعمامة والقبائل المساندة له على مهاجمة جيوش الاحتلال الجشعة، خاصة بعد أن خف عددها لتوجه أغلبها إلى الإقليم التونسي الشقيق.

6- غير أن السبب المباشر لثورة الشيخ بوعمامة فكان مقتل ضابط فرنسي برتبة ملازم أول، كان يشغل مهمة نائب رئيس المكتب الغربي بمدينة البيض ويدعى وانيرونر " aniroonr" يوم: 22 أبريل عام 1981 مع أربعة من حراسه بعد أن حاول اعتراض نشاط الشيخ بوعمامة وأتباعه من أمثل الطيب بن الجرماني ومرزوق السروري[1].

اندلعت ثورة الشيخ بوعمامة قبل موسم حصاد 1881 بعد أن حضر لذلك المزيد من الأسلحة والذخائر والمؤن وفي غفلة من السلطان الاستعمارية لاعتقاد الحاكم العام الاستعماري الجنرال ألبير قريفي "ALBERT GRIFI" بأن عهد الثورات قد ولى في الجزائر، لكون هذه الأخيرة صارت فرنسية.

ورغم أن عملاء فرنسا في الجزائر تعاونوا مع الاستعمار وأخبروه عن تحركات مشبوهة لمعارضين ينتمون إلى الشيخ بوعمامة ومساعده وأتباعه انتشروا داخل قبائل تراقي ورزاينة والأحرار والبيض أولاد الشيخ وقبائل فرندة وقبائل الغرابة وقبائل جبل لقصور وقبائل آفلو وفي مسيردة ثارت قبيلة لعنابرة "الشرفى" على جانب الشيخ بوعمامة الذي فلجأ الاستعمار الفرنسي بالثورة التي مرت بمرحلتين:

---

[1]- Wachi.p notes itinéraires et souscrire pour service l'histoire de la province d'oran, l'insurrection de BOU AMAMA (1881 - 1882 r.t 1904, p336).

الأغا والقيم على السلاح والحارس وحلاق الأغا والجراح. هذا على سبيل المثل لا الحصر[1].

تتواجد النوبات أوالحاميات في المدن الرئيسية، وهي مكلفة بضمان أمن المدينة أوالموقع المكلفة بحراسته، لكل نوبة قائد يعرف باسم آغا النوبة، ويُغيّر جنود النوبة كل سنة. كل انكشاري يعمل سنة في مدينة الجزائر وسنة أخرى خارجها ليستريح السنة الثالثة. وفي هذه الحالة الأخيرة يعرف باسم الكزورجي، أي في عطلة مؤقتة.

ويبقى في الثكنة في مدينة الجزائر، أين يستمر في استلام راتبه وطعامه كذلك، إن كان زبنطوطا. يمكن استدعاء الكزورجي في الحالات الاستثنائية[2].

نجد في منطقة دار السلطان، في أواخر العهد التركي، ثلاث نوبات هي : نوبة مدينة الجزائر، وهي أكبر النوبات على الإطلاق. تتكون من 345 انكشاريا عاملا وعددا مماثلا تحت التصرف وآخر في حالة العطلة المؤقتة ونوبتين حديثتين هما نوبتا تيزي وزوالتي كانت تضم 50 رجلا، انخفض عددهم سنة 1830 إلى 29 رجلا، ونوبة برج بوغني الذي أنشئ حوالي سنة 1723، وكانت تضم 100 إنكشاري، خفض عددهم سنة 1830 إلى 62 رجلا[3]. وإذا عدنا إلى ما ذكرناه سابقا، نجد أن الأتراك قد تخلوا عن نوبات برشك وشرشال ودلس. وفي بايليك الشرق، نجد مجموعة من النوبات لا يبلغ عدد أفرادها مجتمعين عدد أفراد نوبة مدينة الجزائر وحدها. هذه النوبات هي، في سنة 1830 : نوبة قسنطينة، بها 5 صفرات تضم 73 انكشاريا، نوبة عنابة، بها 5 صفرات تضم 71 رجلا، نوبة بسكرة بها 4 صفرات تضم 72 رجلا، نوبة بجاية، بها 3 صفرات

1- نفسه عدد 40 ص55.

2- فيدرمان وأوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 292 و 293.

3- نفسه.

تضم 44 رجلا، نوبة تبسة تتكون من صفرتين تضمان 29 رجلا، نوبة جيجل تتكون من صفرتين تضمان 29 رجلا، نوبة حمزة، تتكون من صفرة واحدة تضم 15 رجلا[1]. هذا وكان الأتراك قد أقاموا نوبة في المسيلة ثم تخلوا عنها، كما أقاموا أخرى في برج بوعريريج ثم تخلوا عنها، كما أقاموا أخرى في القل ثم تخلوا عنها أثناء تمرد ابن الأحرش. لعل أقدم نوبة في بايليك الشرق هي نوبة جيجل وقد أقيمت في القرن السادس عشر، مثلها مثل باقي نوبات بايليك باستثناء نوبة تبسة. لقد أقيمت هذه الأخيرة في وسط القرن السابع عشر، وذلك بطلب من سكان المدينة الذين كانوا يتناحرون في صفين، وكانت النوبة تتكون في البداية من 40 إنكشاريا[2]. كانت توجد في بايليك الغرب 5 نوبات سنة 1830، أكبرها هي نوبة وهران، وهي أحدثها تتكون من 10 صفرات تضم 156 رجلا[3]، تأتي في المرتبة الثانية بعد نوبة مدينة الجزائر. لا شك في أن الأهمية التي أعطيت لوهران ترتبط بكثرة القلاع والحصون التي تركها الاسبان وراءهم سنة 1792، وبأهمية وهران الإستراتيجية. باقي نوبات البايليك صغيرة، فنوبة مستغانم تضم صفرتين وكذلك نوبة زمورة، نوبة معسكر تضم ثلاث صفرات، ونوبة تلمسان تضم خمس صفرات[4]. تخلى الأتراك عن نوبات مازونة وتنس ومليانة سنة 1830. في إقليم بايليك التيطري، نجد نوبتين، نوبة المدية المتكونة من 5 صفرات، وتضم أكبر عدد من رجال الإنكشارية، ونوبة سور الغزلان المتكونة من صفرتين وتضم 30 إنكشاريا[5]. هذا بالإضافة إلى الجنود

---

[1]- نفسه ص 299.

[2]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 141 – 144.

[3]- فليسيت. المرجع السابق عدد 3 ص 120.

[4]- فيرو. مذكرات حول تبسة. المرجع السابق ص 441.

[5]- رين. مملكة مدينة الجزائر. المرجع السابق عدد 41 ص 349.

استهدفت جميع القبائل الصحراوية التي حشدت المزيد من الأسلحة والذخيرة والمؤن وأكثر من 3000 مجاهد بين فرسان ومشاة، حيث أعلن بوعمامة الجهاد على الفرنسيين وهزمهم في معركة سفيسفة جنوب عين الصحراء خسر فيها الاستعمار الفرنسي أكثر من 100 قتيل، وغنم المجاهدون كميات مهمة من الأسلحة والذخيرة والعتاد الحربي.

الأمر الذي دفع الجنرال كوينيون دانسي قائد ناحية معسكر إلى تحريك أكثر من 10 آلاف عسكري لجيش الاحتلال لمقاومة ثورة الشيخ بوعمامة، حيث وقعت معركة المويلك قرب قصور الشلالة بجبل قصور أفتك فيه جيش بوعمامة النصر من العدو رغم عدده وعدته، وقدّرت خسائر الاحتلال الفرنسي بأكثر من 60 قتيل وقرابة 50 قتيل في صفوف المجاهدين.

بعد الهزائم العسكرية التي ألحقها الشيخ بوعمامة ورجاله الشجعان بقوات الاحتلال الغاشمة، حاولت فرنسا تقزيم مقاومة الشيخ بوعمامة وأنصاره من أحرار الجزائر الذين كان هدفهم إظهار أن جيش الاحتلال يمكن إلحاق الهزيمة به وبالتالي قهره وتحرير الجزائر من ظلم الأوروبيين الكفار، والأوروبيين الصليبيين الزنادقة كما قهر في عدة مناسبات.

بعد ذلك لجأ الاستعمار إلى وسائل دعايته من منشورات وجرائد وأعوان لشن حرب نفسية ولحماية هيبة وقوة فرنسا لإبعاد كل النعوت ضدها ولإرهاب وتخويف الشجعان الذين سمتهم في وسائلها الدعائية بالخارجين عن القانون، ورد على ذلك الشاعر الشعبي محمد بلخير

مساند المقاومة بوعمامة وشجاعة الجزائريين ضد جنود الاحتلال على الوجه الآتي:

مقراني نبكي الجراح مهولين
بي فرقة وطني وعز الأوطان
رنا ضروك راس النجوع متنزهين
ما قعدوا في الذل إلا أصحاب بوران
ألي يبغي الجنة يضاد الكافرين
وألي بغي الهناء بغى التمزان
قولوا لعطاء الله واش كلفك يا حزين
ولاه تشمت فب آلي ما لداهم قران
لعبت بك الدنيا أيامها فانيين
ما أخيارتنا والاكلاب رحمان

ويقول أيضا :

أحنا مجاهدين ما هو قول ضعيف
تبعنا ما قال ربي في القرآن
وآحنا فزنا على العرب جيد وأشريف
وأفرح بينا الهاشمي شارع الأديان ... إلخ

ثم يضيف:

كذا من حد تنصره يصبح سلطان
رجال الله من توات إلى سطيف
رضوا على الشيخ سقام الفرسان ... الخ

ويتجلى من مضمون هذه الأبيات الشعرية الإشادة بسهام الجهاد في الإسلام لتحرير الوطن، وأن مصير المجاهدين الشهادة، والشهداء في الجنة.

علاوة على منزلتهم السامية بالمقارنة إلى العملاء والأعوان والخونة الذين باعوا أنفسهم للشيطان وخدموا الاستعمار وخانوا الإسلام ووطنهم.

والشيخ بوعمامة ما قام به ضد الاستعمار واجب إسلامي ووطني يؤهله للشهادة وللجنة لنصره الحق على الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

والحقيقة أن ثورة الشيخ بوعمامة أرهبت الاستعمار وأفزعت جموعه خاصة بعد أن اعتقد خاطئا أن الاستعمار الاستيطاني يمكنه تنصير الجزائريين إلى الأبد وإلحاق الجزائر لتصبح جزءا من فرنسا وأن عهد الثورات الشعبية قد ولى ومن ثمة تحقيق النصر على جيوش الاحتلال الفرنسي وعلى مكرها في الجزائر صعب.

لقد اتضح جيدا أن معركة "المويلك" كانت انتصارا لثورة الشيخ بوعمامة وهزيمة لجيش الاحتلال الفرنسي بدليل أصبح يتخوف ويتفادى قوات بوعمامة في الجنوب بفضل التوجه نحو التل ونحو الشمل للحفاظ على مرتزقة أوروبا الصليبية والخونة.

لقد قاوم الشيخ بوعمامة الاستعمار الفرنسي بذكاء خارق وتضحيات جسام مما حير خبراء جيش الاحتلال ونسجت حول شخصيته الكثير من الأساطير والغيبيات فقيل أنه كان يمر بجيشه بالقرب من قوات الاحتلال التي لا تراه وعندما تبحث عليه يصيبها العمى ولا تجده بل كثيرا ما كان الله يحميه بالضباب الكثيف والأمطار الغزيرة التي تجبر العدو على التوقف والاحتماء بخيمة خوفا على جنوده وأعوانه.

لقد اتبع الشيخ بوعمامة في مقاومته للاستعمار الفرنسي منهجية مدروسة وخطة محكمة عسكريا استخدم حرب العصابات بمجموعات صغيرة وفي عمليات سريعة، يهاجم العدو من الخلف ومن الأجنحة لكن لا يواجهه إلا إذا كانت أعداده محدودة.

اقتصادية يدمر مشاريع جيش وسلطات الاحتلال مثل قطع وإتلاف خطوط التلغراف والسكة الحديدية وطرق المواصلات ومراكز المراقبة والتجسس، ويدمر شركاته الفرنسية والأوروبية في مجالات عدة في قطاع الحلفاء والمناجم والمحاجر ومواقع التصدير للحبوب والخضر نحو فرنسا وأوروبا، يحرق مخازن الحبوب والتموين للعدو ولمعمريه.

كل ذلك بهدف تفويض أركان الاستعمار ومنعه من استغلال ثروات وخيرات الجزائر، لصالح فرنسا والأوروبيين المرتزقة.

إن انتصارات بوعمامة على جيش الاحتلال في عدة عمليات عسكرية ناجحة دفعت الكثير من القبائل حتى الأغواط وسطيف وتيارت إلى الانضمام إليه ومده بالسلاح والرجال والمال والمؤن نصرة للحق ضد الظلم ورفعا لراية الإسلام وعزة العرب رغم لجوء الاستعمار كعادته إلى تطبيق سياسة الأرض المحروقة ونسي أن العنف لا يولد إلا العنف وأن أفضل أساليب الحكمة هي العدل وعدم التمييز والعنصرية وعدم الظلم وترقية الإنسان أينما وجد لأن الله كرمه على سائر المخلوقات الأخرى.

لقد لجأ الاستعمار الفرنسي كعادته إلى أسلوب ما يعرف في الجزائر وفي كامل أقطاب المغرب العربي بتيهودية.

وتطبيق أسلوب "فرق تسد" بين القبائل خاصة تلك التي تساند الشيخ بوعمامة لتحطيم ثورته.

وبادرت قوات الاحتلال باستقدام جيوش كبيرة من فرنسا ومن تونس وخاصة جيش اللفيف الأجنبي والقومية لاحتلال أماكن تواجد قوات بوعمامة في البيض سيد الشيخ وعين الصفراء وبوقطب ومشرية.

• وخلال أوت 1881 وصل العقيد "دي نيفرييه" على رأس جيش كبير إلى قصور الأبيض سيد الشيخ الأربعة وعاث فيها فسادا مرتكبا

جرائم ضد الإنسانية في الجزائر، تقتيلا وتنكيلا وغصبا في الأعراض والعقيدة تنفيذا لأوامر سلطة الاستعمار في الجزائر وفي باريس في إطار سياسة الأرض المحروقة ضد المسلمين والعرب في الجزائر، جرائم استعمارية غير متقادمة، شنيعة يندي لها جبين الإنسانية.

بل وصل البغض الصليبي ضد كل من دعم وأشاد ثورة الشيخ بوعمامة إلى درجة الاستهتار والعجرفة بتفجير قبة سيد الشيخ كلية وحفر قبره لتدميره كرمز روحي للثورة والمقاومة ترتكز عليها الزاوية في تجميع الهمم للدفاع عن الوطن.

هذا المرتزق اللعين بالغ أكثر من سابقيه في الانتقام من مجاهدي وأتباع الشيخ بوعمامة لإرهاب وتخويف الجزائريين الذين أصبحوا لا يهابون من قوة الاحتلال بعد أن تأكدوا من إمكانية هزيمته وإمكانية طرده من بلاد الإسلام ومن وراء كل ذلك كان هدف هذا الضعيف الحصول على ترقية عسكرية من قبل رؤسائه وقادته لأنه كان يعرف أن ذلك لا يتم إلا بتقتيل وتدمير الجزائريين والوصول على أشلائهم لإفهام الأوروبيين أن الإنسانية وحقوق الأدميين في العيش وفي الحرية لا مفهوم لها إلا بالنسبة للأوروبيين داخل أوروبا وليس خارجها.

وأن مبادئ ثورة فرنسا الخالدة في المساواة والأخوة في الإنسانية ما هي إلا أسطورة وأكذوبة لتخدير الناس في المجتمع الدولي.

أكثر من ذلك قام اللعين دي نفيرييه وقوات احتلاله بعد تدمير الزاوية بحرق القصور الأربعة بما فيها من ثروات ومزروعات وخيرات انتقاما من الشيخ بوعمامة وأتباعه من العرب الجزائريين.

هذه الجرائم الشنيعة والغير المتقادمة حسب قواعد القانون الدولي رأى فيها الجنرال المجرم الفرنسي سوسي من خلال مراسلة له لوزير الحرب بباريس بتاريخ 18 جويلية 1881 الإجراء الضروري الاحتلال الفرنسي وتوفير الشعبية اللازمة لتواجده بالجزائر.

ونظرا للذكاء المستخدم من قبل الشيخ بوعمامة في الأعمال الحربية ضد الاستعمار الفرنسي فإن القوات الاستعمارية عجزت عن حماية أمنها ولم تعد تهتم بملاحقة وحداته بل اكتفت بالتجمع داخل المناطق المأهولة حماية لجنودها وعملائها وانتظار فرصة النقص الكبير في أسلحة وذخائر ومؤن وحدات الشيخ بوعمامة، لمعرفتها بمدى حاجته إليها ولعدم وصول هذه الاحتياجات من الأشقاء بالمغرب ومن الدولة العثمانية التي أضحت مريضة حتى سئم المسلمون من حالتها.

بينما فكر الاستعمار الفرنسي قصد الوصول إلى عزل مقاومة الشيخ بوعمامة بتطويق الجنوب الصحراوي الجزائري لمنع كل اتصال للمقاومة بالقبائل وأبعادها عن الثورة، فأمر الجنرال الفرنسي الذي كان يتولى جيش الاحتلال في منطقة البيض أولاد سيد الشيخ بالهجوم على منطقة عمور لترحيل السكان المسلمين منها إلى سهل الفجة بعد أن أحرق خيامهم وقتل العديد منهم ونهب أرزاقهم وحيواناتهم وصادر مواشيهم لإطعام عساكر الاحتلال ليجعلهم في نهاية المأساة تحت مراقبة جيش الجنرال المجرم كولونيو.

وفي هذه الفترة بالذات تدعمت مقاومة الشيخ بوعمامة بانضمام سي سليمان بن حمزة زعيم أولاد سيد الشيخ الغرابة على رأس 300 فارس جزائري، الذي مارس الكثير من الضغط والعنف والتخويف على القبائل المرتدة والموالية للاحتلال الفرنسي.

غير أن حشد الجيوش الفرنسية التي وصلت من وهران بأمر من الجنرال فار "FAR" وزير الحربية الفرنسي خلال سبتمبر 1881 وتوجيهها نحو الجنوب شكل ضغطا على ثورة الشيخ بوعمامة ودفعها إلى الانسحاب إلى المغرب الأقصى نحو منطقة فقيق.

ثم كانت معركة حامية الوطيس بين المقاومة تحت قيادة الشيخ بوعمامة وجيش الاحتلال بتاريخ 16 أبريل 1882 في شط تقري تحولت إلى ملحمة كبيرة تكبد الجانبان فيها العديد من القتلى والجرحى.

ومرة أخرى يتفوق بوعمامة والمجاهدون الجزائريون على جيش الاحتلال.

غير أن الاستعمار الفرنسي الذي يحترم العلم والخبرة ورأي الخبراء سرعان ما لجأ إلى الحيلة والخديعة للقضاء على مقاومة الشيخ بوعمامة باستمالة أولاد سيد الشيخ إليه وتفاوض مع سي قدور بن حمزة عن طريق بوحفص لغواطي خلال ماي 1883 م حيث توصلا الطرفان إلى اتفاق بينهما تضمن ما يلي:

أولا: تلتزم السلطات الفرنسية بإعادة بناء ضريح سيدي الشيخ الذي خربه الضابط الفرنسي "دي نيفرييه" في أوت 1881.

ثانيا: تلتزم السلطات الفرنسية بدفع تعويض سنوي بمبلغ 60 ألف فرنك فرنسي لسي قدور بن حمزة وأفراد أسرته عما صودر منهم عام 1864.

ثالثا: تمتيع سي قدور بقيادة كبيرة بالبيض وكذلك أفراد عائلته في مناصب أخرى تحت إشرافه.

رابع: يلتزم سي قدور وأفراد عائلته بإقناع قبيلة أولاد سيد الشيخ الموجودين بالمغرب الأقصى بالعودة إلى الجزائر[1].

هذا الاتفاق طبق من قبل الطرفين، حيث تم بناء الضريح ورجعت قبيلة أولاد سيد الشيخ إلى التراب الجزائري، وهدف الاستعمار الماكر

[1]- راجع: د. يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرن التاسع و العشرون، قسنطينة، دار البعث، 1980 ص: 266.

كان إفشال ثورة بوعمامة وإتمام احتلال الجنوب الجزائري كما خطط الاستعمار.

إن نتائج مكر الاستعمار الفرنسي في الجزائر حققت له ما لم تحققه جيوشه، بسبب غباوة أغلب القادة الجزائريين وتناحرهم على الزعامة والرياسة، ثم ذلك في مختلف مراحل المقاومة الجزائرية.

بينما كانت مقاومة الشيخ بوعمامة في مراحلها الأولى حتى عام 1883 أكثر صرامة وتصميما على تحرير البلاد والعباد من نير وظلم الاستعمار الفرنسي لأسباب عدة داخلية وخارجية كان أثرها فعالا على ثورة بوعمامة وجعلت مقاومته تفتر وتهدأ إما لخذلان الأشقاء والأتباع نتيجة الاتفاق المبرم في ماي 1883 بين سلطات الاحتلال وأطراف جزائرية والذي كان الهدف منه عزل مقاومة الشيخ بوعمامة عن شعبه وعن نواحي إسناده وبالتالي إفشال ثورته بالاستفادة من خدمات الانتهازيين وما أكثرهم في تاريخ البلاد.

وأيضا ساهمت إلى درجة كبيرة المواقف السلبية لسلطات المغرب الذي ظل يلتزم بأحكام معاهدة طنجة التي حتمت عليه الامتناع عن تدعيم الثوار الجزائريين، سواء تعلق الأمر بالأمير عبد القادر أو آخرين غيره تحت طائلة معاقبته وزجره.

كما أن عامل توقف إمداد الشيخ بوعمامة بالسلاح وبالذخيرة والمؤن عقد من وضعيته في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.

كل ذلك أدى إلى استقرار الشيخ بوعمامة وأتباعه بفقيق خلال جويلية 1883، الأمر الذي أثار مخاوف السلطات الفرنسية في الجزائر اتجاه هذا المقاوم المحنك الذي اكتسب كثيرا من التجارب في صراعه النضالي والثوري ضد الاستعمار الفرنسي الشرس، بوعمامة الذي ظل مصمما على مقاومة الاستعمار مهما كانت الصعوبات.

بينما لجأت سلطات الاستعمار الفرنسية في إطار إيمانها الاستراتيجي أن الوقاية خير من العلاج وبناء على رأي أحد مجرميها الجنرال سوسي العاملين في المنطقة الصحراوية إلى ضرورة ضغطها على السلطان المغربي ليقوم بطرد الشيخ بوعمامة وأتباعه من المجاهدين من فيقق ما دام هذا الأخير يعتبر خطرا دائما على التواجد الفرنسي في الجنوب الوهراني[1].

السر الذي بلغ إلى الشيخ بوعمامة الذي خرج مع أتباعه في اتجاه "قورارة" واستقر فيها مع نهاية سنة 1883 إلى غاية 1884 خلال الفترة أسس زاوية وعلم القرآن والسيرة النبوية وحسس المواطنين بخطورة الاستعمار الفرنسي على الإسلام والمسلمين وحثهم على الجهاد في سبيل الشهادة من أجل حرية العقيدة والوطن .

كما راسل الحكام الفرنسيين في الجنوب وطلب منهم أن يسلكوا طريق السلم والأمن والصلح بين المسلمين وأن يعملوا على ترقيتهم وتوفير الأرزاق.

خلال هذه الفترة وحتى عام 1888 سعى بوعمامة إلى تشكيل مقاومة أخرى، بعد أن تخلت عليه قبيلته لبيض أولاد سيد الشيخ بتعويضها بأتباعه من مجاهدي غرداية والتوارق وقبائل أخرى مغربية منها أولاد جرير وأولاد منيع، مقابل ذلك عملت السلطات الفرنسية من خلال ذكاء أحد جنرالاتها المجرمين في الجنوب الوهراني المعروف بـ توماسين "TOMASSINE" إلى مد نفوذها إلى الصحراء بشراء ذمم شيوخ وزعماء القبائل لإنهاء حالة الحرب وذلك بمنحهم المزيد من الاستقلال الذاتي في إطار تنظيم محكم شبه عسكري كأداة استعمارية تجابه الثوار وتعزلهم عن شعبهم.

---

[1]- مضمون برقية الجنرال سوسي بتاريخ: 1883/09/11 "MDF".

فبعد أن زرعت السلطات الفرنسية عدة حصون ومراكز عسكرية في البيض وتيارت والمسيلة والأغواط وبوسعادة وغرداية والواحات الحدودية وحصن القليعة وربط كل ذلك بمواصلات برية من طرق وسكك حديدية في نهاية عام 1888 لضمان سلامة وأمن الجنوب الجزائري وعزل وطرد الشيخ بوعمامة.

لكن السلطات الفرنسية التي لجأت إلى تطبيق أسلوب الأمان والسلم الهادئين في تعاملها مع القبائل لإدماجها في التبعية الاقتصادية لم تتخل عن مطامعها في التوسع في أقصى الجنوب الجزائري كالسطو على عين صالح التي وصفت بملجأ الثوار من قبل عيون الاستعمار.

أما الشيخ بوعمامة وأتباعه فظل يقضا من عروض السلطان المغربي عام 1892 بالانتقال إلى فقيق والإقامة بزاوية مغرار القريبة منها لحماية مجالها ضد أطماع الفرنسيين.

بينما سعت السلطات الفرنسية إلى مسالة الشيخ بوعمامة وأتباعه لإفساد المجال أمامها للتوسع أكثر نحو الصحراء.

وحسب الوثائق الفرنسية المحفوظة في الأرشيف بالمكتبة الوطنية بباريس فإن المقاوم الثوري بوعمامة قطبا صالحا اكتسب ثقة سكان الصحراء وأغلب قبائلها لاعتماده الإصلاح والأمن كهدف للمسلمين في مقاومتهم للاستعمار المعتدي، الغاشم على عقيدتهم، الإسلام وعلى حرياتهم الغير المتنازل عليها بل والغير القابلة للتنازل وعن وطنهم الجزائر الذي لا وطن غيره.

لذلك صار الشيخ بوعمامة محل محبة القبائل ومحل جذب بين السلطتين الفرنسية والمغربية، كل منهما يسعى إلى ربحه للحفاظ على مجاله الحيوي.

وفضل الاستقرار خلال عام 1895 بعرق مقيمن بالجنوب ثم بالجوع التحتاني خلال ماي 1896 بالقرب من منطقة فقيق.

والملاحظ أن قطب فقيق ظل يجذب الشيخ بوعمامة وأتباعه للعلاقة الدموية ولأسباب لا يعلمها إلا هو والله الذي لا تخفى عليه خافية.

وتجدر الإشارة أن جيش الاحتلال وسلطاته رغم تخوفها منه وكذلك السلطات في المغرب كلاهما تفادا مهاجمة الشيخ بوعمامة وأتباعه في منطقة فقيق.

والأقرب إلى المعقول أن ذلك يبرره السلوك السلبي للشيخ بوعمامة اتجاه الاستعمار الفرنسي طيلة أكثر من عشر "10" سنوات والعلاقة الطيبة التي كانت تربط الشيخ بوعمامة بالسلطان المغربي. وتأكيد ولاء الشيخ للسلطان للاستفادة من تعاونه ومساعدته.

بعد عام 1896 بدأ الشيخ بوعمامة يستعيد قوته وحيويته رغم تقدمه في السن وثقل وقع الإحباط على نفسيته وشخصيته من جراء الخيانات والانتكاسات بين الأشقاء والخصوم الوطنيين.

بدأ بجمع إمكانياته وحضّر أتباعه من المخلصين الذين لبوا دعوة الجهاد وسعى إلى إقناع المتخاذلين من أبناء جلدته الذين لمت بهم المهانة والردة أو الخذلان بالحجة والإقناع، تطبيقا لقاعدة "لا إكراه في الدين" لقد أصبح الشيخ بوعمامة المجاهد مصلحا وداعيا إلى الإحسان والخير والجهاد ضد العدو الكافر، لكن دون ترهيب ولا عنف، ربما لأن قوته الحربية لم تعد تخيف أو لأنه أصبح لا يجوز له إلا مقاومة الاستعمار فقط لقد عمل على تطهير صفوف المقاومة، ونظم رجالها فصارت مشكلة من مجموع 500 فارس وقرابة 1500 مشاة وأكثر من 150 مهري.

وزاد في همته مبعوث من سلطان القسطنطنية وحامي الحرمين الشريفين ومبعوث آخر من سلطان المغرب مولاي عبد العزيز، اللذان حملا رسائل اعتراف منهما بخلافته على الصحراء الجزائرية، الأمر الذي

عزز من موقفه السياسي والشرعي وزاد مقامه أمام القبائل التي تساننده ضد الاستعمار الفرنسي.

لكن عين الاستعمار لم تنم قط ما دامت خططه في التوسع نحو الجنوب قد تعرقل من قبل الشيخ بوعمامة زعيم المقاومة ضد الأوروبيين المعتدين في الجزائر، الأمر الذي دفع الوالي العام للسلطات الفرنسية "لا فريان" "LAVIRIAN" في الجزائر خلال أكتوبر 1899 إلى منح الشيخ بوعمامة الأمان التام بدون أي شرط أو قيد [1] وكان هدف الاستعمار ربح الوقت لإتمام مشاريعه التعميرية في الجنوب وخاصة إتمام الخط الحديدي بالجنوب تطبيقا لتعليمات السلطات الفرنسية في باريس.

ورغم دعوة الحاكم العام الفرنسي خلال عام 1900 إلى لقاء الشيخ بوعمامة، فإن هذا الأخير رفض لمعرفته الجيدة بأطماع الاستعمار وأهدافه في التوسع.

ونظرا لسن بوعمامة ولانعكاسات الإحباط الذي ألم به تاريخ عقد الاتفاق بين سي قدور ولاد حمزة شيخ أولاد سيدي الشيخ في أوت 1881 فقد فضل الرجوع إلى المغرب ناحية وجدة والاهتمام بالإصلاح والوعظ وتعليم القرآن والسنة المحمدية ومسائل أخرى داخلية، مما أراح الاستعمار الفرنسي كثيرا عن تعب ومشاق مطاردة مقاومة الشيخ بوعمامة وأتباعه خلال أكثر من ربع قرن.

والراجح حسب رأي الكثير من أهل الخبرة التاريخية أن انعكاف وانصراف الشيخ بوعمامة إلى المغرب لا يبرره إلا اتفاق بين المعنيين فرنسا والسلطان المغربي وموافقة الشيخ، خاصة بعد أن وصل جنرال فرنسي لا يقل إجراما عن سابقيه هو ليوتي المعروف بخبثه وسمومه.

---

[1] - de la martiniére, et n. la croix tome – 2 lille 1896 – p M 102.

وفي المغرب ظل الشيخ بوعمامة يعاني من الحسرة والإحباط بين وجدة وعين سيدي ملوك في غياب الأتباع إلى أن وافته المنية في السابع من أكتوبر 1908 "رحمه الله" ورفاته الطاهرة تنتظر اليوم العودة إلى أرض الوطن، فأين حامي العزة والكرامة في بلادنا.

مقاومة الشيخ بوعمامة استندت على أسس عقائدية ودينية وعلى اختلاف مقومات الهوية والشخصية بين المستعمر والمستعمر، الكافر والمسلم.

ركنها الزاوية والكتاتيب والقرآن الكريم والسنة المحمدية والورع والتقي وطلب الشهادة من أجل تحرير الوطن.

مقاومة عقائدية، سياسية لنصرة الإسلام والعروبة من خلال الجهاد المقدس للنضال المسلح ضد الاستعمار الفرنسي المعتدي.

شخصية بوعمامة القوية كانت تتمتع بالشجاعة والإقدام والذكاء، صفات سمحت للمقاومة بالتعمير لمدة أكثر من ربع قرن وتحدت أغلب جنرالات الاستعمار، رغم قوته وجبروته .

ويعود الفضل لذكاء المقاوم الشيخ بوعمامة الذي تحدى الاستعمار ومؤامرات وخيانات الأشقاء لمدة طويلة ولم يهزم ولم يقع في الأسر.

مقاومة الشيخ بوعمامة تعتبر من أعنف الثورات التحريرية بالجزائر بعد ثورة الأمير عبد القادر التي انتكست بسبب خيانة الأتباع والأشقاء، وعروشية المجتمع الجزائري.

عمرت مقاومة الشيخ بوعمامة من 1881 إلى 1908 بفضل استنادها على أسس عقائدية وبفضل مساعدة وحماية السلطان المغربي الذي رأى فيها امتدادا ومجالا لعرشه.

واستطاعت تحدي جنرالات الجمهورية الفرنسية الثالثة.

ولولا التفوق الحربي التعبوي والتقني لجيش الاحتلال وحاجة المقاومة إلى السلاح والذخيرة والدعم اللوجيستيكي لوصل الشيخ بوعمامة إلى ما وصل إليه الأمير عبد القادر في تكوين دولة وطنية.

غير أن خيانات الأتباع وخذلان الأشقاء وقوة فرنسا العسكرية حالت دون ذلك.

وعلى سبيل التذكير عن عظمة الثوار الجزائريين في كفاحهم ضد الاستعمار الفرنسي وعن أهم المعارك التي قاموا بها خلال القرن 19 الميلادي قصد طرد جيوش الاحتلال من الجزائر .

فقد أورد البعض 2000 معركة، دون ذكر الاشتباكات الخفيفة .

وذكر رين أكثر من 340 معركة تحملت وزرها عائلة المقراني وعائلة الحداد، شارك من خلالها أكثر من مليون مجاهد جزائري بنضاله المسلح ضد العدو.

بينما ساهم الاستعمار الفرنسي بأكثر من مليونين عسكري في مختلف اعتداءاته على الشعب الجزائري علاوة على مختلف الدعم الذي تلقاه من الدول الأوروبية والمعمرين والأعوان الخونة والتي يتجاوز تعدادها المليونين.

ورغم الآثار السلبية التي تخلفها كل ثورة جزائرية، فاشلة من آلام وحسرة وإحباط كان الاستعمار ينتقم من الثوار ومن السكان دون رحمة ولا شفقة، متجاهلا كل الأعراف الإنسانية والأخلاقية.

فكثيرا ما كان يصادر الأراضي والممتلكات بعد كل ثورة جزائرية فاشلة مثل ما حصل بعد استسلام الأمير عبد القادر عام 1847 أكثر من مليون ونصف أراضي خصبة وكمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة وأكثر من مليون راس من المواشي والأبقار والخيول، ونفس الأمر كان بعد طرد أحمد باي قسنطينة عام 1837.

وأيضا بعد استسلام آل المقراني عام 1872 وآل الحداد، ويكفي الجزائريين فخرا أنهم ضحوا من أجل الوطن.

وأكثر من تلك توبع أغلبهم أمام محكمة الجنايات الفرنسية، بعد أن اعتبرهم الاستعمار مجرمين وخارجين عن القانون.

وقضاء العدو الفرنسي الصليبي اتجاه المسلمين هو الآخر لم يعرف الرحمة ولم يراع سن الشيخ الحداد الذي تجاوز 83 سنة إذ حكم عليه بخمس سنوات.

والذي خاطب القضاء الفرنسي "إنكم تحكمون علي بخمس سنوات لكن الله سيحكم بخمسة أيام".

وحكم على ابنه الأكبر سي أمحمد بعشر سنوات، أما أخوه سي عزيز، فقد حكم عليه بالنفي من الجزائر بينما كان الإعدام في حق القائد الثائر بومزراق، حتى قال البعض عنه أنه كان محكوما عليه قبل المثول أمام محكمة العدو.

ومصير القائد أوقاسي وقريبه محمد أمقران، بعثا بهما إلى كاليدونيا الجديدة .

إن سياسة فرنسا وبطشها العسكري وقمعها القضائي لم تعبر إلا عن الانتقام والوحشية ضد المسلمين في الجزائر، انتهجت سياسة خاطئة بدل التمدين، التهديم، وبدل التعليم، التجهيل وبدل تنمية أهالي الجزائر عملت على تجهيلهم وتفريقهم وتهجيرهم لتسكين المعمرين والأوروبيين من المغامرين والبطالين وأصحاب السوابق في أوروبا.

الخاتمة

إن نظام الحكم في أيالة الجزائر التركية بدءا من عام 1671 طلب عليه الفساد الأخلاقي والاقتصادي والاجتماعي هيمن فيه العنصر التركي، وتم فيه مصادرة أخصب الأراضي ونهب ممتلكات وأرزاق المواطنين الجزائريين.

استبد الحكام الأتراك متسترين بحماية الإسلام والمسلمين من الأعداء في الداخل وفي الخارج، لكن مبدأ النهي عن المنكر والأمر بالمعروف غلب في حسبانهم.

ونتيجة إهمال الإدارة التركية في الجزائر للتعليم والإرشاد الديني والعلمي انتشرت الزوايا والطرقية بغرض الإصلاح لكن نظام الإدارة التركية في الجزائر لسوء نية حكامه تعفن ومال إلى الشعوذة وتجهيل الشعب المغلوب على أمره.

الأمر الذي قوى وضاعف من أطماع فرنسا ودول أخرى أوروبية في النيل من سيادة الجزائر وكرامة شعبها وكانت ديون الجزائر على فرنسا وأطماع هذه الأخيرة في ثرواتها دافعا قويا للتخطيط على احتلالها تحت تبرير القضاء على قرصنة وإرهاب البحرية الجزائرية.

وبالفعل تم ذلك خلال جوان 1830 في إطار الغزو الفرنسي لتدعيم المسيحية والتوسع الأوروبي.

وأيضا إعطاء درس للمسلمين في الجزائر ثم في دول إسلامية أخرى مثل تونس والمغرب وغيرها.

إن السلطة والحكم تكليف وليس تشريف، وخدمة للأمة وليس لنهبها والهيمنة عليها كما فعل الأتراك في الجزائر.

ومما لا شك فيه أن دوري التاجرين الماكرين بكري وبوشناق هو نصب فخ الديون وتحريض فرنسا على الاحتلال للجزائر، لم يكونا بمنأى

عن المؤامرة خاصة بعد أن رحب اليهود بهذا الاحتلال في أكثر من مناسبة صحيح أن مسؤولية الاحتلال مردها إلى إهمال وتقصير الإدارة التركية في عدم ترشيد وإعداد العدة في الجزائر لمواجهة كافة الأطماع الأجنبية خاصة إدارة الدايات كانت عالمة بهذه الأطماع منذ مدة طويلة بل وكانت تعرف الكثير عن كراهية فرنسا وصليبيتها بل وتخطيطها الحربي لتنفيذ الاحتلال في الجزائر.

لقد كان في مقدور الأتراك في الجزائر لو حسنت نيتهم بخدمة العباد والبلاد أن يعلموا الشعب الجزائري ويطوروه ليحافظوا على مناعته عسكريا واقتصاديا ولا يتركوا ميزان القوة يميل علميا وعسكريا لصالح العدو الأوروبي الحاقد على الإسلام والمسلمين.

اتضح ذلك بعد معركة نافارين عام 1827 التي دمر فيها الأسطول البحري الجزائري، بعد أن تنقل إلى دعم الدولة العثمانية التي كانت تحتضر.

الحادثة المؤلمة التي كشفت النوايا والأطماع اتجاه الجزائر، وكشفت طبيعة الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي الصليبي.

والنتيجة عانت الجزائر طيلة فترة الاستعمار الفرنسي القهر والمهانة والإحباط والجاعة من جراء تقتيل وإرهاب سلطة وجيوش الاحتلال، ولم يعرف الجزائريون إلا المجازر والمقابر الجماعية والتهجير والنفي والاغتصاب وأصبح عزاؤهم الوحيد الصبر والإعداد للثورة لأن الله يمهل ولا يهمل.

وكانت مقاومة الأمير عبد القادر وطنية، عربية وإسلامية، لقيت عدة دروس للاستعمار الفرنسي في الجهاد والتضحيات الجسام من أجل تحرير الوطن والعقيدة.

على الرغم من مكر العدو الذي كان يمارس البطش والقهر وأيضا المناورات والمراوغات لتضليل المواطنين أنه لم يدخل الجزائر إلا قصد تأديب الإدارة التركية في الجزائر وليس احتلالها والانفراد بخيراتها.

وكانت الروح الثورية الجزائرية بالمرصاد، هذه التي لم تعرف الملل منذ الحملات الفينيقية واليونانية والرومانية، بل ازدادت شحنا وقوة مع الأيام، فالأمير عبد القادر حمل لواء الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي واستطاع توحيد القبائل الجزائرية نحو تحرير الوطن، بل وأرغم الفرنسيين على الاعتراف بدولته في أكثر من مناسبة.

واعتبر بحق أول من كون دولة وطنية ذات جيش منظم، واهتم فيها بقطاع التعليم لأهميته ولأن الشعب المتعلم لا يستغل، وأكثر من المكتبات والمساجد لنصر العلم والإسلام.

لقد امتاز الأمير عبد القادر من خلال مقاومته للاستعمار الفرنسي في الجزائر بربطه الجهاد ونكران الذات بتحرير الوطن الجزائري أي الوصول إلى وحدة الشعب الجزائري ووحدة ترابه الإقليمي.

واستطاع بفضل حنكته السياسية وخبرته العسكرية وذكائه قهر أكبر الجنرالات الفرنسية من أمثال تريزل الذي ألحق به هزيمة نكراء سماها بمأساة المقطع قضت على ربع جيشه وأدت إلى انهيار معنويات الجيش الفرنسي في الجزائر، التي كتب عنها الجنرال لاموريسيار بقوله: "إنها حالة مؤلمة للغاية".

إن معركة المقطع صارت صفحة مضيئة في تاريخ الوطن وزادت من نفوذ الأمير عبد القادر ولم ينسيها إلا تعيين السفاح المارشل كلوزال

الاحتياطيين من الزبنطوط الذين يشكلون فرقة نخبة متشكلة من الرجل الذين تأقلموا مع الحرب وتعودوا على أتعابها، وهم تحت تصرف الباي. وكان عددهم في عهد آخر البايات بومزراق، ما بين 120 و130[1]. كان هؤلاء الزبنطوط يقيمون في البرواقية.

تخضع الحاميات للأوامر المركزية، فلا يمكن للبايات استخدامها إلا في الحالات الاستثنائية، بعد الحصول على موافقة العاصمة. بهذه الوضعية تضمن الحاميات للسلطة المركزية قوة ضاربة في البايليكات". عندما يريد الباشا عزل البايات، يرسل تعليماته إلى آغا المركز أوآغا الحامية.. فيضع حدا لسلطته ويلقي عليه القبض في بعض الأحيان إلى أن يأتي خلفه، وذلك مخافة أن يهرب"، كما يقول حمدان خوجة[2].

ثكنات الانكشارية في مدينة الجزائر:

تتمركز الإنكشارية العاملة في النوبات أوالمحلات أوالتي هي في حالة الاستراحة في مدينة الجزائر. كانت تسكن ثكنات أودورا عديدة في هذه المدينة. كل ثكنة مقسمة إلى غرف أومراقد تأوي الجنود. كل مرقد يملك عقارات يسيرها وكيل يعين من طرف جماعة المرقد. هناك مراقد فقيرة ومراقد غنية، ويعود هذا الاختلاف إلى كون أعضاء المراقد يقدّمون هبات من العقارات إلى رفاقهم القدامى لما يبلغون درجة راقية في المسؤولية، فتكون النتيجة أن مراقد لها عقارات عديدة ومراقد لها القليل من العقارات[3].

ثكنات الجزائر هي بلب عزون أو"دار الإنجشارية متاع اللبلانجية"، أو الثكنة الكبيرة، وهي أهم الثكنات، يُعتقد أنها بُنيت سنة 1548. كان

---

[1]- نفسه عدد 42 ص 5 و9.

[2]- نفسه عدد 41 ص 136.

[3]- فيدرمان ولوكابيتان. المرجع السابق عدد 11 ص 297.

يسكنها الجنود العزاب وكانت موطن التمردات الدائمة. سكنها عدد كبير من الدايات والموظفين الكبار، قبل توليهم مسؤولياتهم. ثكنة الخراطين الواقعة في طريق الخراطين، وكانت تعرف باسم الطريق الذي تقع عليه : "دار الإنجشارية متاع الخراطين"، يُعتقد أنها أقدم الثكنات وأنها بُنيت في عهد خير الدين. ثكنة المَقرون التي بنيت في عهد علج علي (الفرطاس) وقد اختلف اسمها من وقت لآخر، من المقرين إلى المقريين إلى دار المقرون، كما اختُلف في نسبة اسمها. يقول البعض أنها سُميت كذلك لأنها كانت مسكونة من طرف شيوخ الإنكشارية الذين كانوا يعتمدون في غذائهم على المكرونة. ثكنة القناصل أو"دار الإنجشارية متاع الدروج أومتاع الدواميس". ثكنة أسطة موسى، نسبة لأسطة موسى الذي يُنسب إليه بناء قناة الحامة، وكان يسكن هذه الثكنة، كما سميت باسم "دار الإنجشارية متاع التزيرة" لأنها قريبة من باب البحرية. الثكنة القديمة والثكنة الجديدة، وكان انكشاريوهذه الأخيرة يعرفون باسم (دايلرن) أوأهل الخير[1].

يُضاف إلى هذه الثكنات (دار النحاس) أودار البارود و(دار الخل) التي كان يُسجن فيها الأتراك ويُشنقون بعيدا عن أعين الأهالي. لما نُقل مقر الحكومة إلى القصبة استُعملت دار أخرى سجنا للعسكريين وهي دار سركلجي التي سماها الفرنسيون بربروس[2].

الصبايحية:

يقسم الصبايحية، وهم جنود خيالة، إلى صبايحية أتراك وصبايحية أهالي يذكر هايدو، في أواخر القرن السادس عشر، أن الصبايحية من الأتراك يتواجدون في دار السلطان وفي البايليكات. يلازم صبايحية دار

1- حمدان. المرجع السابق ص 141.

2- لوميرات. المرجع السابق ص 329.

على رأس جيش ضخم وظالم لم يعرف عنه إلا إجرامه ورغبته في التوسع الاستعماري في الجزائر.

ولـو لا خيانـة بعـض شيوخ القبائـل مـن أمثـل ابـن المخفـي، والغماري والمزاري، ومصطفى بن اسماعيل والطيبي لكان النصر في صالح دولة الأمير ومجاهديه، ولرجع الصليبيون من حيث أتوا.

لكن كثرة الخيانات أحيطت بإرادة وهمة الأمـير في مجابهـة العـدو رغم حنكته وعلمه وخبرته الحربية التي حازهـا مـن خـلال صـراعه مـع العدو.

العدو الذي أحكم الحصار حوله وسـد جميـع الأبـواب في وجهـه، وحرمه من إمداده بالـسلاح والـذخيرة والمؤن فكـان استـسلامه، لكـن مقاومة الشعب الجزائري لم تتوقف، بل حمل لواءها أحمد باي في الـشرق الجزائري ...

الذي ينحدر من أصل تركي، ودفاعا عـن ممتلكاتـه الكـبيرة الـتي كونها في عهـد الإدارة التركيـة أبـى إلا أن يقـاوم الاسـتعمار الفرنـسي ويدوخه حبا في السلطة وفي الجاه وليس دفاعا عن مصالح الأمة الجزائرية، هذا المصطلح لا يؤمن به ولأن اعتقـاده أن الجزائـر مجـرد أيالـة تركيـة لا غير، وهو ما يبرر عدم تعاونه مع دولـة الأمـير عبـد القـادر لاعتبـاره أن الأمير عبد القادر عربي وجزائري لا يمكـن تخويلـه الـسلطة ولا الإمـارة لأنه ليس تركيا.

صحيح أن المارشـل قالي الفرنسي أقر بذكاء أحمد البـاي وصـفاته القيادية ولكن اعترف بضعف شـعبيته لأنـه لـيس جزائريـا في الأصـل، وكم من مرة شكك في ولاء القبائل العربية له.

ورغم أن أحمد باي قاد المقاومة في قسنطينة بروح عالية، وإصرار على التضحية فإن كل ذلك لم يكن في الحقيقة إلا دفاعا منه على ممتلكاته العديدة وأولاده الذين يحبهم وكان على استعداد أن يضحي من أجلهم ولولا خيانة البعض من أبناء جلدته وحكمة وخبرة جنرالات الجيش الفرنسي من أمثال : تريزل ولامي وهولد ودي فلوري ولاموريسيار ودازيمون وقالي الذين تضامنوا على قهره واقتحام أبواب وأسوار قسنطينة عام 1837.

لما عرف الانسحاب نحو الجنوب، ورغم القوات الكبيرة لجيش الاحتلال والإمكانيات المتواضعة للمجاهدين فإن الروح الوطنية العالية في المقاومة بين الجزائريين في الشرق الجزائري التي أدهشت الاستعمار الفرنسي وأربت صفوفه، غير أن الظروف عاكست الشعب الجزائري الأبي فكان الاحتلال وكان البطش الاستعماري البغيض.

ومع ذلك فإن شعلة الروح الوطنية ظلت ملتهبة منذ عام 1848 م وحتى نهاية القرن 19 ميلادي في شكل مقاومات وانتفاضات وطنية لكنها متواصلة كان أعنفها مقاومة آل المقراني وآل الحداد وأتباعهما.

ثم كانت مقاومة لالا فاطمة نسومر والشريف بوبغلة في منطقة القبائل الباسلة، وشيوخ أولاد سيد الشيخ وقبائل مسيردة ولعنابرة عام 1864 وانتفاضات الأوراس وقبائل الطوارق عام 1865م.

وأعنفها المقاومة الشجاعة للشيخ بوعمامة علم 1881 التي هددت أغلب وحدات جيش الاحتلال في الغرب الجزائري وحتى أقصى الحدود المغربية.

ورغم استخفاف الفرنسيين بكل ما هو جزائري كعادتهم كما يستخف الألمان بهم فإن بطشهم وشراستهم وحقدهم وضغينتهم كانت

هي سلوكهم في مواجهة هـذه الثـورات والمقاومـات والانتفاضـات الـتي عبرت جميعها عن رفض الجزائريين للاستعمار الفرنسي واعتباره جـسما غريبا في ديار الإسلام.

جميعها بينت أن روح المقاومة لدى الشعب الجزائري رغم التقتيل والإرهاب والإبادة، والتي تركت آلاما عميقـة في ذاكرتـه لم تـزده إلا إرادة وتصميما على مقاومة الاستعمار حتى تحرير الوطن.

لقـد فقـد الجزائريـون خـلال القـرن 19 المـيلادي في مقـاومتهم للاستعمار الفرنسي أكثر من خمسة ملايين شهيد لكـن كـل ذلـك كـان هينا من أجل استعادة السيادة الوطنية وحماية عقيدة الإسلام.

المراجع والمصادر

باللغة العربية

• أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية، دراسة تاريخ، 1957 دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

• الزبير سيف الإسلام، ثورة المقراني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 م.

• إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر.

• أبو القاسم سعد الله أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر.

• أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية "1830 – 1900" الجزء الأول، ط 1 دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1992.

• الملتقى المغاربي الأول، المصادر والمراجع العربية لتاريخ الجزائر "1830 – 1962" طبع ديوان المطبوعات الجامعية".

• مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج: 3.

• محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، دار النشر بقسنطينة 1985.

• محمد العربي زوبيري، مذكرات أحمد باي.

• مولود قائد المقراني، دار الأندلس، الجزائر 1993.

• ديحي بوعزيز، دور عائلتي المقراني والحداد في انتفاضة 1871، رسالة دكتوراه 1975.

• ديحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، ج: 2 منشورات المتحف الوطني 1996.

• صاري الجيلالي،انتفاضة 1871– 1872 الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر.

• طاهر أبو صديق، حركة انتفاضة 1871 "م.س.ذ".

- جان بول سارتر، عارنا في الجزائر، ترجمة عايدة وسهيل الادريس، ط: 2 دار الأدب، بيروت – لبنان 1958 م.
- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبر القادر، دار اليقضة العربية، بيروت، 1964.
- مصطفى طلاس، الثورة الجزائرية، دمشق، 1984 م.
- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحيلة، بيروت 1965 م.
- عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة 1881 – 1908، الجزائر 1981.
- جماعة من المؤلفين العرب، الموسوعة العسكرية، الجزء الأول، بيروت، 1981م.

- جان بول سارتر، عارنا في الجزائر، ترجمة عايدة وسهيل الإدريس، ط : 2 دار الأدب، بيروت – لبنان 1958 م.
- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبر القادر، دار اليقضة العربية، بيروت، 1964.
- مصطفى طلاس، الثورة الجزائرية، دمشق، 1984 م.
- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحياة، بيروت 1965 م.
- عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة 1881 – 1908، الجزائر 1981.
- جماعة من المؤلفين العرب، الموسوعة العسكرية، الجزء الأول، بيروت، 1981م.

باللغة الأجنبية

- أوجان فرمنتان، صائفة في الصحراء، باريس، مكتبة بيلوط : 38، 1924 م.
- ايميل نويلي، البلاط العربي أمام محكمة قسنطينة، باريس 1873 م.
- الجنرال بول أوساريس، المصالح الخاصة في الجزائر "1955 – 1957" باريس – فرنسا بيران 2001 م .
- الجنرال تروس، عصيان بوعمامة "أفريل 1881"، باريس، 1905.
- رين لويس، الزوايا والإخوان، دراسة حول الإسلام في الجزائر، 1884.
- فورست لويس، تجنيس يهود الجزائر وانتفاضة 1871، دراسة تاريخية، باريس 1896 م.
- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ماسبيرو، باريس 1965 م.
- شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير.
- شارل أندري جوليان، تاريخ الجزائر المعاصر ج : 2.
- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر "بالإنجليزية".
- شارل روبير اجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، "1871 – 1919"
- شارل روبير أجرون ، تاريخ الجزائر المعاصر 1994.
- كلود ملرتان، تاريخ الجزائر الفرنسية، الجزء الأول.
- فرانز فانون، معذبو الأرض، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990 م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الفصل التمهيدي	7
الفصل الأول مقاومة الأمير عبد القادر........................	143
الفصل الثاني مقاومة الحاج أحمد باي	163
الفصل الثالث مقاومة حمدان بن عثمان خوجة........................	189
الفصل الرابع جهاد الزيبان والأغواط والأوراس........................	197
الفصل الخامس جهاد القبائل 1846-1857........................	203
الفصل السادس جهاد أولاد سيدي الشيخ 1864-1880م.........	209

الفصل السابع مقاومة المقراني........................	215
الفصل الثامن مقامة الشيخ بوعمامة 1881–1904م............	261
الخاتمة..	283
المصادر والمراجع.............................	291
فهرس الموضوعات..............................	295

هذا الكتاب

لقد أبدى الشعب الجزائري دفاعا شجاعا منقطع النظير في تاريخ البشرية ، تضحيات جسيمة بمساهمة الرجال و النساء و الشيوخ و الأطفال ضد همجية و وحشية أعداء الانسانية .

إن ثوراته التحريرية و قوافل شهدائه و بطولاته الخالدة لم تبخل بالتضحيات منذ أن وطأت أقدام جيوش الاحتلال الفرنسية الصليبية أرضه الطاهرة ، ففي شهر جوان من سنة 1830 م قامت عدة ثورات شعبية مسلحة و لم تركن للهدنة بتاتا .

إن الشعب الجزائري قبل 1830 م و بعد الاحتلال الفرنس سيظل غيورا على سيادته و على وحدته في العقيدة و الوطنية و الهوية و سيظل يصارع التخلف بجميع أشكاله و يقاوم شتى أنواع الاعتداءات الخارجية ، تماما مثلما قاوم الاستعمار الفرنسي و أعوانه الخونة من أبناء جلدته ، و لا يخيفه البطش أو الارهاب مهما كان مصدره .

دار المعرفة
www.elmarifa.com

ISBN : 978-9961-48-168-5
DEPOT : 1884/2006

http://albordj.blogspot.com